د. محمد الباز

إسلاميات كاتب مسيحي

دراسات نظمي لوقا عن الرسول ونسائه وأصحابه



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : إسلاميات كاتب مسيحي

المــــؤلف : د. محمد الباز

رقـم الإيداع : ٢٠١٠/٢٤٧٣٣

الطبعة الأولى ٢٠١٠



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

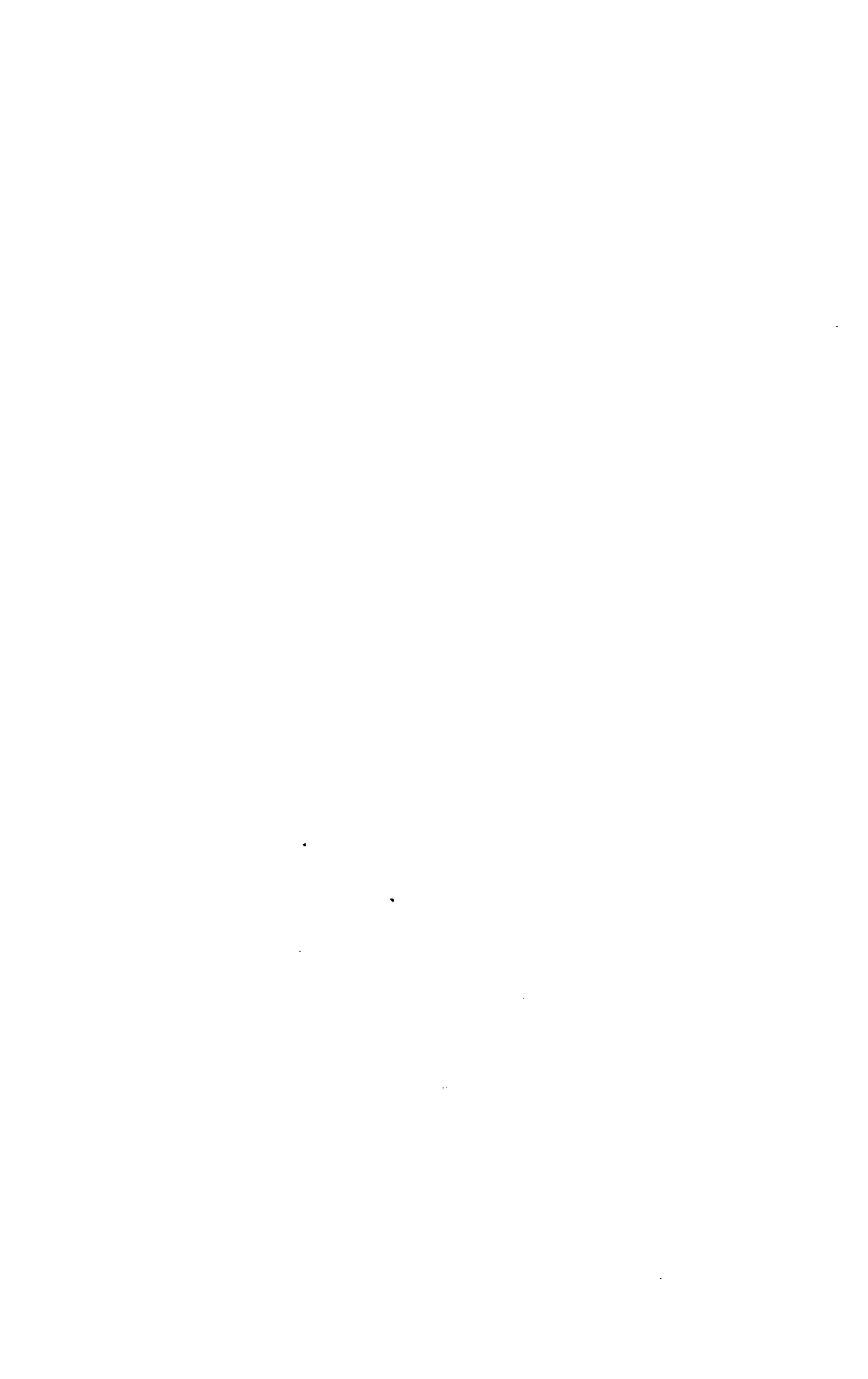
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦_٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إسلاميات
كاتب
مسيحي

1

أكثر من مقدمة
الكاتب - والإسلاميات-
وأشياء أخرى



(١)

وكأنها كانت مؤامرة اشترك فيها المسلمون والأقباط على السواء.

الدكتور نظمى لوقا أستاذ الفلسفة الذى أنصف الإسلام فى كتاباته،فقررت الكنيسة أن تحرمه وتطرده من رحمها و رحمتها،ولما مات لم تصل عليه،وعندما عرف المسلمون أنه كتب ما كتبه عن الإسلام ليس لأنه أسلم،ولكن لأنه يحب الحقيقة ليس إلا قاطعوه،وتحالف عليه القوم حتى أنسوا الناس ذكره فأصبح نسيا منسيا.

رغم كتابات نظمى لوقا الكثيرة،إلا أن كتابه محمد الرسالة والرسول يظل هو الأهم والأشهر؛لأنه الكتاب الذى كان فاتحة الصدام بينه وبين الكنيسة،وهو الصدام الذى وصل ذروته فى العام ١٩٨٧ عندما مات نظمى،فقد تهرب كاهن الكنيسة من الصلاة عليه،ورفض صغار العاملين فيها إدخال تابوته إليها،ولما سأل من رافقوه لأداء واجب وداعه:هل صدر فى حقه حرمان كنسى دون أن يعلم؟أم أن تصرف الكنيسة والقائمين عليها مجرد تصرف شخصي؟ورغم أن السؤال كان واضحا،إلا أنه بقى دون إجابة حتى الآن.

كان هناك سؤال آخر مهم،فهل سيدفن نظمى فى مقابر الأقباط؟أم يذهبون به إلى مقابر المسلمين نزولا على شائعة أنه أسلم سرا،لكن ولأنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته يعلن أنه مسيحى ومعتز بمسيحيته ولم يتخل عنها مطلقا،فقد دفن فى مقابر الأقباط،لكن دون صلاة الموتى.

قضى نظمى لوقا أكثر من عشر سنوات (١٩٤٨ – ١٩٥٩) عاكفا على فكرة كتابه «محمد الرسالة والرسول»،وكان هدفه كما قال هو أن يوحد أبناء أمته من المسلمين والمسيحيين،لكن المفاجأة أن الكتاب عندما صدر زاد فى هذه الفرقة إلى حد كبير.

كانت أولى واجباته كما قال: أن يبصر المعجبين به بحقيقة مقصده ودوافعه من تأليف هذا الكتاب،فهو لم يكن داعية للإسلام بما كتبه عنه،بل كان مسيحيا ينفذ ما تمليه عليه مبادئ الأخلاق المسيحية وبمنظور عقل إنسانى حضارى،ولما كان ما كتبه قد أنصف الإسلام،فإنه لم يتخلَّ أبدا عن مسيحيته،بل كتب عن النبى محمد من منطلق الإخلاص لمبادئه المسيحية والتمسك بجوهرها وأخلاقياتها.

عندما خرج الكتاب إلى الأسواق فى العام ١٩٥٩،كان رد الفعل عنيفا ومدويا،لم يفاجأ بالغضب والمقت وإن أحزنه ذلك غاية الحزن،لم ينزعج ضميره وإن كان وجدانه انزعج غاية الانزعاج،كانت راحة ضميره الفكرى والخلقى والإنسانى والوطنى عونا له على التجلد للمحنة العاطفية والاجتماعية التى بلغت مداها حتى تقطعت على نصالها صلات الرحم،وبلغ الإيذاء أهل بيته المقربين،ممن لا ذنب لهم ومنهم صبية لا إدارك لهم لمعنى ما حدث.

كان نظمى لوقا يتوقع ما حدث بالضبط،ولذلك لم يكن رد الفعل مفاجئا له على الإطلاق،لم يرهق عقله أو ضميره،ولكن نوعا آخر من رد الفعل فاجأه من حيث لا يحتسب،وكان هذا أفدح من رد الفعل المتوقع لأنه ألقى على عقله وضميره عبءًا لا يطاق من الضيق والحرج والتأذى،فصار ذلك محنته الحقيقية.

فؤجى نظمى أن كثيرا من المسلمين يعلنون عليه الحرب – على أساس مختلف تماما عما فى ذهنه ونفسه – فقد غلب على الأكثرين منطق التمنى وذاتية التفكير،فتبادر إلى نفوسهم أنه فضل دينهم على دينه فتخلى عنه،تماما كما تبادر إلى نفوس من أعلنوا عليه الحرب أنه تخلى عن دينه،ما دام تصدى لإنصاف الديانة الأخرى.

انطلق الهجوم على نظمى من عين الأسلوب الذى يعلى من شأن ذاتية التفكير،وهى ذاتية تملى على أصحابها:أنه إذا صادقت الآخر فأنت عدوى،وإن

صادقتنى فأنت عدو الآخر،ولو كان هذا هو الواقع لما كان فيه ضرر،فألوف من الناس يعتنقون كل يوم ديانة غير ديانتهم الأصلية.

لكن ما حدث كان منافيا للواقع لأنه لم يكتب من منظور دينى أو إيمانى،بل من منظور موضوعى إنسانى تماما،فكتابه كان «تنوير معرفى وخلقى»،وليس كتاب دينى،ومن ثم صار السكوت على هذا الحرب من المسلمين غير القائم على أساس من الواقع أمرا لا يمكن تفسيره إلا بالنفعية أو الاستفادة من وهم نفسى أو عقلى وقع فيه من استقبلوا الكتاب.

كان نظمى لوقا واضحا فى هدفه،فهو ينصف الإسلام بشكل عملى،فقد أهدى كتابه :«إلى روح المهاتما غاندى،الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن،ومات بيد متعصب من أبناء ديانته،شهيد دفاعه الصادق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

قصد نظمى لوقا من هذا الإهداء أن يقول لمن يقرأ الكتاب:«لتكن ديانتك ما تكون، فهذا شأنك وحدك،ولكنى أدعوك ألا تتخذ منها ذريعة للتعصب ضد الديانات الأخرى،بل اجعل من جميع أتباعها إخوة لك،واجعل من تلك الديانات أخوات لديانتك فى التوجه إلى الله،فى تنزه عن الأنانية والتعصب،وفى حب شامل للبشرية كافة.

وكما كانت الفكرة مزعجة كان الإهداء مزعجا أيضا،يقول نظمى لوقا فى استعراضه لردود الفعل على الكتاب:« دكتور فلسفة له بعض الشهرة،كنت أأنس فى أحاديثه الاعتدال والمعقولية،التقى بى فى مكان ما،ولما عرفوه من أنا قال: إنه لا يأخذ على كتابى إلا ما أسماه مجافاة اللياقة (وتأدبا منه لم يقل الجليطة)،لأنى أهديت كتابى عن رسول الإسلام إلى رجل لا يدين بديانة سماوية،وهو غاندى،وزوى

الرجل فمه وقد زم شفتيه فى امتعاض».

أما الموقف الذى كان شديدا على نفس نظمى لوقا،فكان ما قاله هو:«طرق بابى بعد ظهور كتابى «محمد الرسالة والرسول» رجل أبيض البشرة مشرب بحمرة فى ملابس أوروبية،وما أن تأكد أنى فلان حتى عانقنى،فقلت فى نفسى: «اللهم اجعله خيراً»،وجلس على طرف المقعد فى تأدب واضح،وراح يثنى على كتابى،ثم قال:أنا أعمل بالسعودية وأسكن مكة المكرمة،وقد جئت أدعوك وأسرتك لزيارة مكة والعمرة أو الحج إن تأخرت إلى موسم الحج،فسألته بهدوء شديد، يسرنى أن أزور مكة،ولكن أيسمح بهذا للمسيحيين؟، فغاضت الحمرة الطبيعية من وجه الرجل،وفغر فاه،وأخيرا عثر على لسانه فقال: كمن لا يصدق ما سمع:أو لم تسلم؟فقلت له:لا ...وماذا دعاك إلى هذا الظن؟،فانتفض الرجل قائما يبتدر باب المسكن وأنا أتبعه،ولم ينس وهو فى فتحة الباب أن يلتفت إلى فى مقت شديد وإزدراء واضح،ثم بصق على الأرض،وانطلق يهبط السلم كمن ينجو بنفسه من وباء،ووقفت أنظر فى أعقابه،وأنا أحمد الله أن أمثاله ليسوا كثيرين جدا».

ليس هذا فقط،بل كان هناك موقف آخر،يقول عنه نظمى بنفسه:«بعد ذلك بأيام التقيت برجل مثقف،كنت أعرفه منذ سنين مولعا بالإلحاد،مغرقا فى تطرفه العلمانى،ويجاهر بعدائه للعقائد الدينية كافة،ويعدها - بلا استثناء – تخلفا فكريا وحضاريا،فإذا به ممتعض مستاء؛لأننى خيبت أمله وابتدرنى قائلا:أمثلك يا فلان يخون موضوعية النظرة العلمية؟فقلت له:بل أنا داعية إلى موضوعية التفكير،فرد على:وما العلاقة بين موضوعية التفكير والاعتقاد الدينى،أليسا نقيضين؟،فقلت :إنهما مجالان مختلفان ولكنهما ليس متناقضين،فقال:فكيف كان ذلك؟»

استجمع نظمى لوقا نفسه مستعينا بصبره قائلا:«قد يجتمع التفكير الموضوعى –

الذى هو لباب العدل – والإيمان الدينى،وقد يفترقان،فيكون الإنسان مؤمنا بدين وموضوعيا فى رؤيته لكل شئ،وعادلا فى أحكامه يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،وقد يكون مؤمنا وغير موضوعى،أى متعصبا غير عادل،ولا يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،فيتحول إيمانه إلى هوى عقلى جامح وإلى جور وعدوان،وينبغى أن تعلم أن الأديان الكبرى تدعو للعدل والإنصاف مهما اختلفت الديانات،﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ هكذا يقول القرآن، «وأحبوا أعدائكم »هكذا يقول الإنجيل،وقد لا يكون هذا ولا ذاك،كما أرجو ألا تكون أنت،فأنا لا ألزم الملحد الذى ينكر وجود الله أن ينصف الأديان،ولكنى أطالب من يؤمن بوجود الله أن يزن العقائد الأخرى وشرائعها بميزان موضوعى،ويستحسن منها ما يستحسنه من عقيدته بغير تحيف ولا جور ولا تعسف».

رد عليه صاحبه قائلا:«ظننتك تدعو أمثالى إلى التدين»،فرد نظمى:هذا هدف حسن ولكنه ليس هدفى،فأنا داعية إلى موضوعية التفكير والعدل،بحيث لا يتحامل مؤمن بدين على ديانة سواه،أما من ينكر الأديان فقد ارتفع عنه هذا التكليف؛لأنه يساوى بينهما فى الرفض،فلا إكراه فى الدين،أما العدل فواجب خلقى ومنطقى معا على كل عاقل».

لكل هذا العنف فى رد الفعل،حاول نظمى لوقا أن ينشر فى الصحف توضيحا لموقفه،فهو لم ينصف رسول الإسلام لأنه أسلم؛ ولكن لأنه رآى أنه يستحق الإنصاف،لكن النظام الناصرى فرض على الصحف حظرا شديدا أن تنشر شئيا عن كتب نظمى حتى ولا فى الإعلانات المدفوعة.

كان الحل الوحيد أن يستمر نظمى لوقا فى إصدار كتبه التى تدافع عن الإسلام

وتنصفه،أصدر كتب« محمد فى حياته الخاصة»،و«أبو بكر حواري محمد»،و«عمرو بن العاص» و«عمر بن الخطاب ..البطل والمثل والرجل»،وفى كل مرة يصدر له كتاب جديد،كان يزداد سوء الفهم،للدرجة التى اضطر فيها أن يصدر وبعد ربع قرن من كتابه الأول «محمد الرسالة والرسول» كتابه المهم جدا «أنا والإسلام».

أصدر نظمى لوقا هذا الكتاب كى يصحح تفكير الناس عن طريق تصحيح تصورهم لنوع موقفه الفكرى البحت من الإسلام وعلاقته به وسدا لمنافذ العبس والإبهام فى هذا الشأن.

ويصف نظمى ما أقدم عليه:«وسيكون مدخلى إلى هذا تحليل أسباب فشلى الذريع منذ ربع قرن،وردود الفعل التى صاحبته وكيف كانت أعراضا تشير على تباينها وتناقض مظهرها إلى داء واحد،وبذلك لا تكون ردود الفعل والمحنة أحداثا شخصية عارضة،بل ظاهرة نكشف عن أسبابها الكلية،والعلم موضوعه ما هو كلى متوار خلف الجزئيات والأعراض التى ترشدنا إليه،وهذا هو الموقف الجدير بكل ذى فكر،وهذا سيكون مدخلنا إلى المعرفة الموضوعية بالإسلام،معرفة أتمنى ألا يغالطها وهم وألا تغرر بأحد».

إننى أمام مشروع متكامل لكاتب مسيحى يضم ستة كتب عن الإسلام،وهى جديرة بالرصد والتأمل والمناقشة،ليس من أجل إنصاف نظمى لوقا الذى ظلم ظلما شديدا،ولكن لوجه الحقيقة التى يريد الجميع أن يخفونها بعيدا عن الأبصار،إنها محاولة محفوفة بالمخاطر،لكنها تستحق،وها نحن نبدأ معكم من جديد.

(٢)

قد تتحير من سلوك الدكتور نظمى لوقا،الذى قرر أن ينصف الإسلام،ليس من أرضية الاقتناع ولكن من مساحة الموضوعية،التى تعز على كثير من الباحثين

والمفكرين.

لكن عندما تعرف جذور الرجل الفكرية والنفسية،لن تتعجب،فما جرى عليه فى طفولته وشبابه،كان لابد أن يقوده إلى أن يكون منصفا للإسلام.

فى كتابه«أنا والإسلام»...حكى نظمى لوقا القصة كاملة.

لقد جاء كأول أبناء زواج من أب شاب متوسط التعليم،ولكن طموحه الدنيوى كان فوق المتوسط بكثير،وأم كانت أقرب إلى الطفولة،غريرة – كما يصفها – فى الثالثة عشرة من عمرها،لم يتح لها إلا بعض التعليم الابتدائى،مع تربية مستنيرة،فى بيئة كانت الأفكار الخرافية تشكل فيها معظم تصورات الإناث.

لم يكن غريبا أن تمرض الطفلة التى لم يكتمل نموها البدنى بحمى النفاس عقب ولادتها لنظمى،ولم يتح لها إرضاعه،ولولا عطف بنات الحلال من الجارات وذوات القربى ممن يرضعن لما كتبت الحياة للطفل.

ويذكر نظمى أن قريبته العجوز التى كانت ترعاه تطوف به فى يومي سوق مدينته – دمنهور – ،وهما يوم الاثنين ويوم الجمعة لترضعه ذوات الأطفال من الفلاحات الغريبات على سبيل الإحسان.

لكن الأم التى حرمت نظمى من حنان صدرها رغما عنها،أرادت أن تملأ رأسه بتصوراتها الطفولية عن الناس وعن الدنيا،كانت أمه هى رفيقته،فقد كان طفلا معتل الصحة،بنيته شديدة الضعف،ولذلك أحاطه والده بسور يعزله عن مخالطة أقرانه وأنداده،وأصبحت أمه هى مصدره الوحيد لكل تصور عن الناس وما بينهم من علاقات.

كان والده كما يصوره رجلا داجنا،ما أن يعود إلى بيته حتى يلزمه إلى الصباح،يجالسه هو وأمه ويطالع لهما فى كتب كان يقتنيها،وكان أهمها كتابان هما

«كليلة ودمنة» و«ألف ليلة وليلة»،ثم بعض الروايات المعربة التى تدور حول المغامرات والفروسية،ثم يحدثهما بعد ذلك عما يتحدث عنه الناس من أخبار الحركة الوطنية المصرية.

كانت عائلة نظمى فى الغالب غير مستقرة يصف هو ذلك قائلا:«كان جدى لأمى متوفيا،وشبت أمى يتيمة من نوع عرفت فيما بعد أنه كثير الحدوث فى المجتمع المصرى،ولكن ليس بين أمثالنا من المسيحيين،فقد كان أبواها مطلقين وذلك كما أوحى إلى فى ذلك المناخ،سقطة أو وصمة،وتزوجت جدتى لأمى من رجل كان موضع كراهية من أسرتى،لا لشئ إلا لأنه تزوجها».

اكتشف نظمى حينما كبر أن هذا الرجل كانت العائلة قد افترت عليه،يقول:«كان رجلا ممتاز الثقافة،أوقعته ظروف الزواج يؤمئذ فتزوج هذه المرأة الواسعة الثراء المعتدة بثرائها، والمعتدة على الأخص بأميتها الفكرية».

إنه لا يتردد أن يقول رأيه فى أقرب الناس إليه طالما أنه يقول الحق،ثم أنه لم يستسلم لما يقوله الآخرون،فيعترف به،بل له رأيه الخاص الذى يكونه بعد أن يكون عرف وبحث وناقش،وقد يكون هذا هو المنبع الذى قاده فى النهاية إلى مصب إنصاف نبى لا يدين بدينه وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

أما جده لأمه فيقول عنه:«كان والدى بموافقة أمى الناقمة على أبيها قد حرم عليه دخول البيت؛ لأنه كما كانا يكرران أمامى دائما هو سبب البلاء،فهو شديد الولوع بالنساء والشراب،خليع ماجن لا يشعر بالمسئولية عن شئ ولا يبالى الملام،كان فضيحة تدب على قدمين».

كانت هذه الحكاية عاملا مؤثرا فى تنشئة نظمى لوقا،هو نفسه يقول عن ذلك:«وهكذا أضيف عنصر جديد هو صرامة المقاييس الخلقية،والنقمة والازدراء

لكل إنحراف عن سواء السبيل أو العجز عن التحكم فى الرغبات والشهوات التى هى من وسوسة الشيطان».

ورغم هذا الزلل النفسى الذى اعترى العائلة،إلا أن حياة نظمى النفسية خلت من الأزمات وألوان الصراع الداخلى،وخلت من الاحتكاك بالعالم الخارجى الذى صوروه له حافلا بالشر والسوء،فهو لا يعرف أو لا يسمع عن أحد إلا نمطين متقابلين تماما،الأول هو الزعيم سعد زغلول،الذى كانت صورته هى الصورة العائلية الوحيدة فى البيت،ويقابله النمط الآخر المزدرى رغم قرابته الحميمة وهو جده لأمه،وفيما عدا هذا لم تكن له علاقات مباشرة مع أحد.

لكن حدث فى حياة نظمى لوقا ما يشبه الانقلاب،فقبل أن يبلغ الرابعة من عمره رزقت الأم بطفل آخر،ففكر الأبوان فى إرسال نظمى إلى المدرسة،ولما لم تكن هناك رياض أطفال،بل مدرسة أولية هى «العريان»،فقد ذهب الطفل الضعيف البنية،المتضخم الرأس حجما ومضمونا إلى تلك المدرسة، فإذا به يجد أولادًا فى ضعف عمره أو أكبر فى جلاليب،وبعضهم يلبس قبقابا،وبيد كل منهم مخلاة من القماش بها اللوح وقلم الإردواز وعلى رأسه طاقية،وليس للمدرسة فناء،فهم يتجمعون فى الشارع الضيق المبلط بأحجار مستطيلة صغيرة سوداء،حول عربات الحلوى الرخيصة وغزل البنات والدندرومة.

كان هذا هو أول لقاء بين نظمى وأبناء جيله فى ساحة العالم خارج بيته،صدمته حقارة مظهرهم وصدمتهم قامته الصغيرة وأناقة بدلته وحقيبته وطربوشه وهبوطه من العربة الحنطور فى صحبة حسين خادم الأسرة،وصدمته أيضا ألفاظ غريبة يتراشقون بها ثم يتعاركون أو يتضاحكون، ولم يفخم نظمى تلك الألفاظ، ولكنه أحس من ردود الفعل أنها صفات غير كريمة ترمى بها الأمهات خاصة.

دخل نظمى المدرسة وهو يجيد قراءة الصحف والكتب،وكانت صدمة عندما وجد أن المدرسة لا تزال تتعثر فى تعليم طلابها أبجديات القراءة،ولما عرفوا حقيقة مستواه،نقلته المدرسة إلى فصل أعلى،لكن الصدمة الأكبر كانت تنتظره هناك،فقد أخذ منه الطالب الذى يجلس بجواره قلمه الإردوازى،فصرخ فيه:هات قلمى،وإذا بالشيخ الذى كان يواصل الكتابة على السبورة يقول:من ابن الكلب الذى تكلم بغير إذن.

كان هذا السباب وحده صدمة أخرى،ووجد نظمى - وهو الطفل الصغير- نفسه يقول للشيخ:أجئنا إلى المدرسة لنتعلم الأدب أم قلة الأدب؟،احتقن وجه الشيخ، وتناول يد نظمى بقسوة وراح يلويها،فانقض الطفل على يد الشيخ وأنشب فيها أسنانه،ثم جرى يهبط على السلم،تاركا الفصل وراءه يموج الهرج والمرج.

العقاب الحقيقى كان عند ناظر المدرسة،الذى قال لنظمى:جزاء الكلام فى الفصل بغير إذن حاضر فى الحجرة المقابلة..تعال معى،وجره جرا إلى حجرة كان فى أرضها غطاء حجرى لبئر،وفيه حلقة حديدية – عرف نظمى فيما بعد أن تلك البئر مخصصة للصرف الصحى بالمضخات كما هو الحال فى بيوت معظم المدن فى ذلك الحين.

أما البئر قال له الناظر:«هنا يعيش التمساح الذى نلقى إليه بالأولاد الذين يتكلمون فى الفصل..وسأعفو عنك هذه المرة لأنك كنت لا تدرى هذه الأصول».

عاد نظمى إلى بيته،كتم عن والديه ما جرى له،لكنه لم ينم طوال ليلته مشغول الخيال بالتمساح.

لكن حالة الخوف هذه،وتهكم أقرانه فى المدرسة عليه لأنه كان الأكثر منهم موهبة وتفوقا لم تجعله يتراجع،ففى المدرسة كان نظمى ظاهرة لفتت أنظار أساتذته

بسبقه سنه فى أنماط السلوك والتفكير والمعرفة،حتى كان وهو فى السنة الأولى أو الثانية يستدعى إلى فصل السنة الرابعة ليصحح ابن السابعة لذوى الشوارب من تلاميذها الموقرين معلوماتهم،على سبيل التبكيت لهم،فيكون جزاءه أن ينتظروه عند انصراف المدرسة ليكبسوا له طربوشه ويصفعوه على صدغيه وعلى قفاه ويمزقوا له ملابسه.

مثل هذا الموقف الذى تكرر كثيرا،كان سببا فى أن ينسحب نظمى إلى الإنطواء داخل نفسه والعزوف عن مخالطة الناس أو مجاراة أنماطهم السلوكية والفكرية.

فى هذه العزلة وجد نظمى لوقا ضالته فى الشيخ البخارى،شيخ المسجد الكبير،والذى كان فى الوقت نفسه تلميذا للإمام محمد عبده،يقول عنه نظمى:«كان قدوة لى فى منهج التعويض عن ضعف البنية،فهو قصير القامة كفيف البصر،لكنه كان كبيرا بالتطلعات الذهنية والخلقية وسمو المبادئ الفكرية والروحية المسرفة فى نزاهتها».

تخرج نظمى لوقا على يد الشيخ البخارى وهو فى العاشرة من عمره،فقد ظل يتردد عليه ليحفظ القرآن منذ كان عمره ست سنوات،كان المسلمون والمسيحيون يتعجبون من هذا الطفل المسيحى الذى يدخل المسجد ليحفظ آيات القرأن،يحمل لشيخه نعله حتى يضعه فى قدميه،ثم يسير به حيث أراد.

لم يكن الشيخ البخارى فظا غليظ القلب،ولذا آنس إليه نظمى،وجد كيف استغنى عن أجره عندما مرت عائلة الطفل بأزمة مالية،بل عرض أن يذهب إلى الطفل فى بيته،حتى لا يشعره بالحرج،فى الحين الذى رفضت جدة نظمى أن تمنح إبنتها أى مساعدة رغم أنها تعرف جيدا أنها تمر بضائقة مالية.

كان الشيخ البخارى نموذجا للبطولة من وجهة نظر نظمى،كان يضم فى جنبيه

كل العظام فى التاريخ، يقول نظمى: لم أكن من الغباء النفسى بحيث أطلب أن يكون كل الناس،وكل الأبطال،صورة منى ومن نقصى البدنى وعقدتى التى تفزعنى من استخدام القوة ولو لنصرة الحق وخير البشرية إن اقتضى الأمر ذلك،بل كنت أعرف مواطن نقصى أو عجزى،وأكبر خلو أبطالى الإنسانيين الأخلاقيين منها».

بهذه القاعدة أكبر نظمى لوقا واشنطن الذى حارب ليستقل قومه،وأكبر أكثر منه إبراهام لينكولن الذى لم يتوان عن محاربة طائفة من قومه ليحرر العبيد،وعشق غاندى لأنه بسموه الروحى حارب تعصب بنى دينه مثلما حارب بالعصيان المدنى وعدم العنف مستعمريه من الإنجليز،عشقه حتى أنه كان يصوم كلما أعلن الصيام،وعشق المسيح وتعاليمه المثالية،وعشق أيضا نبى ديانة أخرى غير ديانته،هدى قومه عبدة الأصنام إلى عبادة الله الواحد،وقاوم كل محاولة لرفع قدره فوق مستوى بشريته،وامتشق السيف ليقيم دولة مؤمنة بالله على أنقاض فوضى قبائل كافرة لا أخلاق لها.

هل بدأت من هنا الرغبة لدى نظمى لوقا ليكتب عن الإسلام،وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؟أغلب الظن أن هذه كانت نقطة الإنطلاق لديه،فقد تماس لديه الحب لمحمد مع فلسفته الموضوعية (وهو المنهج الذى توصل إليه مبكرا) يقول:وجدت الكتابة عن نبى الإسلام بيانا عمليا أو منفستو لموضوعية الفهم والمعرفة والتقدير لمحسن إلى البشرية،وهادى مئات الملايين إلى التوحيد ومحاسن الأخلاق ومكارمها وميزان العدالة فى التعامل بين الناس.

إنه يضع أمامنا قيمة ما فعله، يقول:« مثلما كتبت أبصر الناس بسمات الإسلام وسجايا محمد الموضوعية،فى كتابين هما «محمد الرسالة والرسول» الذى أساءت

الكثرة من أبناء الديانتين فهم مراميه،و«محمد فى حياته الخاصة»،كتبت عن أبى بكر وعن عمر فى موضوعية من يرى فى كل بارقة خير وقدوة وسمو،منارة تصلح أن يستضىء بها البشر الموضوعيون كافة،أيا كانت عقائدهم،كذلك كتبت «على مائدة المسيح» بنفس الموضوعية المحايدة التى ينبغى أن ينظر بها إليه كل إنسان أيا كانت عقيدته،أى أننى شرعت فى هذه الموضوعية وفرضتها طريقا لنفسى قبل غيرى،فيما يتصل بعقيدتى وما يخالفها على السواء».

الصورة الآن واضحة من زاويتين...

الأولى هى ماذا كتب نظمى لوقا عن الإسلام؟

والثانية هى لماذا كتب عن الإسلام؟

وستظل زاوية ثالثة وهى كيف كان رد الفعل.

(٣)

بعد أن صدر كتاب نظمى لوقا «محمد الرسالة والرسول» بأيام قليلة تعرض ابنه لطعنة مطواة وهو فى طريقه إلى المدرسة،لم يكن هناك أى تفسير مقنع أو حتى غير مقنع،إلا أن صاحب الطعنة أحد المتعصبين،فعل ذلك انتقاما لما أقدم عليه والده من الكتابة عن الإسلام ونبيه ببعض الموضوعية،لكن أحدا لم يصل إلى حقيقة ما جرى.

رد الفعل الأهم كان القرار الذى أخذته وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة،حيث قررت الكتاب على مدارسها فى العام الدارسى ١٩٦١،وتظل النسخة التى كان يتداولها الطلبة فى المدارس هى الباقية والشاهدة والحافظة لهذا الكتاب المهم.

(بيانات هذه الطبعة من الكتاب نصا هى:الموسوعة الإسلامية الكبرى...محمد الرسالة والرسول..تأليف الدكتور نظمى لوقا...مقدمة بقلم السيد كمال الدين

حسين وزير التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة...ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى عامر..شارع الجمهورية بالقاهرة...وتنويه فى أسفل الغلاف :قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها بإقليمى الجمهورية)

لا توجد لدى معلومات عن ظروف تقرير الكتاب على المدارس،خاصة أن هذه واقعة خطيرة جدا،فالكتاب لم يعجب المسيحيون،لكن الكاتب والناشط القبطى مجدى خليل يرى أنه كان ضمن مجلس قيادة الثورة شخصيات متأسملة ومتعصبة فى آن واحد،مثل حسين الشافعى وكمال الدين حسين الذى كان وقتها وزيراً للتربية والتعليم،فقرر الكتاب على المدارس اعتقادًا منه،أن فيه نصرة قوية للإسلام.

ما فعله كمال الدين حسين كان مستفزا للبابا شنودة،(كان وقتها أسقفا للتعليم فى عهد البابا كيرلس السادس)،ووقع صدام بالفعل بين الأنبا شنودة والدكتور كمال رمزى استينو نائب رئيس الوزراء وقتها،بسبب فرض الكتاب على تلاميذ المدارس،لكن يبدو أن نفوذ استينو فى مجلس الوزراء لم يكن بالقوة التى تمكنه من منع تقرير الكتاب.

لكن يبدو أن البابا شنودة الرجل الذى لم يتعود الهزيمة أصرها فى نفسه،وظل مترقبا لنظمى بالمرصاد،فعندما مات فى ٢١ يونيو ١٩٨٧ كان البابا شنودة متوجا على عرش الكنيسة ملكا لا يرد أحد له كلمة،وكان طبيعيا أن يمنع الصلاة على نظمى،وقد طافت به زوجته الكاتبة والأديبة صوفى عبد الله بعدد كبير من الكنائس تطلب الصلاة عليه،لكن دون أن يستجيب له أحد ..أى أحد.

شئ مما قاله مجدى خليل يمكن أن يكون صحيحا،فعندما صدر الكتاب فى نهاية العام ١٩٥٩ (الكتاب صدر بالمناسبة لأول مرة فى شهر رمضان،ورغم أن الموعد

كان مصادفة إلا أن هناك من اعتبره تأكيدا على حرص الكاتب على إنصاف الإسلام والرسول)،وخرجت ردود الفعل السلبية،وأراد نظمى لوقا أن ينشر إعلانا يوضح فيه موقفه،منع تماما من ذلك،فلا إعلان مدفوع ولا أى خبر عن نظمى لوقا أو أى من كتبه.

لكن فجأة تغيرت الأوضاع تماما،وأصبح الكتاب المغضوب عليه،ملء السمع والبصر،وبدلا من أن ينشر إعلان عنه أصبح يوزع على طلاب المدارس وهم بالآلآف،هذا غير المكافأة الكبيرة التى حصل عليها نظمى مقابل تقرير كتابه على نطاق واسع فى كل أقاليم الجمهورية العربية المتحدة.

تغيير الأوضاع لم يكن صدفة ولكنه كان أمرا معدا له،ولولا وجود كمال الدين حسين أحد الضباط الأحرار على رأس وزارة التربية والتعليم،لما كان لهذا الكتاب وجود ولا أثر.

كمال الدين حسين لم يقرر الكتاب على طلاب المدارس فقط،بل كتب له مقدمة أعرب فيها عن إعجابه الشديد بالكتاب،ومن غرائب ما نجده أن كثيرا من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت التى تحتفى بالكتاب وتشيد به،لا تنسب الكتاب لنظمى لوقا وحده،بل تنسبه إلى نظمى لوقا وكمال الدين حسين معا،وكأنهما قاما بتأليفه.

يقول كمال الدين حسين فى مقدمته:«ما الإسلام ..وما المسيحية ..وما الموسوية الحقة؟هل هى إلا أديان سماوية تنزلت على البشر فى مراحل مختلفة من حياتهم ليستشرفوا إلى المثل العليا ويستمسكوا بالخلق والفضيلة ويتعاونوا على البر والتقوى ويرتبطوا إلى الله الخالق القادر ارتباط الحب والرجاء والخشية،فيعيشوا على الأرض إخوة متحابين،يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذى خلقهم وإليه مصيرهم جميعا فى يوم لا ريب فيه».

ويصف حسين هذا الإيمان بأنه إيمان بالله الواحد،وتطلع إلى المثل العليا فى التعايش الإنسانى واستمساك بالخلق والفضيلة فى السلوك الفردى والاجتماعى، وأخوة إنسانية جامعة تحصن البشر ضد الأثرة والاستعلاء والبغى وتربط بعضهم إلى بعض برباط الحب والتعاون،ورجاء مشترك إلى الله أن يشملهم يوم يصيرون إليه بالرحمة والرضوان.

يجعل كمال الدين حسين من الأديان كلها دينا واحدا مشتركا،ويشير إلى أن كتاب نظمى لوقا يعلى من شأن المبادئ العامة فى هذا الدين المشترك التى نستحضرها جميعا لتعيننا فى كل صلاة نصليها وفى كل صيام نرتفع به فوق مستوى شهواتنا وفى كل زكاة نؤديها لنؤكد الأخوة الإنسانية بين بعضنا البعض وفى كل رحلة حج نرحلها من قريب أو بعيد لنصل إلى رحم الإنسانية المؤمنة بالله،هى مبادئ عامة لا يختلف فى الإيمان بها ذو دين عن ذى دين غيره،على تعدد الأسماء والصفات والبقاع والمجتمعات وما يستتبع تعددها من اختلاف فى بعض الموازين أو فى بعض المسائل.

لقد ألهم نظمى لوقا كمال الدين حسين فكرة عظيمة وهى أن الأديان كلها دين واحد يقول عنه:«دعوة واحدة تنزلت من إله واحد لعالم واحد تعاقبت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء،وتعاقبت أنبياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ليكونوا تعبيرا متطورا لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال من غير نقص فيها ولا زيادة؛ ولأنها دعوة أزلية أبدية خلق الله تعالى الخلق إلى أن يجمعهم فى ساحة رحمته وعدله».

ويحدد كمال الدين حسين الفكرة أكثر عندما يرى أن موسى وعيسى ومحمد هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية،لا يختلف أحد منهم عن أحد فى مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها، وإن اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبى

منهم إلى عهد نبى،فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبى والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد،معنى لم يفطن له كثير من الناس فى كثير من العصور.

يؤكد كمال الدين حسين أن هذا المعنى فطن له نظمى لوقا فأضاء مصباحا قوى الضوء خليقا بأن يهدى إلى طريق الرشاد،يقول:«كتاب عن محمد الرسالة والرسول..خطرت فكرته على قلب مسيحى يؤمن بالله ويؤمن بالعقل ويؤمن بالإنسانية،درس محمدا إنسانا ودرسه داعيا ومرشدا إلى هدى،ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضارى فى المجتمع الإنسانى ودرسه نبيا ورسولا،فآمن إيمان القلب والعقل جميعا بأنه نبى ورسول بقلب المؤمن وعقل الإنسان وفكر الباحث،درس نظمى لوقا حياة محمد بن عبد الله ثم أفرغ دراسته موجزة فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» ليكون لبنة فى أساس بناء وحدة فكرية وروحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد وبالفضيلة وبالمثل الإنسانية وبالقيم الروحية».

المعنى نفسه أكده المثقف الكبير فتحى رضوان الذى أرسل لنظمى لوقا خطابا يقول له فيه:«أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أن كتابك حفزنى على تحرير هذا الخطاب لأنك أدرت الحديث فيه عن نبى المسلمين وأنا مسلم وأنت من المسيحيين،فتأليف الكتب عن الإسلام من مسيحيين سبقك إليه كتاب كبار من مسيحيي أوروبا وأمريكا،ولم يروا فى ذلك حرجا،وإن كان فضلك أكبر من فضلهم جميعا،إذ أن ما تذرعت به من شجاعة الإقدام على هذا العمل الأدبى أكثر مما احتاجوا إليه بكثير،فاختلاف الظروف والبيئات والملابسات يجعل من عملك شيئًا أقرب إلى المغامرة والمجازفة بالصلات والصداقات والمصالح،لذلك فإنى أكتب هذا لأعلن إليك أن الطابع الإنسانى فى كتابك قد مس شغاف قلبى أكثر من أى شئ آخر فيه

على جماله كله،فقد جرى بأسلوب من يحب الناس ويحب الأخيار فيهم ويحب لهم أن يعيشوا متآخين صافية نفوسهم مشرقة بالود والتسامح قلوبهم».

أما الرسالة الأهم والأقوى فكانت من العالم الأزهرى الكبير أمين الخولى الذى قال فيها:«يشعر قارئ «محمد الرسالة والرسول» أن باستطاعته البشرية الترفع المحلق عن وراثاتها ورواسبها الصلبة من أفعال آلاف الأجيال واستهواءاتها العنيفة وضعفها المتهالك أمام هذا وأشباهه مما ينقلها ويحول دون كل استعلاء منها،وهى حال الكثرة الكاثرة بل حال الكل والجميع إلا قلة نادرة،لا يكاد يكون لها حكم،إننا جميعا بكل ضعف بشريتنا لا ندرك من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء والحقد والسخط على حطب جهنم المخالفين لنا،وتلك هى الآفة التى صب بها أهل الأديان على الحياة فى كل عصور التاريخ شواظا من نار فى محارق ومذابح ومعارك المذهب النقى والعقيدة السليمة على الملاحدة الهراطقة المبتعدين».

إلى هذا الدرجة استوعب هؤلاء الناس ما كان يريده نظمى لوقا،إنه لم يكن ينصر دينا على دين آخر،ولم يكن يشهد بأحقية أحد بأن يدعى امتلاكه للسماء وحده،لكنه قال : أن الأديان كلها من إله واحد،فلماذا الفرقة،وهو تحديدا ما جلعنى أعيد مرة أخرى نشر ما كتبه نظمى لوقا ليس فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» فقد أعددت دراسة بالفعل عن الكتاب ونشرت نصه كاملا فى العام ٢٠٠٧،لكننى سأنشر بقية إسلامياته ،ليتأكد الجميع أن الدين واحد والإله واحد.

لقد اعتقد البعض زورا وبهتانا أن إعادة نشر ما كتبه نظمى لوقا فى الإسلاميات تحديدا نوعا من الفتنة وشق الصف بين المسلمين والمسيحيين فى مصر(وهو الصف المشقوق أصلا)،هؤلاء جميعا أقول لهم: أن يمتنعوا ...لأننى أكتب لمن يريد أن يفهم .. ولا أكتب لتجار الأديان،وليس علينا كما يقولون ألا يفهم البقر.

إسلاميات
كاتب
مسيحي

2

محمد الرسالة والرسول
صدق الكاتب- وأمانة حامله



يفتتح نظمى لوقا كتابه «محمد الرسالة والرسول» بآية من سورة آل عمران: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ،وبقول منسوب إلى أرسطو:«أفلاطون حبيب إلى نفسى بيد أن الحقيقة أحب إلى من نفسى».

وهو استهلال لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل للمنهج الذى يتبعه مع كشف رأيه ووجهة نظره فى الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو يقر برسالته وعبقريته الإنسانية النادرة،ولذلك لم يكن غريبا أن يهدى كتابه إلى :«السائرين فى الظلمة وإلى من بلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى المهاتما غاندى الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن،ومات بيد هندوسى متعصب،شهيد دفاعه الصادق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

لقد أراد هذه الفيلسوف المسيحى من خلال دفاعه عن الإسلام وعن رسوله الكريم،أن يشير إلى أن الأديان كلها لله،وليس أن تكون مؤمنا بدين منها أن تنكر الدين الآخر،لكن الحقيقة التى يجب أن تكون أحب إلى النفوس مما عداها،تقتضى أن تقولها،ما دمت قد وصلت إليها.

ولذلك كان من المنطقى أن يبدأ نظمى مقدمته للكتاب بقوله:«من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور،ومن يغلق عقله وضميره دون الحق،يضير عقله وضميره ولا يضير الحق».

فالنور منفعة للرائى لا للمصباح،والحق منفعة وإحسان إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه،وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذى البصر،ومن الصمم لذى السمع؛ لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنسانا،والأصم قد يبقى

بعد فقد السمع إنسانا،أما من اختلت موازين عقله،أو موازين وجدانه،حتى ما يميز الخبيث من الطيب،فذلك ليس بإنسان،بالمعنى المقصود من كلمة إنسان.

بهدى من هذا المنهج وجد نظمى لوقا أنه من واجبه أن يكتب موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم،وليس الإنصاف ميزة لصاحبه إلا حينما يغالب الحوائل،كالعقائد الموروثة والتقاليد السائدة،أما حين يرافقنها فما أهون الإنصاف،ولولا المشقة ساد الناس كلهم،كما يقول أبو الطيب المتنبى،ويوشك هو أن يقول:«لولا العصبية أنصف الناس كلهم».

ويجزم نظمى لوقا:«ما أحوجنا فى هذا العالم المضطرب الذى تنسمت فيه الناس مسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التى صبغت كل منحى من أنحاء الحياة،أن نسعى للقضاء على آفة العصبية،وننشد الإنصاف،إنصاف الخصم وكأنه صديق،فيشهد لنفسه بالفضل وحسن الرأى حين يؤدى الحق حقه مهما اشتجر الخلاف أو لج الخصام،وما أرى شريعة أدعى للإنصاف،ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ .

ويضيف:«أجل نعدل ولا نجور،فذلك حق أنفسنا علينا،وحق عقولنا علينا،وحق ضمائرنا علينا،قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك،وما أرى الشانى يضير خصمه حين يجور فى الحكم عليه،إلا كما يفقأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسؤوه مرآه،ولست أحب ذلك لأحد،بل إنى أرى مستقبل هذه البشرية منوطا باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم،حتى يرتد بنو حواء إخوة يختلفون فى مودة،ويتباعدون إلى تقارب،ويفئيون فى نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم بها وهو الحق والعدل».

ويتساءل نظمى لوقا عمن يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير دينه،هل

يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجمود والجور؟،ورغم أنه نفسه لا ينكر بواعث كثيرة فى صباه قربت بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم،وليس فى نيته أن ينكر أو يتنكر لهذا الحب،بل إنه يشرف به ويحمد له بوادره وعقباه،فإنه يرى أن هذا الحب نفسه هو الذى يسر له شيئا من التفهم،وزين له من شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تلك الصفات المشرقة،وجعلته يعرض بوجدانه عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربى،فهو حين يحتكم إلى العقل،يرى الخير كل الخير فيما جنح إليه.

ويعترف نظمى لوقا:«بدافع من حب البشرية أقدمت على تسطير هذه الصفحات،وسيان بعد هذا أن يقول عنا القائلون:إنها شهادة حق أو رسالة حب أو تحية توقير وتبجيل،فما كان كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه،وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل وهمة البطل،فكان حقا على المنصف أن يكرم فيه المثل،ويحيى فيه الرجل».

ثم يوقع باسمه ومكانه والتاريخ الذى كتب فيه مقدمته....الدكتور نظمى لوقا...١٠ شارع ابن سينا – مصر الجديدة ١٩٤٨ – ١٩٥٩.

(١)

لا يدخل نظمى لوقا إلى الحديث عن الرسالة والرسول،إلا بعد أن يفصل بشكل كامل علاقته بالإسلام،عبر فصل رائع وضع له عنوانا هو «صبى فى مسجد»...هو الفصل الذى سنعود إليه لاحقا عندما نرافقه وهو يتحدث عن الإسلام فى حياته.

تبدأ دراسة نظمى عن الرسالة والرسول بحديثه عن الآية الكبرى،ويسأل سؤالا يدخل من خلاله إلى ما يريد:«إن تكن هذه الأديان صحيحة فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد؟».

وتبدأ الإجابة:«ما من نبى حمل إلينا توكيلا موثقا بأنه ينطق بلسان الوحى،وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به،وأما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهد شهود العيان،وبيننا وبين ذلك أجيال، فتبقى بعد ذلك الآية الكبرى التى لا يثبت غيرها صدق،ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،وهذه الآية الكبرى هى صدق الكلمة من حيث هى،فإن الحقيقة آية نفسها،تحمل برهانها فى مضمونها،فيطمئن إليها العقل،ويبدو ما يبانيها هزيلا واضح البطلان».

إن موقف الناس من الوحى واحدا،أيا كانت الرسالة الموحى بها والمخبر عنها،لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهانا عيانيا على وحيه كما يطالب به محمد،فمن اعترف بوحى السماء إلى رسول من البشر لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحى على محمد من حيث المبدأ،فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه.

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحى من حيث المبدأ،إلا النظر فى مضمون الوحى،فإن كان هذا المضمون حاويا آية صدقه فى ذاته،وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها فلا مفر من الإقرار بصدقه،ومن هنا وجب النظر النزيه فى رسالة محمد،والبحث فى مضونها،لنلتمس فيها آيات الصدق التى يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين،ولنرى هل فيها ما يدعو للريب،ويبرر دمغها بالزيف أو الدجل أو البطلان،ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على إنصاف،ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع.

إن السلعة الأصيلة هى التى تؤدى للناس ما لا تؤديه سلعة أخرى،وإن كانت تشبهها فى بعض الوجوه،وليست تقليدًا أو تزييفا لسلعة سابقة عليها،بحيث يكون غيابها نقصا واضحا لا محل فيه للإنكار،لقد عرف الناس السفينة ذات المجداف وعرفوا السفينة ذات الشراع،ثم عرفوا السفينة التى تسير بالبخار،وكلها

سفن،ولكن الخلاف بينها فيما تؤديه للناس من خدمات.

كذلك العقائد والأديان،كلها عقائد غيبية،تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون،ولكنها تتباين بوجه من الوجوه،وهذا تعليل توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر،ومستويات إدراكهم ووعيهم العمرانى،ولا لزم أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها،وأن يكون هذا الطابع المميز هو سبب وجودها،أو موضوع وجودها.

ويسأل نظمى:فهل للإسلام هذا السبب...وهذا الموضوع؟

ويجيب:«بعبارة أخرى أن الوظيفة تخلق العضو،والحاجة تخلق السلعة،فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحددها احتياجات التطور البشرى،ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفا أو فضولا أو اصطناعا لجأ إليه مغامر أفاق».

ثم يلزم النظر فى الإسلام،وهل جاء مؤدبا لتلك المهمة والرسالة؟

فإن صح ذلك كان عقيدة صحيحة جاءت فى ميقاتها الطبيعى لتقوم بدورها ـ ووظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشرى،إن كل من آمن بالأديان ورسالتها وبالعقائد ووظائفها،لابد له من اتخاذ هذا المقياس الموضوعى الذى يعدل فى النظر إلى العقائد بعامة، والأمان محض وارث لعقيدته متعصب لها عصبية عمياء.

وما على المنكر إلا أن يبين لنا مقياسا آخر نعرف به وظائف العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل دعوة محمد،إن قال بالوحى هناك،فما هو دليلك على صدق وحى من قبل محمد،بحيث يفتقر وحى محمد إلى ذلك الدليل؟

لم ير أحد ملك الوحى هابطا على من قبل محمد،حتى نطالب بظهور جبريل وهو

يهبط بالوحى عليه،وإن قال :إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من مضمون الرسالة ومؤداها،فقد نفى الحكمة من التعاقب،بل نفى الحكمة من الدين عامة،فإن الشرائع التى تتكرر بغير تعديل قول معاد،وفى غير حاجة إلى إعادة.

ويأخذ نظمى دليلا على كلامه من أن البشر يتطورون ويتقدمون فى وعيهم العمرانى،ولذلك كانت الإعادة المكررة تقصيرا،فلا يبقى إلا أن الشرائع السماوية تساير البشر فى تطورهم،كما أن غذاء الإنسان يساير المرء فى تدرجه من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة،وهذا يردنا إلى تمايز الرسالات الدينية،وتفرد كل منها بخصوصية هى موضوع وجودها أو هى وظيفتها،ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول:هذا رأيى وكفى، ومثله لا يعول له على رأى،لأنه مكابر بغير عقل،فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل.

(٢)

يعقد نظمى لوقا بعد ذلك مقارنة واضحة بين الديانات الثلاث.

ويبدأ باليهودية الذى هو دين شعب كما يصفها،يقول:«دين بنى إسرائيل وإن كان دين توحيد وتنزيه،قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب،فهو إذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة،ويجدون فيه إشباع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة».

والدين الذى يختص به شعب بعينه لابد وأن تتمثله سرسرة ذلك الشعب، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلا،بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم، وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم، وكانوا أشتاتا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة،فينفسون على أهل البلاد الأصلاء أن لهم وطنا وبأسا وسيادة وغلبة،والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النقمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة،فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختص بهم،لا يعبده أحد

سواهم،وأن يغلبهم من عداهم من الخلق،وأن يمكن لهم فى أرض العباد ورقابهم.

والدين من حيث هو دين شعب حر أن يعنى بسن القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم،فتعوضوا عن أهدافهم التى صدهم عنها أهداف أخرى،فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها،وليقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الأوثان،مع فارق واحد هو أن من يتوجهون إليه بقرابينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو الإله الواحد الخالق القادر...إله إسرائيل.

ثم أسف الشعب المسف بالتوحيد نفسه،حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم يسمونها «الطرافين»، وحتى أقيمت لصنم البعل وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان، وشعب هذا شأنه لا يصد عن الإسفاف والانتكاس إلا بالتخويف وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد،فامتلأت أقوال أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود،وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب.

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب،ويطلعنا على ما تصير إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم المنافع والحرص على الدنيا،فهم لا يبغون رضوان الله خالصا لوجهه،ولا يعبدونه خالصا لوجهه،ولا يجلونه عن هذه المواسم المادية فى تقديم القرابين والذبائح،إذ لا وجود فى إخلادهم إلا للمادة وما يتفرع عليها،أما الروح والضمير،أما النظرة الشاملة لبنى الإنسان كافة،أما الإخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد،هو رباط الوجود الحى،فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا،فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا فى المعاملات يستحلون به أموال سواهم من الأمم وطقوسا فى العبادة هى أيضا ضرب من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات،فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو،أو زيادة فى

إدرار الرزق.

أما المسيحية فهى عند نظمى لوقا دين قلب.فالعقيدة حاجة روحية أصلا،فلن تطول القناعة بالقعود دون التحليق،ولن يطول الطور الذى يكتفى فيه بعقيدة يختص بها فريق من الناس دون فريق،فليس للروح والضمير وطن ولا جنس، والعقيدة التى يقنع بها الضمير ويطمئن إليها لابد أن تفتح الباب لجميع الشعوب،وأن تفتح على الخصوص أمام الناس آفاقا عالمية،تتجه خلالها الروح إلى الله،لا لأنه الوهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب،بل لأنه مصدر الحياة والوجود والمثل الأسمى للاعتقاد، تتجه إليه النفس مشوقة غير مسوقة،ولا تستغنى بالمراسيم والمجسمات المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذى لا يتجسم ولا يدرك بالحس، ففى الاتجاه إليه سبحانه سعادتها الكبرى.

وبهذا كان التطور الطبيعى للإنسانية أن تتطلب الهداية فى رسالة المسيحية التى لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب،بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل إنسان،فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه،ولا يبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب،ولا الطقوس قيمة؛ لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى.

ويعنى نظمى لوقا بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل،فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الإنسانى من حيث هو كذلك،بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشعوبية،ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس،كمل خلت من تشريع المعاملات،لأن موضوع المعاملات والحياة الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص، ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحدا متساويًا،لأن عقيدة القلب

الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ،أما السواد من الناس،فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود.

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها دين قلة هم الأفراد ميسرين لها،وكانت نتيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا ومعاناتها،أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية وعقائدهم المادية طيالس العبادة الجديدة،فتمثلوها كما تصورها لهم عقولهم،واطمأنوا إلى هذا التصوير،ولهذا أيضا لم يستطع السواد الارتفاع إلى المستوى الروحى العالى الذى هو مضمون دعوة السيد المسيح،ولم يسلموا – لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها على تفكيرهم – من ظهور عقابيل التجسيم والتنطس فى المواسم تتخذ عنواين الدين الجديد وتتزيا بزيه؛ لأنها نظم تقابل حالات النفس التى لم تنضج بعد لدعوى الروح الخالصة من قيد الجسد وشهواته.

وعندما يصل نظمى لوقا إلى الإسلام،يطلق عليه دين البشر،يقول:«لم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة،يجتمع إليها العقل والقلب جميعا،وتصحح ما تدور فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات،إن الناس بحاجة بعد إلى دين يؤكد وجود الله،وأنه خالق الخلق،وأنه الكامل المنفرد بالكمال،بيده الأمر،وهو على كل شئ قدير،ويؤكد وحدانية الله توكيدا يقضى على عقابيل التعدد فى تصور الإله،ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله،حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذى طالما وقعوا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم».

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة،أما من جهة موقعها من الناس فينبغى أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة،لا فرق فيهم بين شعب وشعب،ولا بين جيل وجيل،ولا بين طبقة وطبقة،وينبغى كذلك أن يكون فى هذا الدين الجديد مقنع

للممتاز الميسر لأشواق الروح،وأن يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا ملحظ يلفته إلى آفاق الروح،ويشعره أن ثمة ارتباطا بينها وبين السعى فى سبيل الدنيا،فيجد لهذا السعى مددا من عليين لا يحقر فى عينيه مطالب الحياة،ويجعل فى قلبه مؤئلا للشعور بالرضا والكرامة؛ لأنه استطاع أن يكون صالحا وهو من أهل هذا العالم المعنيين بأموره ومهامه ومطالبه.

لن يكون الحياة الدنيا فى هذا الدين الجديد رجسا،بل هى من ملك الله وطيبات نعمائه،فالله صاحب الدنيا كما هو صاحب الآخرة،وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة ومطالبها،وهو فاطر طلبها فى النفس،وإنما هى الحدود الشرعية يفرضها الله فى دينه، فإذا السعى فى سبيل الدنيا على سنن تلك الحدود،وقد أمسى تحصيلا للمثوبة فى الآخرة بالطاعة والإحسان.

كما أن للمفكر والمؤمن معا فى الدين الجديد مكان،أولهما ينبغى أن ينتهى إلى ما ينتهى إليه الآخر؛ لأن الحق واحد فى جميع السرائر والضمائر متى أحسنت التلمس والاهتداء، وهكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة،العامة منهم والخاصة،يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها،وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا وبالآخرة،بالله وبالإنسان،فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد.....هذا الدين المرموق هو دين البشر،وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين.

(٣)

حمل نظمى لوقا بعد ذلك على كاهله مسئولية الإجابة عن سؤال واحد هو:كيف نهض الإسلام بهذه الرسالة التى لبت حاجة البشر الطبيعية فى ذلك الطور المعين من أطوار الاعتقاد؟

والبداية من ماهية الله،يقول نظمى:«لا يدع القرآن شائبة من ريب فى مسألة

وحدانية الله،فجاء فى سورة الإخلاص : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، وفى تنزيهه عن الشرك والتعدد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ،وفى ذلك نقض لعقائد الشرك،وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضا،فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته،وأنه ابن الله،وأن الإله الواحد جوهر واحد،له ثلاثة أقانيم،هى الله الأب،والله الإبن – وهو المسيح – والروح القدس،وشبهوا ذلك السر الإيمانى المسيحى بالشمس،وكيف أنها حقيقة واحدة،تقع على الحواس قرصا ونورا وحرارة».

كل هذا رغم أنه لم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات حوارييه (الأناجيل) إشارة إلى شئ من ذلك،بل كان يدعو نفسه على الدوام ب «ابن الإنسان»،وأما البنوة لله عز وجل فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق،وبمعنى يشمل البشر كافة،حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم:«يا أبانا الذى فى السماء»، وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر، كى يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله،فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا: «إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله؛ لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر،وأحبوا الله وأحبوا إخوانهم فى الله حتى أعداءهم».

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل فى رعاية الله وعنايته،بما يتيحه الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة،وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل،فلا ينبغى أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجاهها وزخرفها،وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات،وما أبعد هذا أن يكون ذلك السر أو اللغز المعقد الذى اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت.

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة،بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه،وجمعت المجامع ووقعت المذابح وسار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة،لا إلى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع إليها،وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للأعداء،تكون مثار ذلك كله،وناهيك بعقول السواد ممن غبرت لهم الوثنية جذور عقلية وحسية منذ ألوف السنين،كيف لا تنزلق إلى الشرك من باب هذا السر الذى يحمل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم.

كان لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد،ولابد من نفى اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة،وهو التوحيد مطلق التوحيد،فتعين أن يأتى الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوبيل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

لم يلد ولم يولد،فأقرب إلى العقل لأن من يلد أحرى بأن يولد،وما كان سبحانه فردا فى جنس،ولا واحدا فى سلالة من نوعه،حاشا،بل جل عن النظراء والأكفاء،فمن ذا الكفء لله.

وكان لابد للدين الجديد أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية الله بالخلق، وهو المدبر القادر،لم يخلق الكون ثم نفض يده: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ،ولا يدع القرآن فى ذلك شكا،فهو يقرر ويكرر فى أكثر من موضع تلك الحقيقة الجوهرية، التى تقر سلطان الله على الخلق،وتدعوهم إلى الطمأنينة إلى عنايته، والحرص على رضوانه،فجاء فى سورة الحديد:﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وهكذا بدت العقيدة الإلهية فى الإسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته،ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم،كانت البشرية قد باتت فى حاجة

ماسة إليه بعد الذى انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة،وأما والمسألة إيمان،فمن آمن بعقيدة تنزه الله عن كل مشابهة بالخلق،وعن كل تعدد تجسم أو استدق،يكون أقرب إلى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد،ولكنه يحتال على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة،ويحار فى وجه حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم،وقد كانت لعباده غنية عن تلك الحيرة بتمام التوحيد، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل إبهام.

أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر،وإنما يتجلى للناس منها ما يعنيهم وما يكون على قدر إدراكهم،وأول ما يواجه الناس أمر المحيا والممات،فالله هو:الحى الذى لا يموت،وهو الذى يحيى ويميت،كل شئ هالك إلا وجهه،وتتواكب آلاء الله على عباده، فهو الرازق الوهاب خالق ما فى الأرحام،العليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال.

وقد كانت لبنى إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله،تكاد تنفى الطمأنينة وتبعث الهول،وما دين بغير طمأنينة يستقيم بها أمر الناس فى حقهم من الدنيا والآخرة؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله «الرحمن الرحيم»،لا يكتفى من هاتين الصفتين بوادة دون الأخرى،ويقول (فى سورة فصلت):﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطئمن الناس إلى العدل وإلى الإعذار مع الإنذار،فهو إذ يقول فى سورة البروج:﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾،يردفها بقوله:﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام أجدادهم الغابرين،وأن حصر الآباء يضرس به البنون، فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم،فيقول فى سورة فاطر:﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾،ويقول فى سورة البقرة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهو توضيح أو تصحيح كان لا محيص عنه،وإلا وجد العقل البشرى فى سنن الله ما

يزعجه ويصده عن الإيمان والتسليم.

وكأنما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين درجوا ألوف السنين على التجسيم،وهو تصوير كل شئ فى صورة الجسم الذى له موضع محدد وأين معين،ويأتى القرآن بالجواب حاسما قاطعا لكل شك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

ويحار البشر فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف،ويبعث الطمأنينة فى كل نفس،وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان،لايصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهكذا يجد كل إنسان له مكانا فى ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة،التى لا تفاضل معها إلا بالتقوى،تقوى الله رب العالمين.

(٤)

ومن الله إلى الإنسان الذى يرى نظمى لوقا أنه وقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا،بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم،ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى،وخطيئة باقية موروثة،لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة.

يقول نظمى:«وإن أنس لا أنسى ما ركبنى صغيرا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى،وما سيقت فيه من سياق مروع،يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال،وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران،جزاء وفاقا على خطيئة آدم بإيعاز من حواء،وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشر بدمه الطهور لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين،وإن أنس لا أنسى القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح،أين هم ..وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟».

ولذلك كان لابد من عقيدة ترفع عن كهل البشرية هذه اللعنة،وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم، أو تزر الولد لوزر الوالد،وتجعل للبشرية كرامة مضمونة،ويحسم القرآن، هذا الأمر حين يتعرض لقصة آدم وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول فى سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ،ويقول فى سورة البقرة : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وآدم أبو البشرية كرمه الله فخلقه على صورته،وفضله على الملائكة،وقد جاء فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ ،ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشر،وليس كل الملائكة التى لا قدرة لها إلا على الخير،فله عليها فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات،أما بنو آدم فتقول سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ، ويخاطب الناس فى سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ،وفى سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

إن المسئولية هى أساس الكرامة الإنسانية،وأساس كل حرية،وكل أخلاق

ممكنة،وهذا ما قطع به الإسلام،ووضع به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم،فيقول فى سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ ،ويقول فى أكثر من سورة على سبيل التأكيد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ،وهو القائل فى سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ،هذه المسئولية هى التى يسميها القرآن الأمانة،تلك الأمانة التى جاءت فى سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ،ثم نجد فى سورة الإسراء: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ .

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة،التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء،فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد،ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها،ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى،بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه،بل هو ولادة جديدة حقا،ورد اعتبار لا شك فيه،إنه تمزيق صحيف السوابق ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه،والناس فى كرامة البشرية أمة واحدة،بغير تفريق،فقد جاء فى سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ،وجاء فى سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

أجل لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون أو اللغة،وهذه سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ ،وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط،أكرمهم عند الله أتقاهم،ثم : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾..ألا من له أذنان للسمع فليسمع.

إن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق،ويجهر به ويحتمل فى سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية،وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق،أو كما جاء فى سورة العصر: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

والغلبة ليست إلا للحق فى نهاية المطف على كل حال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ،أجل وينبغى أن يقر الإنسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين،كما ورد فى سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ،إن الحق مقدس ولو كان فيه نصرة عدو،أو مغنم له،فذلك هو لباب التقوى،فقد جاء فى سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم يأتى فى ختامها: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ،وتشيد سورة الفرقان بالصادقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ ،وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه الصبور على المكاره،إن أوذى فى سبيل الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .. ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

هى الشجاعة فى الحق والشهادة لله،والصبر على الإيذاء فى سبيل الحق،إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا،ولكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ،﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.. ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

يخلص نظمى لوقا من ذلك كله إلى أنه يشهد كم تميعت نفسه وغثيت كلما رأى عتلا من المستكبرين الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان،وما دروا لغفلتهم أن السلطة فى ذاتها ليست شيئا،وأن الولاية على الناس جذوة من النار،أما الشئ حقا،فهو رعاية الله فى حقوق الناس،واستخدام السلطان للخير والعدل فى غير الحق،وحماسة لنصرته وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون،ويكاد يقذف فى وجه القوم من هؤلاء بما جاء فى سورة الإسراء:﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ .

ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق،الصادق فى القول،الصابر فى الهول،الخاشع للرحمن،إلا بأن يكون صادق الوعد موفيا بالعهد والعقد: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ ...«يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود»...﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾..وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق،وقد أنحى عليه القرآن، إنحاء عنيفا: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوٓاْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾...﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾.. ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ .

والإنسان الكريم حقا لا ينافق،ولا يخشى فى الحق شيئا،ينصر الله والله ناصره،ذلك جوهر إيمانه،وإنه بذلك لعزيز المكان فى الدنيا والآخرة،لا يسعى فى دنياه سعى الغريب الذليل: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ، وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب،لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذى عانى منه الكثيرون ولا يعرف الفصم إلا من يكابده،وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا،لا ينظر إلى طيباتها نظرة الحسير،ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير،ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه،فى يده زمام نفسه،وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم،تقر به ينه فى غير حرج ولا غضاضة.

(٥)

وفى شأن النبوة يقول نظمى لوقا:«لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوة الإسلامية،وهى مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم،وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد،فكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب،أو بنسب من الأنساب،فما أقرب الناس لو تركوا أنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشرا كسائر البشر،وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء».

ولذا نجد توكيد هذه التنبيه متواترا مكررا فى آيات القرأن،نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر،ما جاء فى سورة الكهف:﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ...وفى تخير كلمة «مثلكم» معنى مقصود به التسوية المطلقة،والحيلولة دون الارتفاع بفكرة

النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال،بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ ...وظاهر هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته،وحدود رسالته التى كلف بها،وليس له أن يعدوها،كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها،بل كأنما احتاج هذه التنبيه إلى مزيد من الصراحة،فجاء فى سورة ق:﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ، ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى سورة الغاشية:﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

هو إذن رسول بشر،ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه ولا زيادة،وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب،بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها،وتاريخ الرسول كله،إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب،فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم مثلهم حقا وصدقا،لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون،وليس له من سلطان عليهم،وإنما الأمر إليهم،كى يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية،وعن اقتناعهم الذاتى،بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير فيكون اهتداؤهم إيمانا ليست فيه شبهة استهواء أو توريط.

وما توانى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه فى جعبة كل صاحب نبوة،وما أرداوا بذلك إلا الملهاة، ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ . ..﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾... ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

إنه يقولها:ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى

السوء،حقا،وما أكثر ما أوذى وما أشد ما أساءوا إليه به،وهو لا يملك لذلك دفعا،إلا الصبر على البلاء،بل وتخطف الموت فلذات أكباده،ليكون ذلك إيذانا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم،فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به،فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر،لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول،فأين هم منه؟وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به؟.

بل هو مثلكم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا،ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة، ففيه قدرة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والإقتداء،ويقول نظمى:«وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى،فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده،وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد،وكذلك العقل السوى يجد امتهانا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى،فإن كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا أمر خارج عنها،فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك،لهذا كان العقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف يحترم فطرته وبداهته».

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعى للبشرية ونصوحا ورشدا،وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحرا ولا كاهنا ولا مجنونا ممن يهم لوثات الصرع،وينبه إلى أن المعجزة الخارقة لا تفيد فى إقناع مكابر.

ومن ينعم النظر فى هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار على بشرية الرسول، وأن آيته الوحيدة هى صدق رسالته،وذلك حسبها من سند،

وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين،فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا من الملائكة،حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة:﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

ويستعين نظمي بما أورده الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه الإسلام والنصرانية،دون أن يخفي إعجابه به،فالإسلام – كما يرى محمد عبده – في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه النظري،فلا يدهشك بخارق العادة،ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة،ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية،ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية،وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه،على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات،وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله،فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة،فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا.

ويلتقط نظمي لوقا الخيط مرة ثانية يقول:«الحقيقة باقية والبشر زائلون،الرسالة إذن هي الباقية،وما هي بمتوقفة في شيء على بقاء هذا الرسول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ ،إنها الحقيقة ولكن كان

لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول،وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم،وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين،من أن إمام مثل عمر بن الخطاب على رجاحة عقله وقوة إيمانه،وهو من هو من الإسلام ورسوله،أبى أن يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت،ولولا أن أبا بكر تلا عليه وعلى الناس هذه الآية،لقطع عمر أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ .

كان من الجائز أيضا أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته،وما أكثرهم،وما كان ذلك لينفى شيئا أو يثبته،فإن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها، عاش الرسول أو مات أو قتل.

هذا إذن هو مكان النبوة فى ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية،فليس أنبياء الله كهانا ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين،وإنما هم بشر يأتيهم الوحى من الروح الأمين،وليس عليهم إلا البلاغ المبين.

ثم يأتى السؤال الأكثر أهمية فى مسيرة هذه الدراسة رغم أنها لم تنته بعد،يسأل نظمى:ولكن هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب؟...والإجابة:لا حاجة للبشرية بذلك التكرار،فإن طور الأسلوب العقلي المجرد هو آخر أطوار البشرية،ومن تفتح عقله وبلغ رشده فطائره فى عنقه،وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره وقد تسلم قياد نفسه.

إن للرسالة خصوصية هى إتمام ما سب،ومتابعة البشر فى أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح،فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام،لقد تمت فكرة التوحيد وتم خطاب العقل،وتم البلاغ إلى الناس كافة،أحمرهم وأسودهم وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه

وبدنياه،وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك قول معاد،ليس فيه جديد يستفاد: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ..وبسبب من طبيعة الرسالة ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها،كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات.

(٦)

يرى نظمى لوقا أن المرأة فى الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليف العقلية والروحية،فهى فى ذلك صنو الرجل تقع عليه أعباء الأمانة التى تقع عليه،أمانة العقيدة وتزكية النفس،وجاء ذلك فى سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

وقبل أن يأتى الإسلام كانت قبائل العرب فى الجاهلية تئد البنات،كراهة لهن وازدراء لشأنهن،ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقا شديدا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ...وفى هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق فى التكليف أو الجزاء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفى سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل فى ثمرات الأعمال والجهود: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ ،وفى بعض الأمم القديمة وفى بعض الأمم الحديثة كانت المرأة تحرم غالبا من الميراث،فأبى الإسلام

هذا الغبن الفاحش،ونص على ذلك فى سورة النساء:﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ ، وهذا النصيب المفروض ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ ،باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغا ما بلغ ثراؤها،أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء،فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير،وهذه القسمة إذن أقرب إلى مجاملة المرأة فى شئون الأموال الموروثة.

ولا يخوض إنسان فى موضوع المرأة فى الإسلام من غير أن تخطر بباله قضية تحرير المرأة فى هذا العصر،ومساواتها بالرجال ويخطر على البال حتما قول القرآن فى سورة النساء:﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ، وما جاء فى سورة البقر:﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى درجة الرجل،وفى هذا ما فيه من بواعث التساؤل،فى زمن استفحلت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت فى جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب.

وهنا لابد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل،وليس كل تفضيل جورا،بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت،فهو العدل الصراح،وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقا بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين،بل إن التفضيل عقلا لا يصح إلا بحصول الفضل وتحققه،ويرتفع بارتفاعه ويوضع بوضعه ويتحول بتحوله.

ويتساءل نظمى لوقا:فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة؟

وتأتى الإجابة:«إنه حاميها وإنه عائلها،وإنها تركن إليه وتلوذ به،وإنه أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا،وإنه أحظى منها بنصيب من المواهب والقدرات،

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير بينة بل قيل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ ، فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة،هو إرباء الفضل والإعالة أو النفقة المالية،وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا فى نزولها إلى ميدان الأعمال،وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى.

وأما إرباء الفضل فهو رهن بإصابة نصيب من التعليم،أو البراعة فى فن من الفنون،أو رجاحة العقل ونباهة الذكر،وهى مقررات الفضل بنص القرآن،،فقد جاء فى سورة المجادلة: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ ،ولا يغيبن عن البال ورود درجات بصيغ الجمع،وقد وردت فى سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ ،وجاء فى سورة الزمر: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ .

إن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له،فالعالم خير من الجاهل والجاهلة، والعالمة خير من الجاهلة والجاهل،والمؤمن خير من الكافر والكافرة،والمؤمنة خير من الكافر والكافرة،والمجاهد فى سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن الجاهد والقاعدة،والمجاهدة فى سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة عن الجاهد والقاعد.

لا تفضيل بغير فضل،ولا تشريف بغير تكليف،وإنما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات،ومتى زال هذا العائق وارتفع عنها القصور،فهى حقيقة بثمرات فضلها،وقيامها بتلك التكاليف الجسام،ويذهب نظمى إلى أنه لا يعتقد أن المجاهد فى سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والفتح فحسب،بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به

نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم فى أمور دينهم ودنياهم.

فليس الإسلام على حقيقته عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين فى القيمة،بل إن المرأة فى موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة،لا يفضلها إلا بفضل،ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه فى غير مطل ولا مراء،وما من امرأة سوية تستغنى عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال،وذلك على حسب عقيد لتكون لكل طور اجتماعى على تعاقب الأطوار على سنة العدل التى لم يجد لها عصريا اسما أوفق من «تكافؤ الفرص» الذى يلغى كل تفريق،ويسقط كل حجة ويقضى لى كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح.

(٧)

وما دام الكلام اقترب من المرأة فلابد أن يقترب من الزواج،ويبدأ نظمى بسؤال : الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات؟،ويجيب:«هذا هو باب ما يثور حول موضوع الزواج فى دين الإسلام،فلابد من وقفة ها هنا لنتبين الحقيقة فى هذا،فمن المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى،ولا عصر من العصور دون سائرها،ولا بيئة من البيئات بعينها،وإنما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك،مع مراعاة فطرتهم السوية،ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التى لا يبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس».

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة،وهى تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم،عسى أن يضع حدودا لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم،وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى،ومن البديهى أيضا ألا يطيقه إلا

المثاليون،وخاصة ذوى العزم،وما لهؤلاء فحسب جعلت هداية الدين.

ونظرة إلى واقع الحياة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة،تطلعنا على تعدد النساء فى حياة الرجل الواحد،سواء جهرا أو سرا،وسواء برخصة من القانون أو الدين،أو حسب القانون والعقيدة،وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة،فإن أثر الشعور الدائم بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة أثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تتقوم السعادة الروحية والنفسية بغيره،فضلا عما فى العلاقات المختلسة من إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه.

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر،ففى الريف والبادية يعز القوت أحيانا ولا سيما على المرأة،وقد يكون فى عدد النساء زيادة عن عدد الرجال،فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها ماديا ونفسا إلا إذا صارت فى كنف رجل،وعندئذ لا حيلة فى التعدد؛ لأنه الحل السليم الوحيد،أو هو أسلم أساس لجماعت هذه حقيقة ظروفها،والضرورات تبيح المحظورات،هى رخصة إذن تستخدم بحقها،وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة أو من أحوال الأفراد.

وما القول فى زوجة أقعدها المرض؟وما القول فى الزوجة العقيم،وما القول فى الزوجة الناترة؟وما القول فى الزوجة السقيمة الأعصاب.أطلاقها أرحم أم إردافها بزوجة أخرى؟لا شك أن الأمر واضح،هى رخصة إذن تستخدم بحقها ولكنها ليس إلا إلزاما،فهذه سورة النساء تقول بصريح النص: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ بل وتقول أكثر من هذا:﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾،وفى هذا إيحاء بل حض على التزوج بواحدة.

وليس من الإنصاف فى شيء أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا،بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه،ففى تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقا من كل قيد،ومن هذا نفهم سر قول القرآن: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ،بلهجة من يعدد للطامع ما هو مباح ، بأسلوب يوحى بالتوسع، وهو يرمى إلى التضييق كل التضييق،وما أشبه هذا فى تصورى بالأب الذى يقول لطفله الشره إلى الحلوى: شرها لا يقف عند حد، أو لا يؤذن بقناعة دون العشرة والعشرين.

أما فى غير تلك البئية وشبيهاتها من بئيات البشر الذين تتوجه إليهم الدعوة،فالمسألة أوضح،ولن تضيرهم رخصة التعدد وهم على التوحد أو أقرب إليه طبعا ونشأة،ولهذا قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ،ففى ميدان الفضل والتعفف سعة،وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات.

ولا يتم النظر فى موضوع الزواج ما تعدد منه وما توحد،من غير النظر فى كيفية الزواج أو نوع الصلة الزوجية،إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى،على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنسى النوع البشرى،لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ .

وفى قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لمسة تمس شغاف القلب،وتذكر بها فى الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس،خاصة أنه أردف ذلك بالسكن،وما أقرب السكن فى هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الأجساد،بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة،مشاطرة نفس وسكنها وسكينتها،ومودو ورحمة،ما من شئ فى هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسيةالبحتة،فإن الشهوة تأخذ وتنال،وهى معتصمة بأنانيتها وانعزالهاعن الطرف الآخر،ولا تزيد بعد مآربها

إلا شعورا بالعزلة والحدو الموحشة،وشتان هذه والمشاطرة وسكن النفس والمودة والرحمة.

إن الزواج مطلب نفسى وروحى عند الإنسان،وليس مطلبا شهويا جسديا وإن كان له أساس جسدى،ورب قائل يقول :أما والزواج كذلك ففيم التعدد إذن؟وإن كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنبكها متعففا من شاء؟أما كان التوحد هو السبيل إلى السكن النفسى بمعنى الكلمة؟

ويجيب نظمى لوقا على هذا السؤال:«والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء،ولكن المبادئ قلما تعيش فى دنيا البشر فتتيسر فى أمور هى أمس ما تكون بالحياة اليومية والحقائق المادية،فأين هى الزوجة التى تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن إليها نفسه سكنا كاملا حتى لا يفتقد فى كنفها لونا من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق إليه،إن ذلك قليل أقل من القليل».

يقول سليمان الحكيم الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان،وقد اجتمع فى وطابه من التجارب الزوجية والنسوية ما لم يجتمع لإنسان:«الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس..من ذا يجدها؟»،إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء أن تهفو نفسه إلى سواها،بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا ولا يروم عنه حولا.

وأما من لم يجدها ففى نفسه أشواق تظل ظمأى تتلفت سادية تنشد ريها هنا وهناك،وهذا واقع نلمسه كل يوم وكل ساعة،فى رجال محصنين بالزواج،تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم،فى علاقات مختلفة،ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرين: أولهما شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية،وثانى الشرين تطليق الزوجة القديمة لتفسح للزوجة

الجديدة مكانا فى نظام التوحد،وقد تكون للزواج الأول ثمرا تذوق التشرد،وقد تكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين والعلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال،خالية اليد من مهنة،خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها،ولعلها كانت تؤثر البقاء فى كنف زوجها على كل حال.

ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه أحدا مدة حياة خديجة،وقد طال زواجهما ربع قرن تقريبا،هو طور الفحولة فى حياة الإنسان،ما بين الخمسة والعشرين والخمسين،ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها،وكانت السيدة خديجة الزوجة المثلى فى حياة الرسول،ظل يشهد بذلك ويغار عليها إلى ختام أيامه،ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيرا منها قط.

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكن إليها،ولما ذهبت تركت فراغا هائلا لم تستطع واحدة أن تملأه،وأكاد أحس أن الكثيرات عجزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام،وأيا كان التعدد بموجبات الرخصة فلا تحل فيه المغايظة والإضرار الأنانى اللئيم.

ويشير نظمى لوقا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجال بثانية ما دامت الأولى فى عصمته لما فى ذلك من المضارة للزوجة وهى سيئة لا يستحسنها العقل،ويعتقد أن هذا من باب السمو الذى يحض القرآن عليه،إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذى لا مناص منه فى حالة التعدد،ولكن الرخصة واضحة والحكمة منها قاطعة بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهى التوحد،رخصة مبذولة لا مندوحة عنها،والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود.

ويتعرض نظمى لوقا إلى ناموس الزواج أصلا،خاصة بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا،خلاصته أن العفة أو الرهبانية هى الأصل،ومن لم يستطع ذلك

فليتزوج،فكان الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك،ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئة الأولى،واعتبار أن العلاقة الجنسية شر فى ذاتها ولذاتها،وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا،فهذا الترهب مع النسك والصيام المسيحى العزوف عن أطايب الأدام، أدلة على الضيق بالبدن وازدرائه وصحبته على مضاضة،والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الحياة الدنيا جملة نظرة عداء وخصومة.

وطبقا لتلك النظرة فالبدن شر لابد منه،وكذلك الزواج،والخير كل الخير فى محاربتها وعدم الانسياق لها والإخلاد إليها،حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار،وإنما هو الصراع المستمر والقلق المستمر،الذى تفسد به الدنيا،وتعيا به النفس،وقد كشف لنا العلم الحديث عن العلل والآفات المخزية التى تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية.

إن الإسلام لا يقاوم الحياة بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها،وصيانة ينابيعها من الأكدار،ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد،حيث لا انفصال لهما فى واقع الجبلة التى جبلها خالقها الحكيم الخبير.

ومن فطرة الزواج إلى الطلاق يرى نظمى لوقا أن الكراهة أمر لا يسوغ البدار إلى فصم العروة الوثقى كما جاء فى سورة النساء:﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًۭٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًۭا كَثِيرًۭا ﴾ ،إن الأساس فى ذلك العقد أنه لا ضرر ولا ضرار:﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۢ ﴾ كما جاء فى سورة البقرة،وإن ذلك لمسبار الخلق الكريم الذى يترفع فى سمت الفروسية عن الإعنات اللئيم والجور اللئيم،حتى أن الرسول قال فى خطبة الوداع:«استوصوا بالنساء خيرا،فإنهن عوان لكم،لا يملكن لأنفسهن شيئا وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله».

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها فى كنفه،فهى تحت رحمته،ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها،إنها أمانة الله فى يده وعنقه،وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

لكن ذلك لا يمنع نظمى لوقا أن يقول: أنه يعسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من الصور،فالزواج نظام جعل لإسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم،ولم يجعل ليكون الناس عبيدا أو ضحايا للزواج،فالزواج الذى تستقيم به حياة الإنسان هو الذى يستحق الإبقاء عليه،أما الزواج الذى تفسد به حياة الإنسان ويتطرق إلى العطب والعفن وصديد الحقد والسخط،فهذا ينبغى أن يبتر قبل أن يقضى على فرصة الحياة الفذة المقدسة،كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور عزيزا.

فلا ضرر ولا ضرار....قاعدة ليس أحكم منها فى جميع شئون البشر ومعاملاتهم وهذه هى القاعدة الإسلامية العامة،إن فرصة الإنسان فى الحياة واحدة،ففيم نجعلها عذابا مقيما لزوجين تبين أن الوفاق بينهما مستحيلا،وأن حياتهما معا إهدار لحياتيهما لا محالة.

إن التطبيق العملي أثبت ذلك،وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق فى قانونها بواسطة المحاكم،وذهب بعضها إلى التوسع فى أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية،ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان،إن كان يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأى حال من الأحوال،إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية،والشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير هما حجر الأساس فى كل إحساس بالكرامة البشرية،وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت.

إن السعادة الحقيقة هى التى يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح،وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ما اختار إلا ما فيه،إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق،أو جراحة موجعة،ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة المرارة،أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب.

لابد من الدواء ومن الجراحة،ما دمنا نعيش فى عالم كون وفساد،وصواب وخطأ،وصحة ومرض،وحكمة وحماقة،بحيث لا عصمة للبشر،لابد من وسيلة لتدارك الأخطاء،وإعطاء الفرصة لبنى آدم وبنات حواء كى يبدأوا من جديد بناء سعادتهم فى الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح،يعمرها الأمن والمودة والرحمة.

والإسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الداوء الكريه المذاق أو موضع الجراح،ولا زيادة،ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة فى إصلاح ذات البين،فقد جاء فى سورة النساء:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ ،فإن عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين،فقد آن إذن أن يكون تسريح بإحسان لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها،والقاعدة المثلى فى الإسلام أنه «لا ضرر ولا ضرار»،ولذا جاء فى سورة البقرة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وليست المرأة فى جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمساكا وتسريحا،إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج،فيكون زمام الحياة الزوجية فى عنقها إن شاءت أبقت وإن شاءت فصمت،وهذا هو الحد الذى يقول العقل إنه لا يجور على حقوق السعادة الفردية،ولا يجعل الزواج أحيانا عاهة مستديمة بغير مبرر عقلى وبغير مصلحة لكائن من كان.

وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد،وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة وأحكام الحضانة،ثم ما من أحد يقول : إن تربية الأطفال فى كنف أبوين متفاهمين أمر يستوى وتربيتهما فى كنف أحدهما دون الآخر،ولكن المسألة هى أنه إذا امتنع التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا ينشأ الأولاد فى ذلك الجو الحاقد اللدود،فذلك أهون الشَّرين لهم،وهو كذلك أهون الشرين للأبوين،وهى على أى حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة.

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها الإنسانى والشرعى،قضاء لمآرب وضيعة،فجاء فى الحديث الشريف:«لعن الله كل ذواق مطلاق» و«ولعن الله الزواقون والذواقات»..«ولعن الله كل مزواج مطلاق»،وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق لأسباب محددة،مثل الزنا فقول فيه وجه غضاضة؛لأن التحاكم فى درو القضاء فيه ابتذال للأعراض حتى تغدو مضغة فى الأفواه وعرضة للجاجة والملاحاة.

إن صوَّرن الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق،وفيه من النخوة والبصيرة الشئ الكثير،حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة أخرى،وحتى لا يوصم بناتها أو أبناؤها بما تردد فى قاعات المحاكم من مثالبها،وما قد يصدر حكم القاضى تأسيسا عليه.

ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التى تجيز الطلاق بناء على طلب الرجل؟

إن الزواج صلة حميمة وقد لا يرى الغريب فى المرأة عيبا،ولكن يجد الزوج فيها عيبا كبيرا،وليس من الضرورى أن يكون العيب جسميا أو محسوسا،فهناك اختلاف الطباع مع كمال الأدب فى الزوجين،بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم،أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء،وإلى الزيت قد يكون من أجود الزيت،ثم لا يمكن

أن يكن بينهما امتزاج لاختلاف المعدنين.

كذلك الناس معادن شتى،قد يطيب كل معدن منها على حدة،وليس ضربة لازب أن يمتزج أى معدنين منها على الوجه الذى تستقيم به حياة الزواج،وعندئذ يكون الافتراق خيرا وأولى،لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا حياة سعيدة،فلا عيب فى الدواء إذن،ولا يطعن فى صلاحه أن تطبش به يد أو يشتط لسان،فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به المشارب أو يغرق فيه المغتسل،ولا يطعن فى النار أنها قد تكون حريقا لا يبقى ولا يذر،فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر.

ولا ينهى نظمى لوقا كلامه عن الزواج والطلاق فى الإسلام،إلا بكلمة عن جواز المسلم بالكتابية – يهودية كانت أو نصرانية – فى حين يمتنع العكس،أى زواج الكتابى – يهوديا أو نصرانيا – بمسلمة.

يقول نظمى:«إذا تذكرنا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما،عرفنا أنه لا غضاضة على الزوجة الكتابية فى الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم،ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام،فتكون المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى،وليست المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز فى كثير أو قليل »

(٨)

ينقل نظمى لوقا شراعه إلى مساحة أخرى،وتحت عنوان :لا قيصر،يقول:«أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»...عالم مقسوم شطره لله وشطره لقيصر،عالم مقسوم،شطره للقلب والروح وشطره للحس والبدن،عالم مقسوم،شطره للدين وشطره للدنيا،عالم مقسوم،وعلى المرء أن يختار شطرا منه ويتخلى عن شطر،ويجعل

بينه وبين الشطر المتروك سد،سدا من عداء،أو سد من إذعان سلبى هو كالعداء سواء بسواء».

تلك هى دعوة السيد الناصرى،وقد عدل بها عن سنن اليهود فى تعلقهم بالملك،وحرصهم على الدنيا،وجعل العزة للروح،ونادى بتحقير الدنيا ونبذها بما فيها من مال وحس وبدن وملك وسلطان،أقيصر بيده مقاليد الدنيا؟قل إذن ما هى الدنيا،لإنك بعدها لخليق أن تقول :وما قيصر؟ فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها،فأعظم ما فيها عندئذ هين،وأجل ما يكون من أمرها حقير،ما سلمت لك نفسك التى بين جنبيك من شوائب الدنيا،وزهو السلطان وفتنته،فإنك فى حزب الله أجل من قيصر شأنا،لأنك أحظى منه سكينة نفس وأمنا وأهدى منه سبيلا.

ذلك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم،بل ونفضوا ترابها من نعالهم،وسلكوا إلى ربهم مرتقى عسيرا إلا على من يسرهم المولى له،وهم قلة نادرة بين العالمين،أما سواد البشر وهم ملايين ومئات الملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التى تضج فى دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والمقيمات المقعدات،ولا هم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا بقلب سليم وعزم مقيم،وإنما هو الفصام،وإنما هو التعلق بين السماء والأرض،عاجزين عن اليقين،حيارى مالهم من قرار.

أعز مكان فى هذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة مفردة فى مفازة بيداء،لا يطرقها طارق،ولا ينعق فيها ناعق يخلو فيها العابد لوجه الله فما الدنيا للإنسان بدار،وإنما هو قد نعاها وجفاها،وما لبثه فيها إلا ريثما يقبضه الموت فيتم عليه ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة،وما كل امرئ قادر على أن يكون راهبا فى دير أو ناسكا فى صومعة،ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة

وباد منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون.

وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطة ضعفا منهم أو عجزا،بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التى فطرهم عليها حين ركب فى نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين،فلو كان مراده سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم ومقاصدهم،ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها،وخلق محبتها فى قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو إكتساب؟،وتلبث فطرة الخلق،وثابر الناس على انصراق إلى الحياة،لا الانصراف عنها،فكان لابد من موقف من قيصر،وفى يده مقاليد الدنيا.

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب الحكم وليس فى الإنصياع السلبى والتسليم للحكومة أى معنى من معانى الاهتمام،فالاهتمام هم ومشاركة وعمل،وبأى سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تتصدى لذلك الاهتمام بالحكم وأسلوبه،وقد قسمت الأمر بين ما هو لله وما هو لقيصر،فجعلت من قيصر فى الدنيا ندا لله فى عالم الغيب والسريرة،ولابد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة،حتى يصير الأمر كله لله،بين دنيا الإنسان وأخراه.

ولهذا أيضا تصدى القرآن وانبرى الإسلام فمحا تلك القسمة،ووحد مملكة الحق صقلا وعلوا،فجاء فى سورة الأعراف:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ،فمن يكون هنا قيصر؟بل أين هو؟لا قيصر بعد اليوم،﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾،» ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم،وليس قيصر الروم وحده هو الذى نعنيه حين نقول قيصر،بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف،ويستمد من غير الحق والعدل والأصول الإلهية سلطانه على الناس،لا قيصر بعد اليوم بين قوم

يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ،كما جاء فى سورة الشورى.

بل إن الرسول وهو الحكم الأول زمانا ومقاما وقدوة،كان عليه أن شاور المؤمنين فى الأمر،وكذلك كان يفعل،فقد ورد فى آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أتعطى ما لله وما لقيصر لقيصر؟ومن ذا يملك من الأمر شئيا غير الله،فهذا هو رسوله والحاكم الآمر باسمه يجابه فى آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ ،ويقال له فى سورة ق: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ،لا جبار على المؤمنين، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ كما جاء فى سورة الحجرات.

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة،وأى أمة، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ،كما جاء فى آل عمران،هى أمة إذن وليست ملكا موروثا،المؤمنون فيها أخوة وليس عليهم جبار،وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه فيهم لأحد يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس أو الجماعة منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس...لا كهان ولا أحبار،وإنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ به عباده من سنة ارتضاها لهم.

وهكذا تنسق السرائر المظاهر،وتكون حكومة الناس سورة من عقيدتهم،يحكم الحكام بما أمر الله،وليس له أن يكون على الناس جبارا،وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم،بل إنه لا يكون حاكما إلا بإجماع منهم،وعندئذ تجب عليهم الطاعة له ما عدل واتقى،وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى والطاعة: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ .

فى حدود البر والتقوى ولاعدل اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد

حبشى كأن رأسه زبيبة،كما جاء فى الحديث الشريف،للحاكم على الناس الطاعة،ولهم عليه أن يعدل،ويتقى الله،ويشاورهم فى الأمر،وأن يخفض لهم جناحه.فما هو إلا مؤتم برسوله،وقد قيل فى سورة الشعراء:﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،أما إن ضل وغوى وأعجبته نفسه وفتنه سلطانه،فقد غدر بالبيعة التى له فى أعناق الناس إذا جار عليهم،وما كان لهم أن يعينوه على الأمر،حتى لا يكون تعاون على الإثم والعدوان،وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾،كما جاء فى سورة المائدة،ولذا كان أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر،كما قال صاحب الرسالة فى حديثه الشريف.

الأمر لله جميعا،والمؤمنون أمة واحدة،وفى أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله،فمن فرط فى شئ من ذلك كان مجترحا لأمر عظيم،أليس الرسول هو القائل فى كلماته الجوامع:«كما تكونوا يولى عليكم»،بلى ..فهل يقوم جائر فى قوم طبعوا على العدل،والحق وكرامة العدل والغيرة على الحق،بلى...ولن يقوم عادل فى قوم بهتان وذل،فإنه خليق أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ومن انقيادهم الاستبداد....«فكما تكونوا يول عليكم».

ويتحمس نظمى لوقا للفكرة أكثر يقول:«أجل يا رسول الخير والصدق والحق،فالناس بخير وحكومتهم بخير ما بقى للحق فى قلوبهم مكان،وللغيرة على العدل فى قلوبهم الكلمة والسلطان،وما يئس المنكر أن يجد فى قلوبهم الإغضاء والتواطؤ،وما أبوا أن يجعلوا ممن يحكمون بالجور شركاء لله بالاستكانة والإذعان،صدقت يا رسول الصدق،وصدق بمدد منك الإمام محمد عبده حين قال:إن المعول كله على يقظة الأمة وأنه إذا فقدت الأمة شجاعة إيمانها فلا خير لها

فى شيء من مظاهر المنعة والحرية والاستقلال».

ويتساءل نظمى بعد ذلك:أشورى بلسان ولا قلب..واجتماع ولا صدق؟

ويجيب:«ذلك هو النفاق الكبير ..وشاورهم فى الأمر،ولكن هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون،وما هو بسؤال وإنما هو إنكار واستنكار،إذن : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

اسألوا أهل الذكر،من يذكرون الله ويصدقون ويتقون،لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويتزلفون،ومن يبتغون المال والجاه: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ،والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان،والحكومة بخير ما وجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم،ذلك : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ، أجل كما تكونوا يول عليكم»،ذلك الحديث الشريف، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وكأنه يخطب فى قوم أمامه يقول نظمى:«أيها الناس أمركم إليكم وحكومتكم منكم وبكم وإليكم،وكلكم الله إلى إيمانكم ، وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم الضير،لا قيصر بعد اليوم،بل لله الأمر جميعا،والله فوضكم فى أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا،وإنما هو إيمانكم وعقلكم ،وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم : ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

وكأين من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا لسلطان جائر أو طمعا فى قربى لديه،فقد أشرك بالله وباع دينه واتبع قيصر،وكفر بأن الأمر كله لله،الذى له ملك السموات والأرض.

فبمثل هذا يكون الملكوت فى الأرض،وبمثل هذا تكون عمارة الأرض،وبمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم أمام الطاغوت،مستضعفين فى الأرض،ولا يكون من تجبر وخرج على الله أقوى فيها مما قال ربى الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾

[فصلت :٣] حقا ليسوا كمن قالوا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧]....تلك عقيدة تمت دنيا ودينا؛لأن الدنيا فيها مسبار الدين،والإنسان فيهاد مسدد اليقين،لا يعبد إلا ربا واحدا،حكامه فى الأرض خدامه وصالحوه،هو على نفسه ودينه وكيل مسئول وليس عليه فيها جبار.

(٩)

ثم ينزل نظمى لوقا إلى محيط المسلمين وغير المسلمين وكيف نظمت رسالة محمد سبل التعامل بينهم،يبدأ حديثه من الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾...يسأل:هذا مسلم به ولكن ما القول فى غير المسلمين؟

ويجيب بمنطوق الآيات القرآنية:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ....سورة البقرة.

ويسأل مرة أخرى:«وما هى علاقة الأمم والشعوب فيما بعضها وبعض»؟

ويجيب بمنطوق آية أخرى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ....سورة الحجرات.

لتعارفوا ..هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب،إنما هى المعرفة والعرف والمعروف،والأكرم بينهم أكثرهم تقوى،ولا تعرف عقدة إثم ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله.

أفهى شريعة مساواة؟..إنها لشريعة مساواة،وما هى شريعة تسوية،هى شريعة عدل،والعدل أن يؤتى كل ذى حق حقه،وأن يكون التقدير فرعا عن القدر،كذلك تتفاضل الأقمار والأشجار،أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار؟...«ولقد فضلنا الذين يعلمون والذين لا يعلمون»...حاشا وكلا..لا يستوون،وإن كابر الجاهلون،أو ظلم

الظالمون،وإنما كانوا أنفسهم يظلمون،بل :﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾... ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾...﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾... ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾.

كل إذن ينال على قدر عمله،ولكن بغير بغى،ذلك أنه يريد: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ ليبلوكم..وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للشراء أو إيثار للأموال على المصلحة العامة،﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح،وما هو دفع بلاء داخلى أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة،فذلك هو سبيل الله حقا؛لأن الله غنى عن العباد،وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف علتهم ويسر لهم أمور معاشهم،فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ ،يتداولونه فيما بينهم استئثارا أو احتكارا،وتلك قمة العسف بالناس وإذلالهم وإعناتهم فى أرزاقهم.

كل فى هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله:﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾،سيرى المؤمنون عملكم،وسيحاسبونكم عليه ويقدرونه لكم،كما يقدره الله،هو العمل إذن،ولكن لا للمعاش والمنفعة الذاتية فحسب،بل ابتغاء مرضات الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة،وعلى قدر هذا يكون التقدير.

ويضرب نظمى لوقا المثل بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى ذهب فى تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعد مزيد،يقول:«والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة»،ومن قال هذا فقد أراد الصحيح أو الإيمان الصحيح هو دين العمل النافع للناس: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾...ذلكم هو العمل وذلكم هو الفضل،وذلكم هو الفوز العظيم،وليس اكتناز المال ،واقتناء الصروح والضياع،والاستكثار من الزخرف والمتاع،وليس البر فى البطالة والسجود،أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد،كلا: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ .

وعند قوله ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ وقفة لمن ألقى السمع وهو شهيد،الله يعلم بحب الناس للمال،وهو القائل:﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾،ولكن الإنسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب على هوى نفسه،ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم،فإن صلة الخلق قربى إلى خالقهم،فإنه بذلك يقرض الله قرضا حسنا.

اعمل ويسر للناس أن يعملوا،ولا تحبس المال عن التداول بين أيديهم ، وابذل مالك على حبك له للقرباء واليتامى والمساكين والسائلين،ثم عليك بعد ذلك الزكاة «فريضة من الله»،فريضة لا يراد بها الكسالى،بل من أقعدتهم عن العمل هو الأساس،ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب إعالته من مال الزكاة،دين عمل ..لا دين بطالة واستجداء.

ويعود نظمى لوقا مرة أخرى إلى كلمة «على حبه»....لأنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية فى دين الإسلام،وإنا لنجدها حيثما ذكرت الصدقة،سواء بالمال أو بالطعام،فجاء فى سورة الإنسان:﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ،وفى سورة البقرة:﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ،ففى ذلك مغزى الخلق الإسلامى وخاصته المميزة،فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع

فحسب،وليست من الأعمال التى يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورقى المعيشة فى الأمة وصلاح الأحوال بموجب عقلى،بل هو فعل خلقى فى المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية:وجه الواجب.

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى فى هذا المقام،هو الفرق بين ما هو بوحى من العقيدة وما هو بوحى من المصلحة،ضاق صداها أو اتسع،فأننا نرى اليوم أمما بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعي المادى غاية مداه،ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة،ولكنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء؟

ويأتى السؤال :لماذا؟

والإجابة:«لأن هذا هو الفيصل بين الروح والمادة،بين العقيدة والعقل،بين العاطفة والمصلحة،بل بين الله والإنسان،إن التنظيم الإجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال المجموع بعامة،تحسينا ينعكس على كل فرد فى ذلك المجموع،ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو اليسر أو الرخاء،يصيب ماذا؟أو يصيب من؟...إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى،وليس تحسينا لذات الآدمى،وتقدم لأحوال الإنسان،وليس تقدما يصيب ذات الإنسان ووجدانه،إنه رقى فى الكمية وليس رقيا فى كيفية الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة.

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليعجزه أن يجد لذلك طمعا ودانيا عميقا،أو رقيا فى قيمته ونهوضا بمعنى إنسانيته،إنه كالبغل المزركش ولا زيادة،أما الإنسان الذى يحس ارتباطا بين قيمته وبين قيم الكون الكبرى،وبين أفعاله ومقاييس الأبد،وبين وجدانه وحقيقة الوجود،فالرضوان الذى يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته الإيمانية رضوان إنسانى لا حيوانى،روحى لا حسى،بحيث

يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيدا من الارتقاء فى الرضوان والسعادة يمتد إلى ما وراء القبر.

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادية بين يقين الروح وضياع المادة،بين حس الأخلاق وحساب المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رخاؤها،وهذه هى أخلاق الإسلام:بذل المال والطعام على حبهما،ابتغاء لما فى الإيثار من شعور بالنجدة،وقياما بالواجب الإنسانى والفرض الإلهى،وطموحا إلى نعيم لا يزول بعد ئذ لمن عمل صالحا.

أخلاق أساسها الشعور بالواجب،والقربى إلى الله فى كمال صفاته وآلائه الحسنى:«ولله المثل الأعلى»،وأى مثل أعلى يلتمسه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى؟إنه الرحمن الرحيم العليم الخبير اللطيف البصير السميع المجيب الودود،إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حثا لهم لا إعجازا:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾...﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾.

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء،على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانية...«وابتغاء وجه الله»..هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق،وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلى،ومن ينظمها لهدف مادى،فالإسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة،ولكنه يضعهما فى حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق،فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان فتيلا،فيكون كمن ختم على سمعه وبصره:﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

إن التقدم المادى بغير السمو الروحى عمى مطبق،وقعود عن التحليق وارتباط

وخيم بتراب الأرض،ولو جعلته تبرا أبريزا،وبعد هذا السمو الروحى،فمصالح الناس المرسلة أهل للرعاية وهم أعلم بشئون دنياهم،وليس التنظيم الإسلامى لأمور الدنيا بنظام مقفل جامد،بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم:«لا ضرر ولا ضرار»..«وأنتم أعلم بشئون دنياكم».

فما لم يرد فيه نص بتحريم لسبب من أسباب العقيدة الروحية،فلا بأس على الناس فيه،ما لم يكن فيه ضرر لصاحبه أو إضرار بسواه،خلق كريم،وإيثار ونجدة إبتغاء وجه الله،واتقاء لغضبه فى معاملة الناس،وإصلاح لحال الدنيا من غير إضرار بالناس،وحرص على مصالح الجماعة،وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق بالعمل،وكفالة المتعطل والعاجز عن الكسب بالزكاة،وترفع عن الترف والإسراف فى البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات الجسد،فذلك هو النموذج الكامل للإنسان،يحب إخوته فى الله،ويوفق بين دنياه وأخراه،ويقهر شرة الحس فى معمعانه لا فى صومعة بفلاة،...إن ذلك لهو الفوز العظيم.

(١٠)

وإذا كانت رسالة محمد تدعوك إلى أن :«ولا تنس نصيبك من الدنيا»...فإنها أيضا أرادت ألا تلهى الدنيا الإنسان عن ذكر الله،يقول نظمى معلقا على ذلك:«أذكره فى كل حين،ولكن عليك فرض من ذكره مفروض،فى أوقات معلومة من الليل والنهار،حتى لا تسهو عن ذكره،وباب النوافل مفتوح بعد ذلك لمن شاء مزيدا من الإحسان.»

وهذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا،حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى،فيخرج إلى الناس والكدح والسعى فى طلب الرزق،وبه أثارة من الخشية تنهاه عن البغى والمنكر،ولا خير فى صلاة بذهن شارد

وقلب بارد لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

إنه نظام واحد يمسك الدين والدنيا،ويسلك المعاش والعبادة والمعاد،ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة فى القرآن من غير آثراها العملية،من اتقاء الله فى الضعفاء،والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين وأداء الزكاة للمعوزين،والتعفف عن الفسوق،فجاء فى سورة المؤمنون: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾..وجاء فى سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

وليست أى صدقة تعد إحسانا..كلا: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وبئس الصدقة ما كان رئاء الناس وبئس الصلاة ما كانت رئاء الناس فلا تجعله رحيما عفيفا: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

صلاة هذه شأنها تتكرر فى اليوم خمسة مرات،لا يلهى عنها بيع أو شراء،إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله،ومن يفعل ذلك: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾،ولكن أين تكون تلك الصلاة؟هل لابد فيها من وساطة رجال الدين؟..هنا تبرز خصوصية الإسلام فى أمر الصلاة التى تقف بالمرء بين يدى الله جملة مرات فى كل يوم.

كل مكان فى أرض الله الطاهرة يصلح مسجدا ومحرابا،لا هياكل بعد اليوم،ولا

كهانة بعد اليوم،ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم،ولا وصاية على ضمائر الناس نفكلهم أمام الرحمن سواء،والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء،فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلا إلى ربه:﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ،وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته.

وهنا يتوقف نظمى وقفة يرى أنه لابد منها.

يقول:«إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظهريات اليهودية،وهدم شكليات الطقوس،ونادى بعبادة الضمير النقى،وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلى،إنى أعتقد أن المسيح نقض الكهانة؛لأنها تناقض عبادة الضمير،والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله،وأعتقد أن كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه،أما هو فلم يرد فى نصوص و أقواله ما يبرر قيام الملكوت.

إن من يطلب الناس أن ينادوا الله بقولهم:«يا أبانا الذى فى السماء»،كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء،إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق،ولا مكان فى هذا الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه.

(١١)

يجزم نظمى لوقا بأنه لم يبق هناك أى شك فى أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعى،فقد جاءت متلافية أوجه الغموض فى عقيدة الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن والروح فى كيان واحد،ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد فى السمو الروحى،فما كانت دعوة تهوين أو إسفاف،بل دعوة اتساع فى الأفق وشمول فى النظر،يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته،ثم هو متروك

فى أمر طاقته لضميره وسريرته أن يقول صادقا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ .

فالمعول عليه السريرة والنية والصدق،فهذا الدين – كما قال – رسوله «يسر لا عسر»،وهو دين متين «فأوغل فيه برفق»،لا زيف فى هذا الدين إذن،وهو ملب حاجة البشر كافة،سوادهم وخاصتهم،لا مسخ فيه ولا إضفاف،ولا عسر فيه ولا إجحاف،وإنما هو صراط مستقيم،لا إعنات فيه للفكر السليم والبداهة السديدة.

لقد أثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق،وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المسميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدنه فى الاقتناع والتصديق،ورد اعتبار البدن بوصفه هيكل الروح،فهو ليس مصدر خطر لصاحبه،ولا هو بالرجس وإنما الرجس فى مقارفة المحرمات المحددة شرعا،وفى الإضرار بالنفس أو الغير،وبغلبة الشهوة على صاحبها،فصاحب الرسالة هو القائل:«إن لبدنك عليك حقا».

هو دين يسع الناس كافة ويهديهم كافة،ولكن حذار أن يظن ظان أن دعوة الإسلام استهوت الناس بتملق غرائزهم أو رشوة منافعهم وأثرتهم،أو إباحة الأهواء والشهوات،فإن ذلك يكون ضلالا كبيرا،وجنوحا إلى عكس مضمون تلك الدعوة.

إن الرسالة الإسلامية جاءت تنظيما لحياة الناس،بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من الشهوة والهوى والقسوة والظلم والإباحية،فرضت على المرء أن يعمل وجعلت قيمته وشرفه معلقين بعمله،وسيرى عمله الله والرسول والمؤمنون،وفرضت الزكاة على الأموال،وجعلت للفقير فى عنق الغنى حقا مفروضا هو الصدقة،وفرضت الصفح والعفو،ومحت الثأر والشحناء،وفرضت الصلاة والصيام وحرمت البذخ والسرف،وفرضت التواضع

وحرمت الخيلاء،وأحلت الزواج وحرمت الزنا،وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاه أربعا،وحضت على زواج الوحدة،وفرضت الأخوة والمساواة وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه،وحرمت الخمر وكل ما يخمر العقل فهو خمر،وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم.

فلئن قيل :إن الإسلام اعترف بحق البدن،فإنما يقال ذلك بوجه معين،أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشرى ذوى أبدان،لا ملائكة من نور،فهو دين حصيف شامل،لا يرهق الناس من أمرهم عسرا،ولكنه إذ يمتنع من الغلو فى إنكار الجسد،لا يغلو فى إطلاق العنان له،بل إنه يلزمه حدوده،ويجعل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكا طاهرا،يتمتع بالطيبات مما أحل الله،شاكرا له نعمه،مبتغيا رضوانه،فذلك البدن أشبه ما يكون بمطية أحرى براكبها أن يرتحلها إلى كل ما هو طيب،ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم،فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات،أو إباحة الأهواء،ورشوة المنافع.

كان العرب فى الجاهلية أهل إباحة،لا وازع ولا رادع،قصفهم مجون ولهوهم فجور وحياتهم عدوان وكسبهم سحت وليلهم خمر وميسر،فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى أنه استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباذلهم؟،إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو،فماذا عساه يكون؟

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التى يراه الله فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها،فاستطاع الإنسان أن يعيش غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية،وقد رسمت له حدود تتفق وواقع فطرته،وتسمح له بالتسامى ما استطاع،ومن لم يستطع فلا تثريب عليه،وفى رحمة الله الذى خلقه وعرف ضعفه.

ومن سمى هذا التوسيع لباب رحمة الله،والاعتراف بفطرة الله التى فطر عليها بنى آدرم،إباحة أو تملقا للشهوات،فإنه إذن لغالط أو مخالط،أترى إن قيل للناس،لا تتنفسوا،أيكون ذلك معقولا مقبولا،وتكون إباحة التنفس تملقا لأهوائهم أو رغباتهم؟

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة وعدم قطع الناس عن رحمة الله،فلا تكون لهم حجة بعد فى تعدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى حقيقة طبائعهم بغير إعنات،وهذا هو القسطاس الحق فى تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطيق كل منهم تسويد العقل والروح على نوازع نفسه،ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا،وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة.

(١٢)

وبعد الرسالة وحدودها ومداركها،يصل نظمى لوقا إلى الرسول،يقول:«أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى فى سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد،إن الرسالة التى تسير بصاحبها على مهاد من الود،ويكون هدفها الغنم له أو لذويه ولا تدل على إيمان،بل على وصولية وطمع وطموح،وأيا كان المقياس الذى تقاس به دعوة الإسلام،فلن نجد فيها دليلا واحدا ولا شبه دليل على أن الغرض منها كان خدمة شخصه من قريب أو بعيد».

لقد كان الرسول موفور الرزق موسعا عليه،فبدل من ذلك ضيقا وشظفا،كان آمنا فى سربه،فبدل من ذلك قلقا ومطاردة وارتياعا،كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه،بالنسب الرفيع والحسب المنيع،فبدل من ذلك إهانة وتحقيرا وازدراء.

كان وحيدا أعزل لا أمل له فى نصرة أحد على قومه،وهم أئمة الشرك وحراس الكفر وأولياء عاصمته المستفيدون منه،أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع

لهم،وأوذوا بسببها فى أرزاقهم وفى أعمالهم وفى أشخاصهم،وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة أكثر من مرة،وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفى عليهم شيئًا من المنافع،فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب البشر أو حظا من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله.

كلا فهذه نبوة وليست ملكا ولا وراثة فى النبوة،كلا بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول،قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان،فالناس فى هذا الدين سواسية كأسنان المشط،وهذا الرسول هو القائل :إنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى،وإن عصبية الجاهلية موضوعة.

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جميعا إلا الخسران،ولا تحمل لقومه – على افتراض نجاحها وظفرها – إلا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه،بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين،ولم يظفر صاحبها بمغنم،ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته،لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة،بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة.

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية دعوته حتى المنتهى،ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية أو أهواء حزب من الناس أو فئة،وصح إذن أنه ما كان ينطق عن الهوى وأنه :﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم:٢] ،هى من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان،وليست مطية هوى،هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه فى أشد الظروف حلكة وأدعاها لليأس؟وإن لم يكن مقياسه الصبر فى سبيله على المكاره؟..وإنها لمكاره من كل نوع،لعل المعنوى منها أقسى من المادى،ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والإيذاء البدنى بالغا ما بلغ من العنف.

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة فى موضوع رسالته،على

كثرة فنون المساومات واشتداد المحن،ولعل كلمته التى قالها لعمه أبى طالب تكفى:«يا عم ..والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»...من كابر فى صدق هذا الإيمان فهو مسكين لا يميز الإيمان من الدجل،ولا الصدق من الهزل.

لا مساومة وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شئيا،ها هو يدعو القبائل فى موسم الحج إلى ربه،يقف بمنازلهم،فمنهم من يعرض عنه ومنهم من يسخر،وها هو يقف على منازل بنى عامر،ويتكلم فى يقين وبسلطان،وأى سلطان أعلى من سلطان اليقين بالعزيز ذى الجلال؟

ويبهر كبير القوم بما سمع،ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها عسى أن تكون لقومه بذلك الداعى رئاسة أو يحدث لهم ذكرا ،فيقول له:أى محمد أفإن اتبعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

هذه مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة،فإنه يطلب إلى قوم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة وفى ذلك البلاء والمشقة ما فيه،بل فيه من الهلاك للأنفس والأموال ما فيه،وفى منطق المساومة وتبادل المنافع لابد من متابل لكل خدمة تؤدى منفعة ترجى،فليكن الأمر إذن كما يطالب به شيخ بنى عامر نفوذ عرض معقول،يصلح أساسا على كل حال للمدارسة بين الطرفين.

لكن نظمى لوقا يرى أن محمدا لا يساوم،وإن كان مأمورا ليس له من الأمر شئ،لا يرى الإيمان بالله منة للمؤمنين على الله ورسوله،بل منة لله على المؤمنين،هداهم من ضلال،ونصر الله حق عليهم،كفاه هذا الفضل العميم،وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة،وكان محمد مطاردا وحيدا لا يكاد لدعوته سميعا،وكان محمد مطاردا لا يجد مانعا ولا نصيرا.

لكن محمدا لم يقبل المساومة فى أمر هو من شأن الله وحده،وهو لا يملك من الأمر شئيا،الأمر لله يضعه حيث يشاء،ما هذا قول مغامر مساوم مداور،هذا قول لا يصدر إلا عن شجاعة إيمان نادر،سلطان إيمانه عليه قاهر،لا حيلة له فيما يأخذ وفيما يدع.

(١٣)

ومن الشجاعة إلى الصدق،فمن لم يكن صادقا فى دعواه،فهو دعى لا يسلم من أعراض الإدعاء مهما تصنع الصدق،وتجتمع أعراض الإدعاء فى انتحال صفة أو قدرة أو حق ليس للمرء حقيقته،يقول نظمى:«ما كذلك كان أبو القاسم ..لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلى به على أحد،أو يرتب لنفسه بها سلطانا أو تقديما،ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد،ليس عليه إلا البلاغ....عليه البلاغ..ولكن أى شئ له؟..لا شئ ..ثم لا شئ..ثم لا شئ..﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾..﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾...﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾.

كان محمد امرؤ عليه وليس له،أين من ذلك دعوى الأدعياء؟ولما طولب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه ليسأله أن يؤيده بخارقة بل خوطب مأمورا بما يقول لهؤلاء: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾....و ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ .

لا دعوى ولا ادعاء،ولا مظاهرة من الخوارق والبوارق،وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾...أفلا تتفكرون، بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس ولا حجة له سوى هذا،فما هو بصاحب معجزات،ولا هو يمنى الناس بخزائن لا يملك

مفاتيحها إلا الله،ولا يعدهم بدفع السوء عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه،ومن لم ينفعه عقله فى الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال،فهو أعمى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ،وليس بنافعه إذن خوارق المعجزات.

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحى أول مرة وهو يتحنث فى غار حراء صائما،قائما يقلب طرفه بين الأرض والسماء،جياش النفس منقطعا عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسى الغليظ،لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين،ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها المتلهف على شرفها،بل ظن ذلك فى أول مرة رؤى من الجن،وارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة الخارقة،ودخل على خديجة وكأن به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئنا إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى قريبها ورقة بن نوفل وهو من نصارى العرب،الذى قال له:قدوس قدوس،والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى.

لم يكن حال محمد حال دعى يلفق دعوى للناس لا يؤمن بها،ليس هذا هو حال المتصدى لأمر عن هوى،ليس هذا حال ملفق دجال،بل هذا حال المتصدى لأمر عن هوى،ليس هذا حال ملفق دجال،بل هو حال رجل لا يريد أن يصدق ما تراءى له،إلا ببرهان ويقين،فقد فوجئ بما وقع له وتولاه الروع والفزع،هو إذن تكليف لا تأليف،وهو تكليف مر شاق.

ما قاله محمد لم يكن قول مغامر دعى أفاق يلتمس مغنما ويرسم خطة للكسب،أو يهتبل فرصة مواتية للظفر،بل هذا يقول من يرى نفسه مأمورا بما لا يكاد يطيق،والطريق أمامه مسدود،فمن ذا يدعو فى عاصمة الأوثان إلى عبادة الله؟ومن ذا يستجيب له بين سدنة تلك الأوثان؟ولأن هذا الحائر المتحسر لا يدرى بعد خطورة

ما هو بسبيله،شأن من دبر أمرا وبيته بليل وحسب حساب العواقب،وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله،لا يحز به إلا من يدعوه إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التى ألقيت على كاهله إلقاء.

لقد كانت الكلمة التى قالها لورقة بن نوفل:أو مخرجى هم،عندما أخبره أنه ما من أحد جاء بمثل ما جئت به إلا وأخرجه قومه،هذه الكلمة تحديدا كافية وحدها عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه،وأنه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته،ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان،وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر،أجل هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهم الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيا وتكليفا،لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء.

لقد شرع محمد كما أوحى إليه ينذر عشيرته الأقربين،وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين،ثم انتظر محمد أن يدله الوحى على ما يفعل لإنذار الناس ومحاجتهم وهدايتهم،فإذا الوحى يبطئ عليه،حتى ظن أنه كان مخدوعا فيما تراءى له من قبل،أو أن ربه انصرف عنه بعد بعد أن اصطفاه وتملكه فزع ووجل.

وطال انقطاع الوحى،وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء،واشتد به الأمر حتى ظن أن ربه قلاه،فحزن واغتم وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحى ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

عجبا ففيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضع القرآن مدعيا ملفقا؟ ما كان

أغناه عن فضيحة فتور الوحى لو لم يكن أمينا غير متصنع ولا مموه،وإنما هو الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير.

إن الصدق يبدو من أنه لا يوجد دعى إلا وهو مطية الشعور بالنقص،فيدفعه ذلك إلى المغالاة فى شأن نفسه،والتزيد فى مدى قدرته،وما كذلك كان محمد،مر بقوم على رؤوس النخل فقال:ما يصنع هؤلاء،فقالوا:يلقحون ..يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح،فقال:ما أظن يغنى ذلك شيئا،فأخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول،ونقصت غلة النخل ذلك العام وخرج شيصا،فذكروا له ذلك فقال:إنما أنا بشر،إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به،وإذا أمرتكم بشئ من رأيى فإنما أنا بشر،أنتم أعلم بأمور دنياكم،وقيل أنه قال:ظننت ظنا،فلا تؤاخذونى بالظن.

لم يرتج عليه ولم يكابر،ولم يشؤه أنه أخطأ الظن،بل اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم،وما هكذا يكون موقف دعى يستولى عليه شعور النقص،وهو أبين الأمراض التى تنتاب الأدعياء.

(١٤)

ويأتى نظمى لوقا إلى الجهاد الأكبر،يقول:«الجهاد الأكبر هو جهاد النفس،هو قائلها،وإنه فى ذلك الجهاد لفارسه الملعم،وبطله الذى لا يشق له غبار،رجل فرد هو لسان السماء،فوقه الله لا سواه،ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين،ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر،بل يشفق،بل يفرق من ذلك،ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو فى سريرته،قبل أن يحاربه فى سرائر تابعيه».

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي،وما استقام له من السلطان،اعتد بذلك كله واعتز،لما كان عليه جماح من أحد؛لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة ويعتز بمزية طائلة.

يذريه قول أصحابه بالحق الذى يعلمون عنه،فيقول لهم:لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم،إنما أنا عبد الله،فقولوا:عبد الله ورسوله،ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيما له،فيناههم عن ذلك قائلا:لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا.

ويمرض المريض من أدنى الناس فيعوده،ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيعزيه فى مصابه،وقد يدعوه عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع،ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم فى حجره،ويمازح أصحابه ويتبسط فى الحديث معهم،ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف،ويؤاكل خدمه ويشاربهم،ويحمل عنهم أعباء عملهم فى البيت وغير البيت،وكان حفيده الحسن بن على بن فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلى بالناس ساجدا،فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره،وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيدا من إكرامهم،كما فعل بوفد نجاشى الحبشة.

ذلك هو الرسول الذى خاطبه الله فى القرأن قائلا:﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ،وأى خفض جناح أكثر من عمله وقصاصه من نفسه كلما كان لديه حق؟.

أما زهد محمد فيقول عنه نظمى:«وزهدك يا محمد؟..زهدك وقد أحلت لأمتك الطيبات وحببت إليك،هذه أم سلمة زوجتك تصف ما وجدته فى دارك ليلة عرسها:نظرت فإذا جرة فيها شئ من شعير،وإذا رحى وبرمة وقدر وقعب،فأخذت ذلك الشعير فطحنته،ثم عصدت البرمة،وأخذت العقب فأدمته،فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله علسه وسلم،وطعام أهله ليلة عرسه».

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث فى التعليق على زهد

الرجل الذى لم يؤت أحد فى زمانه سلطانا على أصحابه كما أؤتى،ولولا أنه يرى برهان ربه رأى العيان،فتصغر فى عينيه الدنيا وما فيها،ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة،ولا يدخر لغده شئيا،أليس قد مات ودرعه مرهون عند يهودى فى قوت عياله؟ ومن هو؟هو السيد غير منازع،وقد أؤتى الفتح المبين،وعنت له رؤوس المعاندين،ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه بأن يسود الناس.

لهذا كان ينام على حشية من ليف،ولم يبلغ من طعام حد الشبع،ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين،وجعل طعامه التمر،لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيرا،وكم من مرة ربط على بطنه حجرا ليقاوم الجوع حين يشتد عليه،وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف طعام زوجها العظيم الذى لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل سلطانه على قومه:«ولم يأكل النبى خبزا مرققا،ولا أكل خبزا نقيا،وقد جاءت إليه فاطمة ابنته بكسرة خبز فقال:ما هذه الكسرة يا فاطمة؟قالت:قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة،فقال صلى الله عليه وسلم:أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام».

قمة شاهقة فى الزهد لا يطيقها كثيرون،فلا عجب أن نرى زوجاته يتضجرون بهذا الصادق،وهو الذى يملك خمس الغنائم بشريعة القرآن،فيهلك ذلك فى الصدقات ولا يستبقى لآله من الطيبات شئيا،حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليأكلنه عسى أن يرد عنهن غائلة الجوع،وهن يرين زوجات أدنى المسلمين شأنا أوسع منهن رزقا وأحظى بالرفاهية والزينة،وصارحنه بما فى نفوسهن من الضيق بهذا الضنك،فآلى أن يعتزلهن جميعا شهرا من الزمان،حتى تحدث الناس أن النبى طلق أزواجه،وذهب النبى فعلا يخبرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه به من المعيشة،وليس يعنينا هاهنا أنهن جميعا اخترن الحياة معه على الوجه الذى يريد لنفسه

ولمن،فما كان يدرى شئيا من هذا حين خيرهن ذلك الخيار،بل كان مواطنا نفسه على أنهن قد يخترن ما تصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا،وكان مستعدا لهذا الموقف مؤثرا زهده على كل شئ.

وعمر الزاهد المخشوشن ليس فى زهده إلا تلميذا لهذا الزاهد المطبوع،وقد رآه يوما وقد أثر فى جنبه الحصير،وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله؟،فاستوى النبى جالسا وقال:أفى شك أنت يا بن الخطاب؟أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا!،ذلكم هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعا لا ضرورة،وغنى نفس لا فقرا ولا عجزا،فإنه كان أقدر القادرين على البذخ،لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدما عنده على الاقتدار على المناعم والطيبات.

ومن بين جهاد النفس مقاومة محمد لفتنة السلطان،يقول:«ما رأيت رجلا لم تغيره بوادر النفوذ ولم تدر رأسه خمر السلطة،فإذا خيلاء وصيد تتغنى له النفس،حتى ليصدقنى فيهم قول القائل:إنهم ينحطون باطنا كلما ارتفعوا ظاهرا،وإن فيهم الفتى الغر الذى لا يحسن من أمر نفسه شئيا فضلا عن أمور الناس،وينتفش بما ألقى إليه من فتات الأمر والنهى كأنه الديك الرومى،أو يتثاقل فى خطوه وقد برز صدره ورأسه،كأنه يتأهب للنطاح.

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت فى جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم،يا لسان السماء ويا حاكم الدنيا،ويا من لا يعلو سلطانك على أتباعك من بنى آدم سلطان،فليس فوقك إلا المهيمن الأحد،هباء سلطان أولئك جميعا مهما علوا واستطالوا إلى جانب سلطانك أو أهون من الهباء،وما فتنك سلطان،وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة إلى النصر المؤزر والفتح المبين والطاعة العمياء والسؤدد الذى لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد.

ويختم نظمى كلامه عن فتنة السلطان بقوله:«إنى والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو بالمنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان،وأنا أتمثلك فى هذا الموقف الذى لا تدانيه فى علوه وقفات العواهل الفاتحين،وإن مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح فى نظرى فتوح الغزاة كافة،وأبهة القيا أجمعين.وأنت بأجمعك فى هذه الكلمة ..وما أضخمها أيها الصادق الأمين.

(١٥)

ويصل نظمى لوقا إلى المحطة الأخيرة،يقول:«ماذا بقى من مزاعم لزاعم؟...إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه النصر،وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة الأوثان والأزلام،وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية حاجة الإنسان الطبيعية،موفقة بين دينه ودنياه،ومتلافية تلك القسمة المسقمة بين الروح والبدن ،فى السر والعلن،ونزاهة ترتفع فوق المنافع،وسمو يتعفف عن بهارج الحياة،وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع».

لم يفد ولم يورث آله،ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها،وحرم على نفسه ما أحل لآحاد الناس من أتباعه،وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش،لم يكن لنفسه ولا لذويه،وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة،فسوى ذلك كله بالأرض.

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق،أو تدافع هذا الصدق الصادق،ما نطق هذا الرسول عن الهوى،ما ضل هذا الرسول وما غوى،وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين،فسلام عليه بما هدى من سبيل،وما قوم من نهج،وما بين من محجة،وسلام على الصادقين.

إسلاميات
كاتب
مسيحي

3

محمد في حياته الخاصة

«زواج النخوة.. لا زواج الشهوة»

فى بداية كتابه «محمد فى حياته الخاصة»...يبدأ نظمى لوقا بتنبيه مهم،يقول فيه:«مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد،وما كنت بحاجة إلى هذا التنبيه.لولا أن نفرا من الناس ذهب ظنهم إلى أن إنصاف عقيدة من العقائد لا يمكن أن يصدر إلا عن شخص يدين بالعقيدة التى يدفع عنها الافتراء، وبالتالى لا يدافع عن الإسلام أو ينصفه إلا مسلم».

ويشير نظمى لوقا إلى أن هذا ظن باطل،ويقول:«ليست كتبى هذه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الأصيلة،وإن عالجت أمورا تتصل بالدين،فالغرض الأول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة،والنظر فى سائر الأمور نظرا موضوعيا مبرأً عن التحيز والتحامل،بحيث يكون التفكير الإنسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى،لا تتأثر نتيجة تحليل الدم إلا بالعناصر التى يتكون منها الدم فعلا،ولا دخل فى هذه النتيجة لأن تكون قطرات الدم لذى القربى أو لأبعد الغرباء».

وهذه النزاهة الموضوعية - كما يراها نظمى – أسمى منهج عقلى متاح للبشر،وهى أشق ما يكون حين يتصل الموضوع بالعواطف الشخصية،ولا سيما المعتقدات،لأن التجرد من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير،ولهذا السبب تعمد البحث فى الإسلام جاعلا من هذا الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو إليه،وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز.

وإذا كان المنهج الموضوعى الذى اتبعه نظمى لوقا،يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها،وعن المعادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس،وعن السيارات من غير أن يكون سيارة.

ويختم نظمى لوقا تنبيهه:«فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن

الإسلام من ليس فى عداد المسلمين،إلا أن الإنصاف النزيه أثمن فضائل الإنسان،وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا إلى الأمور كافة،بما فى ذلك الأديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا،وفى مرجوى أن يقرأ القارئ صفحاتى بمثل الروح التى كتبت بها...وسلام على الصادقين».

وبعد هذا التنبيه يهدى نظمى لوقا كتابه إلى السائرين فى الظلمة،وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى صوفى عبد الله – زوجته – التى وصلته وقد قطعه الناس،وواساته وشددت من عزمه،وكانت سكنا لنفسه وملاذا،قالت له:لا تهن يا رجل حين أقبلت المحن كأنها قطع الليل،فهى بالنسبة له:«خير زوجة وخير صديق وخير أم،خير شريكة هى فى أمانة الفكر وأمانة القلم وأمانة الحياة».

(١)

على جناح كلمة هنريك أبس «لم آت لأدعو خطاة إلى التوبة بل الأبرار»...يدخل نظمى لوقا إلى فصله الأول عن معنى الشرف والشرفاء.

وفيه يرى نظمى أنه ينبغي أن يكون للفضل عرض عام وشرف مشترك مشاع بين الفضلاء والشرفاء على تباينهم فى الرأى والعقيدة،ومن لم يشعر بالتأذى والغضب لفرية تصيب خصيمه أو المخالف له،فماذا يبقى له من معنى الشرف والمروءة.

يقول نظمى:«إذا أحببتم من يحبونكم فقط فأى فضل لكم؟...وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فقط فأى فضل لكم؟...هكذا قال السيد المسيح،فى رسالة المحبة العظمى،ومن يسأل هذا السؤال حرى أن يسأل كذلك:إن غضبتم غضب الغيرة على شرف من يشاركونكم الرأى فقط،فأى فضل أو مروءة أو شرف يبقى بينكم؟...إن الحماسة للحق أينما كان،ولمصلحة كائن من كان،والغيرة عليه هى

لباب الشرف القديم،فما الشرف إن لم يكن تجاوز أشخاصا المحدودة إلى قيم عامة،لا يعنينا أن تكون مغانمها لنا أو لسوانا،ويعنينا الدفاع عنها حين تهدد،سواء كان الدفاع عنها دفاعا عنا أو عن سوانا؛لأن الحق هو الذى يبتغى وجهه،والإنصاف هو الذى يبقى عليه،ولا بقاء لنا إذا تداعى الصدق والعدل،وضاعا بين الناس فى غمار المهاترات والسخائم».

ويذهب نظمى لوقا إلى أنه متى تكون الغيرة فى موضعها الصحيح،إن لم تكن على سمعة هاد من هداة البشرية،طالما نال منه المفتاتون بلا تورع ولا حياء؟،ومتى لا تستغرب الغيرة إذا كانت تستغرب فى مثل هذا المقام؟،فأى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من أبى القاسم الذى حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين،ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان،ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شئيا مما يقبل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام.

ويفصل نظمى لوقا ما يريد أن يفعله يقول:«حفاظا على معنى الشرف وصيانة لحق المروءة أوجبت على نفسى ذلك الإنصاف لشخص أبى القاسم،أوجبت ذلك على نفسى منذ عرفت قدره وأدركت خطره،والواجب فرع عند ذوى الأمانة عن الإدراك،فشهادة الحق من أوجب الأمانات،والساكت عن الحق شيطان،فمن يجهل لا لوم عليه،والملام كل الملام على من يدرك الحق كرائعة النهار ثم يتخاذل عن إعلائه،ويترك رايته تنتكس بين السفلة والطغاة،وتوطأ بأقدام الجهلة والظلمة واللئام،وساء ذلك صنعا،إنه إثما وبيلا».

(٢)

تحت عنوان الأمية والجهل،يبدأ نظمى لوقا دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم بآية كريمة:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ،ويقول:«هذه الآية يستفاد منها على الأرجح أن المقصود بالأميين،أهل الأمم من غير بنى إسرائيل الذين كانوا يسمون أنفسهم الشعب المختار،الذى اختص بالهداية والنبوة،وأن غيرهم من أبناء سائر الأمم «أمميون» أو «أميون» لا نبوة فيهم ولا هداية لهم،فجاءت هذه الآية لتقرر ما شمل الله به الأميين من الرحمة إذ أرسل فيهم رسولا منهم».

لكن المستشرقين وسائر المغرضين آثروا الأمية بمعنى عدم القراءة والكتابة،وهى صفة غير منكورة للرسول العربى الأمى،وقد آثر نظمى لوقا أن يسايرهم تعقب لحجتهم وتوسلا إلى إفحامهم.

يقول:«ليس كل أمى جاهلا،وليس كل جاهل أميا،فالأمى من لا يقرأ ولا يكتب،والجاهل من لا يعلم ما ينبغى أن يعلم،وليس العلم كله منوطا بقراءة وكتابة،وليس كل ما هو مكتوب مقروء علما يكون الجهل به وصمة تنتقص من قدر من لا يقرأ ولا يكتب».

فهناك كثيرون من الناس يجهلون ذلك الفرق بين الأمية والجهل،فيترددون فى ذلك الخلط بلا تبصر؛لأنهم تعودوا أن يجدوا القراءة والكتابة باب التعلم المطروق منذ النشأة،وغاب عنهم أن العلم ما علمت،لا ما تعلمت.

والخلط الأبله – كما يرى نظمى – بين معرفة القراءة والكتابة (وهو ما يسمى فك الخط) وبين العلم،بدأت تظهر لنا سخافته ظهورا فاضحا،عندما حصل لدينا تضخم فى الإجازات العلمية،يقابله ضمور فى العلم،فصار صاحب الإجازة الجامعية فى كثير من الأحيان أجهل من الحاصل على الشهادة الابتدائية قبل ربع قرن،وتبين لكل ذى عقل عدم وجود ارتباط حتمى بين المعلوم أو المفهوم والمقروء.

والناس يصح عندهم أن يقال: طبيب جاهل وطبيب عالم،ومدرس جاهل

ومدرس عالم،وقانونى جاهل وقانونى عالم،ومهندس جاهل ومهندس عالم،ففى كل صناعة من يفقه ومن لا يفقه،وفى كل فن من يحسن ومن يسيء،والعالم والجاهل فى كل صناعة يأخذان من منهل واحد،وقد يحضران على أستاذ واحد.

فالمعول إذن على العقل الذى يهضم المعلومات أيا كان مصدرها من قراءة أو سماع،ويرتبها ويقيس عليها ويستولد منها،فذلك العقل مختلف جدا عن عقل تصل إليه المعلومات فلا يمحصها ولا يهضمها،ولا يرتبها ولا يقيس عليها ولا يستولد منها،تدخل إليه المعلومات لتظل جامدة على حالها،تحفظ منها ذاكرته ما تحفظ وتنسى ما تنسى،فهى أشتات جزئية مثل حب فى غرارة.

ويصل نظمى لوقا إلى مراده ومبتغاه يقول:«وليقرأ من شاء صفحات التاريخ الحديث ولا سيما فى الشرق،وليقف مليا عند رجال لا يمكن أن تنكر عبقريتهم وهم أميون،دليل ملموس إذن،وقد شاع التعليم شيوعا كبيرا فما بالك بزمن عبر فى بادية قفر،الأمية صبغة أهلها الغالبة،والقراءة والكتابة صفة نادرة قلما تتوفر لإنسان منهم».

ويجزم نظمى:«أحمق إذن ولا شك من يتوهم الجهل فى رجل دانت له الرجال،ومنهم الأمى وغير الأمى،أقنعهم بدعوته،وأفحمهم بحجته،وتبعوه فازدادوا به إيمانا،حتى لقد فدوه ودعوته بأرواحهم راضين،كيف يصح فى عقل بشر أن هذا الرجل متصف بالجهل،ولو من غير نظر فى كلامه المحفوظ وسيرته المأثورة،مسكين من يطلق هذه التهمة إلى أمية أبى القاسم،وليس المسكين هو المرمى بهذه التهمة الرعناء».

ويسأل نظمى لوقا:ماذا عساهم يفيدون من ذلك اللغط الغث؟

ويجيب:«جواب هذا السؤال لا يكون بالتنقيب عن تلك الفائدة بمنطق العقل

للنزيه المستقيم،بل يتقمص عقلية المفترين الملتوية وباستخدام منطقهم اللئيم،إن هدفهم الأول ليس الكسب الحقيقى أو الموضوعي بل مقصدهم الأول إرضاء باعث داخلى لديهم،إرضاء سخيمة تستقطب التهجم على سمعة إنسان شريف كريم،لتنال من سمعته وتنتقص من حميد صفته،ولا يقعدهم عن ذلك القصد أن الإهانة لا تلحق الكريم فى نظر من لهم عقول تحس وزن الأقدار.

إن أصحاب هذه الفرية يطمعون أن تنطلى على لبيب،ولكن حسبهم أن تنطلى على الغافلين،فيحول ذلك بينهم وبين سلامة التقدير للرجل المبغوض،ولا عليهم أن يضار بذلك الافتراء وتلك المغالطة فى واقع الأمر من يصدقونهم ويتابعونهم فى الضلال؛لأن من يغلق عينيه دون النور،يضير عينيه ولا يضير النور،ولأن النور منفعة للرائى لا للمصباح،وللمهتدى به لا الهادى،وقديما قالوا على أهلها جنت براقش،وما من زمان أراه يخلو من براقش».

(٣)

وبعد تهمة الجهل التى دفعها نظمى لوقا عن الرسول صلى الله عليه وسلم،يفند تهمة أخرى لحقت بالرسول،وهى تهمة جموح الشهوة وتعدد الزوجات.

يقول:«بعد فرية الجهل اتجه المفرون إلى نقيصة أخرى تقوض الميزة الخلقية،وتطعن الرجل الشريف فى مروءته وصفته الإنسانية التى يعتز بها كل من ينأى بنفسه عن درك الحيوان البهيم،ومنطقهم فى هذه كتلك،مقدمة سليمة ومسلم بها،يؤسسون عليها مقدمة أخرى مغلوطة،لتلقح إحداهما الأخرى،وتخرج من اجتماعهم أكذوبة شوهاء،تلدها العقول المتهتكة وتشيعها الألسنة الآفكة».

مقدمة سليمة:محمد تزوج عددا من النساء،واقع مشهود به لا ينكره ولا يفكر فى إنكاره أحد،يتناولونه فى براءة مصطنعة وخبث مبيت ليقولوا بعدها:وليس زوج

الواحدة سواء وزوج العدة من النساء،زوج الواحد ملجم الشهوة،وزوج العدة من النساء جامح الشهوة مطلق العنان،لا يطيق منع نفسه من طلب النساء،أو هو لا يريد أن يمنع نفسه من طلبهن ما دامت الفرصة متاحة لما يشتهيه من الإباحة،والنتيجة الطبيعية لهذا الكلام أن محمدا كان رجلا شهوانيا،لا صبر له عن النساء،ولا كابح له عن الاستكثار منهن.

وعندما تعرض نظمى لوقا إلى هذه الفرية،فهو لم يتعرض لها من منظرها،بل من أساسها الذى بنيت عليه،تعرض للمقدمة المدسوسة التى خلطت بين الكم والكيف،وبين التعدد وجموح الاشتهاء،وهو خلط قريب المدخل عند من لا يدققون الفهم ولا يفرقون بفطنة بين المظاهر المادية والبواعث النفسية التى هى أمور باطنة لا تأخذ العين العابرة ما لم تؤيدها بصيرة نافذة.

وينفذ نظمى مباشرة إلى ما يريد أن يقوله.

يقول:«صاحب الزوجات الكثيرات يجمع بينهن قد لا يكون شهوانا؛لأن المعول على ما يكون فى نفسه من نوع الصلة والارتباط بهن،فإن كان ذلك الارتباط ارتباطا تعلق بلذة المضاجعة قبل كل شئ،فالرجل شهوانى بسبب تعلقه بتلك اللذة،لا بسبب كثرة عدد من فى عصمته من النساء.

أما إن كان صاحب الزوجات الكثيرات مرتبطا بهن برباط لا يقوم على طلب اللذة قبل كل اعتبار،بل يقوم ارتباطه بهن على الأواصر الإنسانية السامية من مودة ورحمة وبر ورعاية وحدب وتكريم للشخصية الآدمية للمرأة،فالرجل ليس شهوانى لعدم ابتناء صلته بالمرأة على اللذة البهيمية،بصرف النظر عن عدد من فى عصمته من النساء.

وبهذا المقياس عينه ننظر إلى صاحب الزوجة الواحدة،فإن كانت صلته النفسية

الباطنة التى تربطه إليها صلة تراحم وإيثار وتكريم للشخصية الآدمية فى المرأة،فالرجل ليس شهوانى بسبب إحساسه وصلته الباطنة بالمرأة عموما،لا بسبب اقتصاره على امرأة واحدة،أما إذا كان صاحب الزوجة الواحدة يصدر فى ارتباطه وتعلقه بها عن عنف طلب اللذة لذات اللذة،فالرجل شهوانى بهيم بصرف النظر عن عدم تعدد من تنصرف إليهن وتنصب عليهن شهوته الجامحة من أفراد النساء.

والرجل الشهوانى هو الذى يكون ارتباطه بالمرأة وطلبه لها لأنها أنثى؛لأنها أداة غفل لقضاء الرغبة الغريزية،وقيمتها عنده رهن بما تتيحه من درجات تلك اللذة،أما إذا كانت المرأة عنده ذاتا،وكانت صلته بها صلة الإعزاز الشامل والمودة السابغة،فطلبه لها ليس طلبا بهيميا أعمى،بل هو تكميل للمودة وتتويج للإعزاز فى مظهره الحسى الأقصى،هكذا يكون الترابط بين جنسى الإنسان،ترابطا لا ينحط بهما إلى درك الحيوان،وشتان رغبة نملكها ونستخدمها،ورغبة تملكنا وتستخدمنا».

ثم يصل نظمى لوقا إلى دفاعه المباشر، يقول:« وما كان محمد رجلا هزيل الحيوية واهن الوظائف،ولكنه كان يملك حيوية ولا تملكه حيويته،ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه،فهى قوة له تحسب فى مزاياه،وليست ضعفا يعد فى نقائصه.

لم يكن أبو القاسم معطل النوازع،ولكنها لم تكن نوازع تعصف به؛لأنه يسخرها فى كيانه المستوى الذى يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل فى الصورة الجميلة الجليلة،التى لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وطهره،وبيان ذلك فى أمر بنائه بزوجاته التسع».

وهو التفصيل الذى خصص له نظمى لوقا بابا مستقلا من كتابه،بعد أن أوضح المبدأ،وأقام ميزان النفس متميزا عن مغالطة الإحصاء العددى لمن فى عصمة الرجل من نساء.

(٤)

وكأنه يفكر بصوت مرتفع،يقول نظمى لوقا:«تسع زوجات جمع بينهن محمد...عدد ليس بالقليل».

لكنه يتدارك قوله ذلك بأن العبرة ليست بالعدد،ولكن بالظروف التى أفضت إلى الجمع بينهن،ومنها ظروف اجتماعية ترجع إلى الأحداث التى كان هو محورها،ولا يملك أن يعفى نفسه من المسئولية والالتزام ببعض أثارها،ومنها ظروف نفسية مرجعها إلى عواطف ومراميه.

ويبدأ نظمى بتفصيل هذه الظروف من تقديره للمرحلة الطويلة من عمر أبى القاسم قبل زواجه من التسع نساء اللواتى جمع بينهن،وهى مرحلة مداها ربع قرن من الزمن،هى فترة الشباب العارم،والرجولة الفتية،ولم يكن فيها زوجا للعدد العديد من الحريم،بل بعل امرأة واحدة هى خديجة بنت خويلد.

بعل امرأة واحدة تكبره بخمسة عشر عاما،تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين،وتزوجته وهى فوق الأربعين،وقيل : وهى تناهز الخامسة والأربعين،وماتت وهى فوق الخامسة والستين على الأقل،وكان هو فى الخمسين.

ربع قرن لم تكن فيه هذه الزوجة الواحدة مقنعا لشاب فى سن ابنها،لو كان هذا الزواج أخا شهوة لا نقول جامحة بل نقول متوقدة ذات سلطان على نفسه،ربع قرن لم تكن فيه الزوجة الواحدة فرضا مفروضا عليه،والبئية لا تعرف إلا التعدد الذى لا حصر له،وليس التوحد فى الزواج قيمة متفقا عليها فى ذلك الزمن.

ومع ذلك لم يتزوج محمد طيلة تلك الفترة الطويلة إلا خديجة المسنة،ولم ينشد سواها صاحبة بزواج أو بغير زواج،ولم يكن أخا لهو وشراب ومجون وميسر،كسائر نظرائه من أبناء البيوت المرموقة فى قريش لتلك الحقبة من الزمن.

ولو كان محمد أخا مجانة لما كان ذلك مستغربا لدى أحد،إلا أنهم كانوا جديرين بأن يتشدقوا به أول ما يتشدقون بالمطاعن على الرسوم يوم نهض بالدعوة إلى عبادة الله،وما يبنى عليها من التعفف والاستقامة والطهر،كانوا جديرين أن يتصايحوا أول ما يتصايحون:ما هذا الذى خرج علينا به محمد من الدعوة إلى العفة وهو الذى عهدنا عليه كذا وكيت؟

وما كانوا ليتورعوا عن التلفيق فى التهم،فما الذى أسكتهم عن هذه لو أنه كانت صحيحة مشاهدة؟ولكنها لم تخطر ببالهم على كثرة ما رموه لسبب واحد لا يعقل سواه،إنه كان فى سلوكه الشخصى على نقيض ذلك،وكان مشهورا بإلتزام العفة والطهر والبعد عن الشبهات،ناهيك عن الفواحش والموبقات،فوقفت شهرته حائلا دون الافتراء على لسان معا   إيه ومناهضيه من أولياء الكفر فى قريش.

ويذهب نظمى لوقا إلى أن سن الخامسة والعشرين التى تزوج فيها محمد من خديجة ليست بالسن الصغيرة فى بيئة شبه بدوية كبيئة قريش،فهى سن متأخرة للزوج،وكان محمد معروفا بالوسامة،ولكن حياته إلى أن تزوج كانت خالية من المغامرات المعهودة يومئذ،فكان على غير المألوف حيبا منطويا مستقيما.

لقد لقبته قريش قبل زواجه بالأمين،والأمانة التى بهرتهم حتى نسبوه إليها التى تجرى مجرى المثل هى الأمانة فى المال؛لأن ذلك أبرز ما يلفت نظر بيئة من التجار،فى بلد تقوم حياته كلها على التجارة فلا صناعة فى مكة ولا زراعة،ولكن ما الأمانة فى المال؟...هى الصمود للمغريات مع سهولة الوصول إليها،وكذلك كل أمانة فى المال وغير المال،ومنها الأمانة فى الأعراض.

إن القوة النفسية التى تجعل صاحبها يصمد لإغراء المال أو الكسب الحرام وهو فقير،هى بعينها التى يمكن أن تتجه إلى إغراء الجنس أو اللذة الحرام،كى تمنع

صاحبها من الزلل،فإذا هو أمين،وما اهتم القرشيون بذلك الأمر من أمور الحياة التى لا يعنى إلا صاحبه،وهو أمر العرض أو الجنس؛لأن المال كان أمرا يتصل بالجماعة كلها،ويعود نفعه وضرره على أناس غير الشخص الأمين أو الشخص الخائن،ولذا كانت أمانة محمد فى الأموال مضرب المثل،وهى فى الواقع أمانة فرعية،أصلها الأمانة الكبرى وهى قوة النفس التى تلجم صاحبها عن تجاوز الحدود وإن كان ذلك التجاوز ميسورا.

وتلك القوة الأصلية الكامنة هى التى ألزمته حدوداً ألا يكترث لها الناس فى تلك البيئة لذلك العهد،وهى حدود العفة فى الجنس،والأمانة فى العرض،لا زوجة يومئذ له ولا رقابة ولا إلزام من العرف بالعفة،ولكنه العفيف الأمين،يضن بنفسه عن خساسة الفحش والفجور؛لأن نفسه المترفعة الصافية كريمة عليه،والكرامة تلزم صاحبها حدود أضيق مما يلتزمه الناس،وأضيق مما تفرضه أحوال المجتمع على سائر الناس،فمحمد الشاب الوسيم غير المتزوج هو الذى فرضت عليه نفسه هذه الحدود المرهقة لكل نفس فى تلك البئية سواها.

وفى عفة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول نظمى:«عفة غريبة المعدن فى تلك البئية قبل الزواج،على اكتمال فى الشباب،ووسامة فى الخلق،وافتقار لمن شاء أن يتخذ إلى لذته سبيلا،ما القول فى ذلك يا معاشر الحصفاء؟،ألا يتفق ذلك مع عفته وقد تزوج فى الخامسة والعشرين،وعاش خمسا وعشرين أخرى مثال العفة والطهر؟أكان ذلك من آيات الجبن والمصانعة والرياء؟واجبنا من ماذا؟ومصانعة ورياء لمن؟»

ويجيب هو على تلك الأسئلة :«لم يكن تزوج خديجة بعد حتى يصانعها أو يخاف سخطها الذى يتعللون به فيما يفترون،ولكن فترة ما قبل زواجه من خديجة لا يجدون عليها مطعنا،ولذا يتركونها لتكون مطاعنهم كلها بادئة بزواجه،أليست

خديجة ثرية،متقدة فى السن،وهو عامل شاب وسيم فقير على تجارتها،هو إذن فيما يزعمون تزوجها طامعا،وأخلص لها فى حياتها مرائيا مصانعا،حتى إذا ماتت انطلق على سجيته فى طلب النساء،لا يجد من ذلك مانعا ولا رادعا».

هذه الفرية – فى نظر نظمى – من أولها بغير أساس،لقد طلبت خديجة محمدا قبل أن يطلبها محمد،خديجة سعت إلى الزواج من محمد قبل أن يسعى محمد للزواج من خديجة،فأين الطامع هنا..وأين المطموع فيه يا أولى الألباب؟،هل يعتبر طمعا أن ينطوى الشاب على نفسه،ولا تجد المرأة مندوحة من تنبيه إلى استعدادها للزواج منه لميلها إليه؟ماذا تكون العفة إذن؟والنأى بالنفس عن نطاق الطمع والتهالك على المنافع؟

كان فى وسع محمد وهو عاملها على التجارة أن يستغل الظروف للتودد إليها كى يستميل قلبها ويضمن قبولها إياه زوجا على فقره الشديد وثرائها العريض،لو فعل ذلك لجاز أن نقول طامع وصولى اهتبل الفرصة كى يبيع شبابه ويثرى،ولكنه فعل نقيض ذلك على خط مستقيم،عاد إليها من الشام بربح وفير،وأدى إليها الأمانة كاملة،وأخذ نصيبه أو جعله المتفق عليه ثم انزوى بعيدا عنها،إلى أن جاءه رسولها يعرض عليه الزواج منها.

ويذهب نظمى لوقا إلى أنه لم يكن من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد زواجه من السيدة خديجة ما يدل على إسرافه فى مالها،كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات،فلم يعمد إلى البذخ فى مظهره،بل كان متواضعا عفيفا،ولم يعمد إلى القصف مع أبناء المياسير إظهارا لثرائه الطارئ،بل ازداد تباعده عن كل ألوان القصف،وزاد زهده فى الرخاء والترف،وصار يقضى الكثير من وقته صائما معتزلا للناس وحده فى الجبل،حتى كانت خديجة تخرج للبحث عنه مع

خدمها،كما تبحث الأم عن ابن لها أقلقها طول غيابه وتحمل إليه هناك الطعام،زاد الرجل بالزواج من الكهلة عفة واستقامة،وزاد الرجل بالزواج من الثرية نزاهة وعزوفا عن البذخ والترف..فأين الطمع ..وأين الوصولية؟

ويواصل نظمى لوقا دفاعه،ضد من يقولون بوصولية محمد بزواجه من خديجة،يقول:«إن كان للوصولية موضع فى حياة خديجة،فلن يكون لها موضع وقد ماتت،فإذا به يحزن عليها حزنا شديدا،وإذا حزنه يطول ويشتد فى حين اشتد عليه اضطهاد القرشيين وإيذائهم لشخصه،وقد زاد من جرأتهم عليه موت عمه أبى طالب فى تلك السنة أيضا،وأدرك المؤمنون القلائل فى ذلك الحين أن نبيهم فى حاجة ماسة إلى من يؤنس وحشته ويخفف عليه أعباء الجهاد ومتاعب الاضطهاد،وأن طفلته الصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى عناية الأمهات،وندب المؤمنون لمفاتحته فى ذلك خولة بنت حكيم،فتلطفت فى ذلك،ثم عرضت عليه أن يتزوج.

وحتى يبعد نظمى لوقا شبح الشهوانية عن الرسول،فإنه يسأل عمن تزوجها من يدعون أنه شهوانى وصولى؟

وتأتى الإجابة:«سودة بنت زمعة امرأة متقدمة فى السن ليس لها جمال خديجة،ولا مالها على الإطلاق،ولا جاه،حظها من الذكاء غير كبير،وإنما هى أرملة بدينة طيبة القلب لها مشية كان زوجها العظيم يضحك منها،وكانت فيها دعابة وليس للرجال فيها مأرب».

وهنا يظهر سؤال آخر،وهو لماذا تزوجها محمد إذن؟

وتأتى الإجابة مرة أخرى:«لأن زوجها كان من أصحابه القلائل الأولين،وهاجر بها إلى الحبشة فيمن هاجر،وقيل : مات هناك،وقيل : عاد من المهجر معها فمات وبقيت سودة أرملة منقطعة،وقد بت إسلامها ما بينها وبين

أهلها،ويخشى أن يردوها عن الإسلام وقد عادت إلى بيت أبيها،وليس لها ما تعيش منه ولا صنعة بيدها،وما كان أحرى ذلك الوارث أن يعوض ما فات عليه فى ربع قرن من اللذات،لو أنه كان الرجل الذى يزعمون.

ويختم نظمى لوقا دفاعه عن الرسول قائلا:«فمن ذا الذى يصانعه محمد،وهو يفى لخديجة هذا الوفاء الجميل،الذى يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج،أتراه كان يصانع التى ماتت ليغضب التى يعيش معها ويحبها؟ما القول فى هذا الوفاء المعجز،والدنيا حافلة من حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد.

فليقل من شاء ما شاء،ولكن لا حيلة فى نسبة محمد إلى الوفاء غاية الوفاء،إلى وفاء يجعلنى أشك فى بشريته،وعجبى من عقول آدمية تنسب أبا القاسم للمصانعة،حيث يضرب المثل المذهل المعجز للأريحية والوفاء الذى لا يبارى،وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد.

(٥)

ويبدأ نظمى لوقا بعد ذلك فى تفصيل عدد من حكايات زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من زوجاته،لقد فرغ من حكاية الرسول مع السيدة خديجة،ويسأل:«والآن ما خبر زوجاته التسع؟ما خبر ذلك العدد الذى سجله التاريخ بحذافيره وتفاصيل ظروفه،واتخذه المفتاتون للمغالطة والتجريح،فنسبوه إلى الشهوة والجموح؟».

وتأتى الإجابة:«نبدأ ونقول : أنهن كن تسعا جمع بينهن فى وقت واحد،ولكن مجموع من تزوج بهن بعد خديجة كان عشرا،ماتت إحداهن ولم تلبث فى بيته إلا أسابيع معدودة،وهى زينب بنت خزيمة التى لقبت بأم المساكين لشدة حبها للفقراء

وعطفها عليهم وبرها بهم».

ويميل نظمى إلى توضيح منهجه،فهو يتعرض للزوجات العشر ليتعرف على ظروف زواج محمد بهن،وليرى من خلال ذلك دوافع زواجه بكل واحدة منهن عناصر الشهوة التى يقولون فيها ويعيدون.

والبداية مع السيدة سودة بنت زمعة.

يقول نظمى لوقا:«هى كما أشرنا أرملة عجوز مات عنها زوجها،وكان من أوائل المصدقين برسالة محمد،فلما اشتد اضطهاد القرشيين له وأمثاله هاجر فيمن هاجر بأهله إلى الحبشة،حيث نزلوا فى رحال النجاشى أمدا،عسى أن يبدل الله العسر يسرا،وتزول عماية الكفر عن أهل مكة فيعودوا إليها آمنين.

ولما طال المكث على السكران بن عمر العامرى زوج السيدة سودة ظن أن الأمور قد تحولت إلى جانب المسلمين،وعاد بها إلى أرض العرب،ومات السكران عقيب وصوله وترك زوجته مهيضة الجناح،معرضة لنكال أبيها الذى كان على الشرك،فإن تركت تحت سلطانه لم يؤمن على دينها منه،وهى لا سند لها ولا عائل ولا صناعة.

كان الموقف عصيبا،فالمسلمون والمسلمات فى ذلك العهد قليل عددهم فى قريش غاية القلة،والتنكيل بهم على أشده بعد أن مات أبو طالب عم الرسول،حتى اجترأ المجترئون على إيذائه إيذاء بدنيا عنيفا،بعد أن كان جل إيذائهم من قبل باللسان والإشارة،وإذا كان هذا هو حال الرسول فكيف يكون حال من دون من أتباعه؟ثم كيف يكون حال امرأة فقدت زوجها ولا نصير لها.

محنة اهتزت لها قلوب المؤمنين وشغلت بالهم،وكان التكافل هو الواجب الأول والخاطر فى كل ذهن: من الواجب أن يضم كل رجل مسلم مثل هذه الأرملة المهددة فى دينها،المطعون فى طمأنينتها،المستوحشة بفقدان عشيرتها،والتعدد ليس سنة مستحدثة فى

العرب،بل ذلك حالهم منذ قديم،وأولى الناس بضم مثلها من لا زوجة له.

والرسول يومئذ بغير زوجة،فإذا تعرضت المؤمنة خولة بنت حكيم لمفاتحته فى الزواج ليجد الرعاية والراحة،ولتجد طفلته اليتيمة فاطمة الرعاية والخدمة،نراها تقترح عليه الزواج بتلك الأرملة العجوز الكسيرة الفؤاد المعرضة للفتنة عن دينها أو الإيذاء بسببها،وكأنما كانت خولة تذكر له واجبا مفروغا منه،فما ينبغى أن يتزوج مسلم،وما أقل عدد المسلمين يؤمئذ،تاركا سودة لمحنتها،متخطيا إياها فتزداد شماتة الكفار بها،فهل كان محمد إذ ارتضى الزواج الرجل الذى يتخلى عن هذه المسكينة فيعرضها للقهر والشماتة.

معاذ النخوة....ليتزوجها إذن،لتكون مدبرة لبيته ومربية لابنته،لا لتكون متعة حس ولذة مضجع،تزوجها لتكون فى كنفه،وتنعم بظله وعطفه،ولتجد فى الزواج منه شرفا وعزاء وعاصما من النكال والردة،ولتحل بين أبناء دينها الجديد أرفع مكانة تصبو إليها المرأة المسلمة مكانة أم المؤمنين.

وبعد سنوات قلائل أحست سودة أنها عبء على كرم زوجها وبره،فاستأذنته أن تظل فى بيته وتعفيه من حقوق الزوجية،فهى على حد قولها:والله ما بى على الأزواج من حرص،ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك.

وبقيت هناك تصلى وتصوم وتتصدق (زوجة شرف) لا أكثر،وما كانت تصلح من الزواج إلا لهذا،وما صلحت لهذا إلا لنخوة ذلك الرجل الذى ينسبه أولاد الحلال لجموح الشهوة».

(٦)

ومن سودة بنت زمعة إلى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب،يقول عنها نظمى:«كانت زوجة لخنيس بن حذافة من بنى سهم،وهو أحد المسلمين القلة الذين

شهدوا بدرا وانتصروا على أضعاف عددهم من أهل الكفر،وبعد قليل من تلك المزقعة مات خنيس بن حذافة وترك بعده الأرملة الشابة وسنها لم يتجاوز الثامنة عشره.

لم يجد والدها عمر بن الخطاب أنه من العدل أن تظل ابنته الشابة من غير زوج يصونها ويذهب عنها لوعة الترمل،وذله،وهو يعلم أن المراة حيية لا تطلب لنفسها،ولا تفصح عن دفين حالها،وذلك أدعى إلى إلقاء الإحساس بمسئوليته عنها على عاتقه.

والمسلمون فى دار الهجرة قلة بين العرب،شبيه حالهم بما كانوا عليه فى قريش قبل الهجرة من قلة العدد وضيق الحال،بل إن الحال زاد اليوم عنصرا جديدا،هو عنصر موت الرجال وتساقطهم فى الغزوات،فيتجه عدد الذكور إلى القلة ويتجه عدد الإناث المترملات إلى الكثرة،ونشأت عن ذلك حالة اجتماعية جديدة،أوحت بحل ليس أيسر منه ولا أقرب إلى البداهة فى بيئة قامت منذ قديم الأزل على تعدد الزوجات،أن يحمل كل أخ فى الإسلام عن أخ له أو ند شئيا من أعباء تركته،فيصون زوجته من الترمل والوحشة،ويعصمها من الفتنة أو المذلة،ويدفع عنها الحاجة لا بصدقة تأباها أو تهدر قدرها،بل بزواج يقيم ظهرها ويرفع رأسها،كى تدرك كل مسلمة أن المجاهد فى سبيل الدين لن تكون عاقبته الخذلان والخسران وزوال الستر عن كل ذات خدر،وذلك أدعى لاندمال الجرح والإحساس بالتكافل فى العسر.

بهذا الإحساس ذهب عمر بن الخطاب والد الأرملة الشابة ينشد لها زوجا،وكان طبيعيا أن ينشد لها زوجا يحمل زواجه بها معنى التعزية والتكريم وحسن العوض عن زوجها الراحل،ونظر فلم يجد بين المسلمين من هو أكرم وأبرز من صديقه أبى بكر الصديق،ولم تكن مسألة السن عند العرب ذات بال،فلم يرده عن ذلك الخاطر

أن أبا بكر أكبر منه سنا،وذهب إليه يعرض عليه الزواج من ابنته،ولم يجبه أبو بكر فتركه مر ساخطا غاضبا.

اتجه عمر إلى الشيخ الجليل الوقور عثمان بن عفان الذى كان متزوجا من السيدة رقية بنت محمد ثم ماتت عنده،وبقى محزونًا عليها لا يتزوج،لكن عثمان قال له:ما أريد أن أتزوج اليوم.

ويسأل نظمى لوقا:ولكن كيف كانت حفصة؟

ويجيب:«لم يذكر التاريخ عنها أنها كانت ذات حسن باهر أو جمال آسر،ولا نعتقد أن أباها كان يجشم نفسه كل هذا العناء – وهو من هو كرامة واعتدادا بنفسه – أو أنها كانت ذات ملاحة ظاهرة».

ذهب عمر إلى الرسول والغضب يكاد يذهب بلبه،فتلقاه وهو أعلم الناس بحدة طبعه واستوضحه ما يعانيه من الكرب،فذكر له ما فعل صاحباه،وكيف رداه ذلك الرد وقد نشد لديهما النخوة والأخوة،ومن ذا يجامل عمر إن لم يجامله فى ابنته أبو بكر وعثمان بن عفان؟من ذا يقبلها إذا اعتذر عن ذلك أو ضاق به هذان؟

وأدرك الإنسان الكبير القلب ما يعانيه صاحبه الكبير من الألم والمضاضة، وتصرف بوحى من كياسته ونخوته فقال له مواسيا:يتزوج حفصة من هو خير من عثمان...ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

فطن عمر إلى المعنى الوحيد الذى يستفاد من أن حفصة سيتزوجها من هو خير من عثمان،إذن سيكون هو الزوج،وسيسوى الرسول فى المصاهرة بين صاحبيه الكبيرين أبى بكر وعمر،ومرة أخرى دخلت البيت الكبير زوجة لم تضمها إلى محمد عرامة الشهوة بل نبالة النخوة،وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر قول أبيها لها ذات يوم:والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك.

(٧)

وينتقل نظمى لوقا بعد ذلك إلى السيدة أم سلمة بنت ذات الركب،يقول:«هى مجاهدة من المجاهدات الأوليات فى الإسلام،امتحنت فى دينها أشق امتحان تبلى به امرأة،فصمدت وانتصرت،وصار لها حق عظيم فى رقاب المسلمين،وعقيلة عزيزة الجانب،رفيعة النسب،أبوها هو أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقب بزاد الركب،وكان ممن يضرب بهم العرب المثل فى الجود؛لأنه إذا سافر لا يسمح لأحد أن يصحبه ومعه زاد،بل يكفى رفاقه جميعا زاد سفرهم مهما طال».

ترملت أم سلمة،مات عنها زوجها شهيدا أو هو فى حكم الشهيد،بعد بلاء حسن فى نشر الدين الجديد والذود عنه،وبعد انتصار كبير كان له أثر واضح فى تثبيت سمعة الإسلام فى نفوس قبائل العرب جميعا وحفظ هيبة الدولة الناشئة بالمدينة من الإنهيار.

هذا الزوج هو أبو سلمة،عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة،الفارس الصحابى المغوار،وابن عمة الرسول،وأخوه فى الرضاعة،وكان الزوجان من أوائل المؤمنين المصدقين بالرسول وما أنزل إليه،وعندما هاجر المسلمون الأولون إلى الحبشة فرارا بدينهم من عنت الأهل والعشيرة فى مكه كانا أول المهاجرين،وفى مهجرهما ببلاد الحبشة،ولدت هند ابنها سلمة الذى عرفت به وكنى به أبوه عبد الله.

عاد المهاجرون فيمن عاد إلى مكه على أمل انتهاء الأزمة،فإذا النكال أدهى وأشد،فلم يطق كثيرون من المسلمين البقاء،وفكروا فى مهجر جديد،وكان الصفوة السابقون من أهل يثرب قد اعتنقوا الإسلام،فكان طبيعيا أن يفكر هؤلاء القرشيون المغلوبون على أمرهم فى الهجرة إلى يثرب.

كان أبو سلمة بن عبد الأسد أول من هاجر إلى يثرب من قريش،ولكن هذه

الهجرة كانت اجتراء على سلطان قريش خشيت عواقبه فراحت تحول دونه ما استطاعت،فابتليت أم سلمة فى ذلك السبيل بلاء شديدا.

ويقول ابن هشام فى سيرته على لسان أم سلمة:«لما جمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحل لى بعيرى ثم حملنى وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى،ثم خرج بى يقود بى بعيره،فلما رأته رجال بنى المغيرة(عشيرة أم سلمة قاموا إليه فقالوا:هذه نفسك غلبتنا عليها،أرأيت صاحبتك هذه؟علام نتركك تسير بها فى البلاد؟،فنزعوا خطام البعير من يده،فأخذونى فيه،وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد (عشيرة زوجها أبى سلمة) فقالوا:لا والله..لا نترك ابنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا،فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده،وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسنى بنو المغيرة (عشيرتها) عندهم».

وتكمل أم سلمة ما جرى معها:«انطلق زوجى إلى المدينة،ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى،فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبا منها،حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة فرأى ما بى فرحمنى،فقال لبنى المغيرة:ألا تخرجون هذه المسكينة،فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها،فقالوا لى:الحق بزوجك إن شئت».

وتتوالى فصول المأساة :«رد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى،ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ،وما معى أحد من خلق الله،والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة».

كان هذا جانب من جهاد هند بنت ذات الركب،العقيلة بنت الأمجاد الأجاويد،وما تحملته من الهم والإيذاء،وما صبرت عليه من آلام أصابت أمومتها وأصابت أنوثتها،فكانت مثال الوفاء والتجلد والشجاعة والإقدام،وسجل لها

تاريخ الجهاد أنها كانت أول مسلمة هاجرت إلى الحبشة،وأول مسلمة هاجرت إلى المدينة،وكذلك كان زوجها أول صحابي هاجر إلى المدينة،فهل مثل هذه المجاهدة الصابرة تترك لذل الترمل حين يموت عنها زوجها البطل،التي كانت منه في خير ظل؟.

لكن كيف ترملت أم سلمة؟...لقد كان زوجها أحد القلة المنصورة في بدر،وأحد القلة الثابتة الصابرة في أحد،وفي أحد أبلى في النضح عن ابن خاله الرسول حتى أصيب بجرح غائر،وبعد شهرين من أحد بدأت القبائل تتواثب مجترئة على المسلمين،وعلم الرسول أن بني أسد في مقدمة المتأهبين للهجوم ففكر في تلقينهم درسا حتى لا يجترئ سواهم،وخير وسائل الدفاع المبادأة بالهجوم.

عقد الرسول لابن عمته أبي سلمة لواء تلك البعثة الفدائية التي كان عدتها مائة وخمسين مقاتلا،فيهم نفر من أعظم الفرسان وأكرم الصحابة،من طراز أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص،وانتصر أبو سلمة ولكن ثمن النصر كان باهظا،أداه من حياته؛لأن جرحه القديم في أحد انتكأ فعاد إلى يثرب ليلزم فراشه حتى مات،مات على صدر ابن خاله الرسول،سجاه بيديه،وقد نال منه الحزن على فقده،فظل يكبر عليه حتى بلغ عدد التكبيرات تسعا،لشدة ما يجده لفراقه والأسى عليه.

وكان لابد من المواساة بالنفس،ألا يتزوج الشقيق أرملة شقيقه ليصونها ويكون بنو أخيه الراحل تحت جناحه فيعفيهم من اليتم والتأيم؟،ولم يتردد الصاحبان العظيمان أبو بكر وعمر في القيام بحق النجدة والأخوة،بعث كل منهما إلى هند أم سلمة بنت زاد الركب يعرض عليها الزواج بعد انقضاء عدتها ليكون لها مكان عزيز في بيت عزيز،وأبت أم سلمة.

عندئذ رأى الرسول القائد أن يمد يده إلى أرملة أخيه فى الرضاع وابن عمته المهاجر الفارس الشجاع مواسيا بنفسه،يطلب إليه يدها،مواساة يجللها الأسى على راحل عزيز،وخجلت الأرملة المجاهدة الشجاعة،وبعثت تعتذر بكبر سنها وكثرة عيالها،وفى لهجة الإ ار على المواساة والبر بعث يقول لها:أما أنك مسنة فأنا أكبر منك،وأما العيال فإلى الله ورسوله.

ويتساءل نظمى لوقا:«أفى مثل هذا الزواج الذى أملته دوافع الأسى والنخوة يجترئ الآفكون على جلال ذلك الحزن النبيل فيذكرون لفظ الشهوة؟،أى جرأة وهذا الزوج العظيم لا يدخل بيت الزوجة الباسلة إلا وسألها عن صغيرتها بنت الراحل العزيز بصيغة التدليل:أين زناب؟..يعنى صغيرتها زينب بنت أبى سلمة.

(٨)

الآن يصل نظمى لوقا إلى السيدة جويرية بنت الحارث سيدة بنى المصطلق.

يقول نظمى لوقا:«كان قد مضى على الهجرة إلى المدينة وقيام تلك الفئة المطاردة الملتمسة للأمن والنجاة خمسة أعوام،وبدأت السنة السادسة،وجاءت المخابرات الدقيقة التى أنشأها محمد بعبقريته وإلهامه تبلغه أن حيا من خزاعة وهم بنو المصطلق يتأهبون للهجوم على المدينة بزعامة شيخهم الحارث بن أبى ضرار،وعلى سنته فى المبادرة بالهجوم على عدوه قبل أن يبدأه بالهجوم وقد تم استعداده،انطلق كالصقر بجيشه فانقض على بنى المصطلق عند ماء المريسيع،وحمى الوطيس إلى أن انتهى بهزيمة بنى المصطلق هزيمة منكرة،وسبقت نساؤهم سبايا ومنهن ابنة زعيمهم جويرية بنت الحارث».

عاد الجيش الظافر إلى المدينة،وقد وزعت السبايا على المحاربين،فكانت بنت قائد بنى المصطلق من نصيب أحدهم،عرض عليها الرجل أن يكاتبها،أى تجمع له

فديتها فيطلق سراحها فتعود إلى أهلها،وخرجت بنت العز والشرف والجاه،بنت القائد المهزوم هائمة فى شوارع المدينة لا تدرى كيف تحصل على فديته من الرق،وخطر لها أن تستثير نخوة القائد المنتصر،فوقفت ببابه وهو يومئذ فى حجرة عائشة بنت أبى بكر،واستأذنت عليه،ودخلت فى كبرياء متداعية وإباء مترنح تعرض عليه أساها وكربها.

قالت السيدة جويرية:«يا رسول الله..أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه،وقد أصابنى من البلاء ما تعلم فوقعت فى السهم لثابت بن قيس،فكاتبته على نفسى..فجئتك أستعينك على أمرى».

ما كان أشد وقع هذه الكلمات – كما يقول نظمى – على فارس ذى مروءة،ابنة عدوه المهزوم تستعينه ليقيل عثرتها،وهو الذى هزم أباها وسبب ذلها ووقوعها فى السبى،تمد يدها إليه ليأسو جرحها وسيفه هو الذى سدد الضربة،ولينقذها من العار الذى أنزلته بها شريعة الحرب التى ويل للمغلوب فيها من الغالب.

قرر الرسول أن يجمع بين الحسنيين فى عمل واحد فذ،كسب به قلوبا جديدة وشعبا جديدا،وأعلن لأشتات القبائل أن محمدا أكرم الناس وهو منتصر،وأن الولاء له والدخول فى دينه وطاعته أكرم لهم من مناجزة من كان على خلقه النبيل،عداء لا طائل تحته.

قال محمد للأسيرة:فهل لك فى خير من ذلك؟،فسألته متعجبة لهفانة:وما هو يا رسول الله؟فقال لها فى ترفق واضح:أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

لفتة بارعة عبقرية تجمع بين نبل الفروسية والإلهام السديد،فهو لا يرفع عنها ذل الرق والأسر فحسب،بل يرد إليها عزتها أعز مما كانت عليه قبل السبى،يرفعها من الأسر إلى مقام زوجة القائد المظفر،ويرفعها من الكفر إلى مقام أم المؤمنين،ويجعل

بينه وبين أهلها المهزومين نسبا وصهرا فيغسل الثأر،ويحول الهزيمة والعداء إلى ألفة وولاء.

كان طبيعيا أن تقبل الأسيرة ذلك الشرف الذى فتح لها الرسول أبوابه،وعندما عرف سائر الصحابة أمر زواج الرسول من السيدة جويرية،حتى أخذ كل منهم يطلق سراح من عنده من أسراهم وسباياهم أحرارا لوجه الله،وهم يهتفون: أصهار رسول الله،وهكذا أعتق بزواجها أهل مائة بيت فيها يقال من بيوت قومها،واهتز أبوها لذلك النبل الذى أسر به محمد قلبه وقلب سائر بنى المصطلق،فأسلم وأسلموا،وفعل هذا الزواج ما لم يفعله السيف فى سلسلة من المعارك.

ويسأل نظمى:«فأين هذه الكياسة الملهمة من الشهوة المزعومة؟،لقد كان بيده أن يجعلها من نصيبه من السبايا،وكان بيده وقدرته أن يجعلها فى ملك يمينه بشرائها من قيس بن ثابت،ولكن المسألة أكبر وأجل من فتاة راقت لرجل فتمناها؛لأن المسألة كانت مسألة فتح مبين،وتألف قلوب،وانتشار دين،ثم هى فضلا عن هذا مسألة نخوة لا نزوة.

(٩)

ومن السيدة جويرية إلى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب عقيلة بنى النضير،يقول نظمى لوقا عنها:«بنت ملك وزوجة ملك،ينتهى نسبها العريق إلى هارون أخى موسى،وزوجها أحد ملوك خيبر،كنانة بن الربيع صاحب حصن القموص أمتع حصون اليهود،وعنده كنزهم الأكبر،وبشريعة الحرب التى لا ترحم،سقط صناديد خيبر صرعى بعد أن سقطت قلاعهم،وسقطت نساؤهم سبايا بين الغالبين.

ومن بين السبايا العقيلة التى أعزها نسب رفيع ومكان منيع زال ملكها،

وضاعت حريتها، وفتى آلها أجمعون، من الزواج إلى الشقيق إلى بني العمومة الأقربين، وانتهت في ساعة من الزمن،إلى ذلك الأسر المهين.

فماذا فعل الفارس القائد النخوة من قبل في عقيلة بني المصطلق؟

لم يترك عزيزة القوم تقع في نصيب أحد أتباعه ليبيعها أو يضطرها إلى استجداء ما تستعين به على فك أسرها ورفع رقها،ليحسم الأمر من بدايته وليجعلها في سهمه هو،فلابد على كل حال من خمس الغنائم للقائد الرسول بعد كل معركة،فلتكن صفية إن من ذلك الخمس المقسوم.

كان بيده أن يجعلها أمة من إمائه لو أنه كان ينظر إلى متعة،ولكنه حررها،وتزوجها لتكون لها عزة بعد ذلة،وهو الذى طالما أكرم عزي قوم ذل،ولكي يعلم من لم يعلم بعد أن محمدا يجبر القلوب الكسيرة،ويعفو عند المقدرة،ويأسو ما جرحه مضطرا.

ويذكر التاريخ لصفية جمالا معروفا في بنات إسرائيل،ولكن الجمال لم يكن هو الدافع إلى ذلك الزواج،وما نظن إلا أن سواها من السبايا كن في مثل جمالها أو يقاربنه،وهن بنات عمومتها وخئولتها اليهوديات،فما باله لم يدخل في حريمه بملك اليمين زهرات مونقة من ذلك الحسن المباح بشريعة الحرب لكل محارب منتصر؟».

ويذهب نظمى لوقا إلى أن ظروف صفية التى سقط في الميدان أبوها وزوجها وأخوها وكانت السيدة الأولى في تلك الدولة المنهارة،هى التى أثارت نخوة الفارس القائد الرسول،ولم تكن الشهوة هى التى حركته إلى ذلك الزواج،جبر خاطر كسير،هذا هو الباعث الخفى على هذا الزواج،وهذا شأن من تحركه النخوة لا النزوة.ولكنه ضلال القوم وإفكهم،ومنطق الأكذوبة الذى لا يستحى.

***

(١٠)

الزوجة القادمة هى أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان،التى لم تقف بباب الرسول تستحث نجدته وأريحيته،ولم تعرض عليه بين السبايا وقد زال عنها الأب أو الزوج أو الأخ،لكنها كانت فى موقف أشد من هذا وأنكد.

يقول نظمى:«قبل بعثة الرسول كانت رملة بنت أبى سفيان متزوجة من عبيد الله بن جحش الأسدى،ابن عمة الرسول،وآمن عبيد الله بما أنزل على ابن خاله فأعلن إسلامه،وأعلنت رملة إسلامها،ولم يمنعها من ذلك أن أباها زعيم قريش المشركة المنافحة عن الكفر المجاهدة للرسول وأصحابه،وكان فى وسعها أن تلحق بأبيها موفورة الكرامة آمنة ناجية لولا أن الإيمان الجديد دخل قلبها،ووطنت النفس على تحمل قسطها من الاضطهاد، وهو قسط قد يزيد بحكم القرابة الوشيجة على قسط سائر المسلمات.

لكن باب الهجرة إلى الحبشة أتاح لها فرارا من ذلك الأذى،ولنا أن نتصور مداه وهذه عقيلة بنت أمية تضطر إلى ركوب ظهر البعير ثم متن السفن،وهى حبلى متوجعة من حملها الأول،كى تفلت من يد أب متكبر حانق كان أحب إليها أن يوسدها الثرى من أن تطوف البلاد مهاجرة لتعرضه لسخرية الساخرين من ضعف سلطانه على بنية من صلبه،وما كادت رملة تصل إلى أرض النجاشى،وتطمئن كما اطمأن سائر المهاجرين المسلمين إلى حمايته ورعايته،حتى وضعت بنتها حبيبة التى عرفت فى التاريخ من بعد باسمها.

وفى الحبشة تخلى عنها زوجها،ثم تخلى عنها لأنه تخلى عن العقيدة التى بسببها حدث ذلك كله،ومن أجلها انقطع ما بينها وبين أبيها وقومها العتاة الأمجاد،كانت صدمة قاسية لرملة أم حبيبة،وهذا وفد قريش جاء النجاشى يحرضه على المسلمين اللاجئين ويتسقط أخبارهم ليعود بها إلى قريش الحانقة المتربصة.

لم تجسر رملة على العودة إلى مكة،فقد ورثت عن أجدادها الكبرياء والأنفة من الشماتة،لن تعود لتجرر بين أهلها الشامتين ذيول الخيبة والمهانة،ستبقى حيث هى إلى أن يقضى الله أمرا،وجاءت الأخبار إلى محمد،جاءته وهو صاحب النخوة،وتمثل كرب أم حبيبة فى ديار الغربة،فأقدم على العمل الوحيد الذى ينتظر منه،مد يده عبر الفيافى والبحر إلى العقيلة المخذولة ليبدلها من زوجها المتخلى عنها خيرا منه،خير زوج تطمع فيه عقيلة تدين بالإسلام،ليبدلها من الشماتة زهوا ومن الخذلان تيها.

بعث إليها يخطبها لنفسه،ووكل النجاشى فى تزويجها منه،وفى أرض المهجر التى شهدت خذلانها الموجع،أصبحت أم حبيبة زوجة للرسول عن طريق ذلك التوكيل،وتطوع النجاشى النصرانى فدفع إليها أربعمائة دينار مهرا هدية خالصة منه وغمرها بمظاهر التكريم هى وسائر المسلمين اللاجئين إليه.

بقيت أم حبيبة فى الحبشة حينا من الدهر،إلى أن تثبت أقدام الدولة الإسلامية فى المدينة،وأرسل النبى يطلب بقية أتباعه المهاجرين من أرض النجاشى،وعدتهم ستة عشر رجلا ومعهم النساء والأطفال،على رأسهم ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب،ورملة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى أمست أم المؤمنين،وهى فى بلاد الغربة قبل أن تقع عين زوجها عليها بأمد بعيد.

ما أشد وقع ذلك الزواج على معسكر الكفر كله،أكانت أم حبيبة معرضة للشماتة بتخلى زوجها عنها وعن الدين الجديد فى أرض الهجرة البعيد؟أكان الدين الجديد عرضة للشماتة بهذا الارتداد؟لقد انقلب الموقف بهذا الزواج إلى النقيض،فهذه بنت زعيم قريش وقائد معسكر الكفر كله تغدو زوجة لمحمد،وانقلبت السخرية بين أحياء العرب لتركب ظهر أبى سفيان،وفى لك الموقف العصيب على أبى سفيان أطلق كلمته المشهورى:هذا الفحل لا يجدع أنفه.

كان الرسول يعلم تمام العلم أن السخرية أمضى سلاح فى معارك السياسة والرأى والعقيدة،فقلب الأمر على أبى سفيان،وجعله مطية للسخرية،وقد احتفلت المدينة كلها بعرس أم حبيبة كى يتحدث العرب بذلك النصر السياسى المعنوى الذى يفوق النصر فى سلسلة معارك تسيل فيها الدماء،ولم تخل سريرة أبى سفيان مع هذا من حمد خفى لذلك الفحل ذى الأريحية والنخوة،فالتى رفع قدرها وأعلى ذكرها هى ابنته على كل حال،وبذلك بذرت بذرة تؤلف قلب أبى سفيان وعشيرته،عسى أن تنبت هذه البذرة وتوتي ثمارها بعد حين.

ويلخص نظمى لوقا ما حدث مع أم حبيبة يقول:«زواج نخوة وزواج كياسة وزواج حماية لسمعة الدعوة،زواج تم على بياض فى أرض بعيدة،ولا أحد يدرى هل يكتب للغائبة العودة مع سائر الغائبين،أم يكون اللقاء فى رحاب الله يوم يبعثون،زواج يمكن أن يقال فى بواعثه أى شئ،إلا أنه زواج شهوة أو قضاء نزوة،زواج أضفى على محمد كل إكبار وإجلال،بعد أن كان معرضا للسخرية لما فعله ابن عمته من الارتداد،وكان أكبر الإجلال ما شعرت به هذه الزوجة العريقة الأبية.

(١١)

المرأة هذه المرة هى ميمونة بنت الحارث التى كانت آخر نساء محمد صلى الله عليه وسلم،يقول عنها نظمى لوقا:«كان العام عام عمرة القضاء،دخل المسلمون مكة مسالمين بعد صلح الحديبية ليؤدوا فريضة الحج لأول مرة منذ الهجرة إلى المدينة،وخلت مكة بمقتضى ذلك الصلح من أهلها المشركين،وكان ذلك الحج أكبر مظهر سلمى رائع استعرض فيه المسلمون قوتهم وكثرتهم،وبدا فيه فجر النصر الكامل قريبا،واهتزت شعاب مكة وبيوتها بهتاف المسلمين وتلبيتهم كالرعد القاصف».

وسط هذه الأجواء إذا بعقيلة من عقيلات العرب المعدودات،شقيق زوجة العباس عم محمد،وشقيقة زوجة حمزة ابن عم محمد،ترى ذلك المنظر الباهر فتهزها الحماسة والأريحية وتصيح وهى تشهد ذلك اليوم على بعيرها:البعير وما عليه لله والرسول.

أفضت بذلك إلى العباس زوج أختها فرفع الأمر إلى ابن أخيه فلم يرد هبتها وتزوجها وهى يؤمئذ أرملة دون الثلاثين،وما كان له أن يردها فيكون ذلك خذلانا لمن جادت له بنفسها،تحت وطأة الحماسة لدخوله معقل الشرك وطوافه ببيت إسماعيل،وفى الزواج بها تحت ضوء تلك الظروف تسجيل لروعة تلك العمرة وتسجيل لما ألهبت به القلوب من حماسة وإجلال.

أراد الرسول أن يجعل ذلك التسجيل أبهى وأوقع،فعرض على الكفار أن يتم العرس فى مكة ليولم لأهلها وليمة يشهدها الجميع من مسلمين ومشركين،وفى ذلك ما فيه من كبت قريش ولكنهم أبوا عليه،وفى الطريق إلى المدينة أقام محمد العرس،ليكون بمشهد من أحياء العرب فى المعسكر المكشوف،تسجيل نصر وتسجيل حماسة وفخر.

كان ذلك هو زواجه من ميمونة بنت الحارث التى صبت إلى الزواج منه رغبة فى شرف أمومة المؤمنين،فلم يخيب لها رجاء ليس من البر والحكمة أن يخيبه لعقيلة كريمة ذات صهر قديم.

(١٢)

فى ناصل بين هؤلاء الزوجات وبين زوجتين هما السيدة زينب بنت جحش والسيدة عائشة رضى الله عنهما لأن لهما وضع خاص،يذهب نظمى لوقا إلى أن هؤلاء زوجاته اللواتى بنى بهن وجمع بينهن،لم تكن واحدة منهن هدف اشتهاء كما

يزعمون،وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل فى باب الرحمة وإقالة العثار والمؤاساة الكريمة،أو لكهب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة وهى بعد حديثة عهد بالدين الجديد.

يقول نظمى:«هى ضريبة واجب إذن أو ضريبة مكانة وزعامة،وأخال لو كان له إخوة لزوجهم على ذلك المنوال ليحملوا عنه بعض تلك الأعباء،وما كان من الهين على رسول قائد جيش وحاكم دولة محاربة أن يزيد أعباءه بما يكون فى بيت كثير النساء من خلافات على صغائر الأمور،ولكنه الواجب،واجب الدعوة أو واجب النخوة،وشتان بين ذلك وما يتشدقون به من أمارة النزوة.

واجب باهظ التكاليف من أعصابه وذهنه،واجب أقدم البعض على استغلاله استغلالاً منكرا،فرأينا من يعضلها أن تجد زوجا لا ترعى الحشمة وتذهب إلى الرسول تعرض عليه نفسها متطاولة إلى شرف أمومة المؤمنين،وهى غير أهل لذلك الشرف بمحتد أو فضل أو سابقة جهاد،ويسكت محرجا لا يريد أن يجرح كرامة تلك المجترئة عسى أن تنصرف عنه،وهو يعلم أن قبوله الزواج من مثلها سيفتح عليه بابا لا قبل له به،ولولا أن أحد أصحابه جعل نفسه فداء للرسول من ذلك الزواج بالهبة لأوذى فى حياته بإحدى خطتين:إما التورط فى القبول أو المجاهرة بالرفض الصريح.

أنتذه القرآن بعد ذلك من مثل التورط الفادح،فحرم عليه بصريح النص فى سورة الأحزاب أن يتزوج النساء من بعد أو أن يبدل بهن أزواجا أخريات،ولعل فى ذلك ما ينتهى به الجدل فى أمر سبغ من أولئك الزوجات.

(١٣)

يصل نظمى لوقا إلى أحد الأزمات الكبرى فى حياة الرسول الخاصة،وهى

الأزمة التى حدثت على هامش زواجه من السيدة زينب بنت جحش،يقول:هذه زوجة كثر فى زواج محمد بها اللغط،وعلت للمغرضين ضجة كبرى تولى كبرها مستشرقون كثيرون،وتبعهم من السوقة أقوام وأقوام،وكان سندهم فيها كالعهد بمنطق الأكذوبة أساسا تاريخيا أقاموا عليه صرح المغالطة:تزوج محمد ابنة عمته زينب بنت جحش».

حقيقة تاريخية ثابتة ليست موضع جدل،وكانت زينب بنت جحش زوجة زيد ابن حارثة ثم طلقها بعد خلاف بينهما وجفوة،وهذه حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل،وزيد بن حارثة كان ابنا بالتبنى لمحمد منذ الجاهلية وهو الذى زوجه ابنة عمته هذه،وهذه أيضا حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل.

ولكن القصة التى ركبوها تركيبا من هذه العناصر الثلاثة قصة عجيبة حقا فى ألوانها البراقة واستهوائها للعقول الساذجة والنيات الخبيثة،والقصة التى يلكونها أن زينب كانت وضئية الحسن،وهى حقيقة لا تنكر،وأن الرسول آثر بها زيدا،ثم حدث أن رآها ذات يوم وقد ذهب ينشد زيدا فى داره،فقيل : خرجت تستقبله وترحب به عندما سمعت صوته ينادى زيدا من خارج الدار،وكان خروجها على غير أهبة كاملة فى الزى،فوقعت من قلبه موقعا حسنا.

وفى رواية أخرى من روايات الطبرى : أنه عند وقوف الرسول بباب زيد عبث الهواء بستر من الشعر مسدل على حجرة زينب،فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة،فوقع إعجابها فى قلب الرسول،ونهضت زينب تدعوه للدخول كالعادة المتبعة فى المجاملة،فأبى وولى وهو يهمهم بكلمات لم تميز منها زينب سوى قوله:سبحان الله العظيم،سبحان مصرف القلوب،فلما حضر زيد روت له زينب ما كان من حضوره وما سمعته من كلامه وهو منصرف،فذهب زيد إلى الرسول

وعرض عليه أن يفارقها.

ودار بينهما الحوار الآتى:

الرسول:أرابك منها شيء؟

زيد:لا والله يا رسول الله،ما رابنى منها شيء ولا رأيت إلا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى.

الرسول:اتق الله وأمسك عليك زوجك.

أمسك زيد زوجته ولكن تعاظمها عليه اشتد حتى نفد صبره فطلقها،ففكر الرسول فى الزواج منها ولكنه خشى ألسنة الناس؛لأن الإبن بالتبنى كان حكمه عند العرب فى الجاهلية حكم الإبن الشرعى،فكيف يتزوج الرجل مطلقة ابنه؟

وتقول القولة الغامزة المغرضة ان القرآن حل مشكلة هذه الرغبة المتقدة بآيات أحلت له زواج زينب،بل أمرته به أمرا،وجعلت من ذلك قاعدة عامة حتى لا تكون مطلقات الأبناء بالتبنى أو أراملهم محرمات بعد ذلك على أحد من المسلمين،وهم بذلك يشيرون إلى ما جاء فى سورة الأحزاب:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

وقد استغل المستشرقون ما رواه الطبرى وغيره والزمخشرى الذى قال عند تفسير هذه الآية:«أبصر الرسول زينب بعدما زوجها زيدا فوقعت فى نفسه:سبحان مقلب القلوب،وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ولو أرادها لاختطبها،فإن قلت:ما الذى أخفى فى نفسه والله مبديه؟قلت:تعلق قلبه بها وقيل:مودة مفارقة زيد إياها»

ويواصل نظمى فى النقل عن الزمخشرى الذى يقول:«فإن قلت:كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به،ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها،ولم يعصم نبيه عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟قلت:كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله؛لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع؛لأنه ليس بفعل الإنسان ولا موجود بإختياره».

ويستطرد الزمخشرى فيقول بعد قليل:«ومن هنا كان عتاب الله لرسوله،حين كتم الأمر وبالغ فى كتمه،والله لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر،والثبات فى مواطن الحق،حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحلوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا».

وينفذ نظمى لوقا إلى قلب القضية يقول:«هذه هى الروايات التى أطنب المستشرقون فى تخريجها واتخاذها دعامة لتصريحهم وتجنيهم،وأنا لا أجادل فى النصوص؛لأنها أمور فوق كل جدل،وأعنى هنا نصوص القرآن،لا نص الطبرى والزمخشرى،أجل هما إمامان جليلان،ومسلمان صادقان،ولكن القرب فى الزمان والمكان من شخصية فذة مع الحب والتقديس لها ليست ضمانا مطلقا للعصمة من الخطأ فى فهم الدوافع الحقيقية لتلك الشخصية،وأنا من الذين جربوا صدق المثل السائر:رب احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفء لهم».

ولأنه من الضرورى أن يتم تفنيد هذه الروايات،فإن نظمى لوقا يوضح منهجه فى التفنيد،فالمنهج الصحيح فى فهم أعمال كبار الرجال أن نتصورهم فى ضخامتهم وفى عناصر تكوينهم النفسى،وعلى ضوء هذا التصور نتخير من الدوافع المختلفة الممكنة للعمل الواحد فى أعمالهم ما يتفق وشخصيتهم.

وليس للقرب فى الزمن أدنى اعتبار فى هذا،فربما كان البعد أقدر على حسن الفهم وإصابة كبد الحقيقة من المعاصرين،ففى هذه المسائل النفسية يقيس المرء على نفسه غالبا،وليس المقطوع به عندى أن يكون المعاصرون للرسول،أو من هم أقرب إلى زمانه منا أشبه فى تركيبه النفسى أو أقدر على تصور ذلك التركيب والاستنباط منه والقياس عليه،فالقرب زمان أو مكانا ليس حجة على العقل.

ويقول نظمى:«وليس فى عزمى أن أفيض فى بيان المبدأ؛لأنه لو لم يكن صحيحا لكان أصح الناس نظرا وفهما هم الأقدم الأقدم،وليس ذلك كذلك،وسأمضى فى عرض عناصر هذه القضية من بدايتها الطبيعية،كى يتضح للعقل وضعها السليم».

ويأتى دفاع نظمى فى هذه القضية فى نقاط محددة،يمكن أن نجوزها فى الآتى:

أولا:من زيد؟ومن زينب؟ كان عبدا لمحمد،مكانته مكانة الولد بالتبنى برا به وحبا له ورفعا لخسيسته فى قريش،وزينب بنت عمة محمد،فى الذؤابة من قريش حسبا،وفى الذؤابة من المسليمن قرابة من رسوله،ولها فى الجمال شهرة يتحدث بها معاصروها.

ولما بلغ زيد مبلغ الرجال،وآن له أن يتزوج،شاء كرم محمد فى بره به أن يزيد من كرامته،وأن يرفع فوق ما رفع فى قريش من خسيسته،فآثره ببنت عمه العقيلة الكريمة الحسب القريبة النسب الوضيئة الجمال،والذى يدرك بعض الإدارك ما كانت عله الفتاة العربية يؤمئذ من موروث الاعتزاز بالأحساب العريقة،والنظر إلى الكفاءة فى الزواج،يدرك ولا شك مدى العار الذى تستشعره مثل زينب من الزواج بعبد جرى عليه الرق ثم أعتق ولو كان يدعى فى الناس ابن محمد.

رواسب موروثة فى البئية العربية لا حيلة فيها،ولا سيما عند النساء،وناهيك بالأمر إذا اتصل بما للواحدة من قيمة فى نظر نفسها أو نظر الناس،وتأذت زينب

وتأبت،وتأذى أخوها وتأبى،وتحرج الموقف والرسول يريد تحطيم الفوارق بين المسلمين ويقضى على خنزواتة الجاهلية وعصبيتها،فيثوب الناس إلى أن أكرمهم عند الله أتقاهم حقا،ولكن أكرم الناس عند الله ليسوا أكرمهم عند الناس فى جميع الأحوال.

لم يتم زواج زينب الحسناء الأبية العيوف من زيد إلا بحكم لا رد له،وللفرنجة مثل حصيف يضرب للأمر يتم عن غير طيب نفس:فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطئ النهر،ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد،ووردت زينب مورد زيد،ولكنها ظلت عصبية النفس تجد لذلك الزواج غصة تعترض حلقها،وكلما لقيت زيدا فى الدار تذكرت أن الذى هى فى عصمته إنما دخل دار ابن خالها رقيقا وصيفا،فكيف وهى الحرة تسام ذلك الخسف ونظيراتها ومن دونها تزوجن من أكابر الأحرار؟

وظلت تتعاظم عليه وتؤذيه بتعاظمها على حد قوله،فإذا بالزواج الذى كان سيرفع من خسيسته وقد زادها تأكيدا وليس أقمأ لرجل من زوجة تستصغر شأنه وتزدرى قدره،وضاق زيد بالأمر،وفاتح محمدا فى طلاقها أكثر من مرة،وكان لابد أن يفاتحه فى ذلك،أليس هو الذى زوجه منها،أليس هو منه بمقام الوالد وبه يدعى؟وأليست هى بنت عمته وقد أرادها على ذلك الزواج حتى أذعنت وفى القلب من ذلك شئ.

تردد الرسول طويلا،كلما خاطبه فى طلاقها قال له:اتق الله وأمسك عليك زوجك،فقد كان عزيزا عليه أن ينتهى هذا الزواج الذى سعى فيه وأمر به إلى تصدع وانهيار،وكان عزيزا عليه أن تتقوض القاعدة التى أراد بذلك الزواج تقريرها،وهو محو الفوارق بين المسلمين وإلغاء الطبقات فى صميم الأسرة العربية وتقاليد

المصاهرة فيها،كما محا الفوارق فى الدين والعبادة والجهاد والإمارة.

كان عزيزا عليه أن تقف عقلية المرأة وتمسكها باعتبارات التناظر والتفاخر عقبة دون انتصار هذه الثورة الاجتماعية الإنسانية المنصفة للكرامة البشرية انتصارا كاملا شاملا فى جميع الميادين،ولكن الفتى العزيز عليه وجد الأسى والنكد والإيذاء حيث أراد له أن يجد النعيم والمتعة والعزة،ولكن اعتزاز المرأة كان أقوى من الإصلاح ومن مغزاه الكبير،فاستمرت تؤذى الفتى حتى نفد صبره وطلقها.

ثانيا:طلق زيد زينب ولم تكن له بها حاجة،انقضى وطره منها ولم يعد له فيها مأرب،فماذا ينتظر الآن من زينب؟،ماذا ينتظر العقيلة التى أذعنت طائعة للزواج ممن لا تود،ولكن نفسها لم تنقد سلسة لذلك الزواج فشقيت به وأشقت،وغدت مطلقة صغيرة السن،وضيئة الحسن،بغير زوج يضمها ويعصمها،عادت زينب بنت عمة محمد إلى بيت آلها جريحة مطعونة فى شعورها الأنثوى وشعورها الإجتماعى.

لم تخل من أسى لتوهم هوانها على ابن خالها حتى زوجها من دعى لصيق وعبد عتيق،فانكسر خاطرها وتأذت كرامتها،ولم تخل من تشاؤم وهم،فمن الذى يتزوج ثيبا،مطلقة عتيق؟أكبر الظن لن يقدم على ذلك كفء لها ذو منبت عريق،ويزيد موقفها سوءا،ويزيد همها وحشة،أنها تزوجت مطلقها بأمر كريم،وعلم القاصى والدانى أنها لم تحسن معاشرة ذلك الزوج المظلوم،فمن يجرؤ على زواجها وهو يعلم أن الرسول أمر بالزواج وعارض فى الطلاق كلما استأذنه فيه زيد؟إنها لتحس بوادر النبذ تطبق عليها،وياله من موقف عصيب لحرة حسناء فى مقتبل العمر،وما كان محمد بالذى يفوته ما ينطوى عليه الموقف من اعتبارات دقيقة ثقيلة الوطأة على الشابة المكروبة،وما كان ليغفل عن صلته بما انتهت إليه حالها:أبت الفتاة وأصر هو أن يكون أمره نافذا،وهو الرسول وابن الخال.

وإنه ليعلم علم اليقين وهو الإنسان ذو القلب الكبير أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل،فهو لا يستطيع أن يلوم زينب لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه حب الأبناء.

ثالثا:على هذا التأويل أعقل أنا قوله:سبحان مصرف القلوب،أى سبحان الذى صرف قلب الشابة الحسناء عن الفتى الوسيم زيد،فلم تستطع أن تسكن إليه بعد أن تزوجته طائعة مذعنة،ذكر الرسول عندئذ ربه وحكمته،فكيف بعدئذ يلومها على ما لا تملك من هوى قلبها،وسبحان مصرف القلوب،لا لوم عليها،فكيف إذن يتركها تحمل وحدها ما لا وزر لها فيه،ولا طاقة لها بدفعه عن نفسها؟لابد أن تأسو يده الجرح الذى رآه ينزف من وجدانها الأنثوى الرقيق،لابد أن يدفع عنها شعور الهوان والدونية الذى حاق بوهمها من ذلك الزواج المتكافئ على ظنها،لابد من زواج يكون بمثابة رد اعتبار لها،ورأى من واجبه أن يتزوجها.

رابعا:رأى الرسول نفسه أمام اعتبار خاص من مخلفات البيئة العربية فى تاريخ جاهليتها الطويل،وما أعنت البيئة الصحراوية فى حفاظها على الموروث من الأنساب بنو الموروث من التقاليد،رأى نفسه أمام عقيدة مساواة الأدعياء(الأبناء بالتبنى) بالأبناء الحقيقيين فى كل شئ،فأرملة الإبن بالتبنى أو مطلقته حرام على الأب بالتبنى حرمة مطلقة الإبن الحقيى أو أرملته،حرمة قديمة متأصلة موروثة،وزينب ذات شهرة مستفيضة بالجمال،فما عسى أن يقول الناس إذن؟وما عسى أن تتناجى به أحياء العرب،وقد رأوا الرسول يتزوج مطلقة ابنه؟ألا يرمونه بقالة السوء؟ألا يخوضون فى نزاهة مقصده؟

وتردد محرجا بين إرضاء ضميره وإطاعة نخوته بجبر خاطر زينب الكسير ورفعها إلى مقام أمهات المؤمنين،وبين النأى بنفسه عن تلك الشبهات،ومن قعد

الريبة ركبته،وهو الحصيف الذى خبر قلوب الناس وعرف خوافيهم،غامت نفسه وضاقت فجاجها حتى أتاه القرآن الذى رفع الحرج عنه،وبذلك قضى على سلطان التبنى وما يترتب عليه من حرمة لا أساس لها،أم هل يكون الإبن المتبنى الذى له أب معروف أقرب آصرة من الأخ الشقيق؟وهذه مطلقة الشقيق غير محرمة فكيف تحرم مطلقة اللصيق؟

وما أخفى محمد فى نفسه إلا الربغة فى جبر خاطر كسير لا سبيل إلى علاجه حق العلاج إلا بيده،وما الأمر بالزواج هنا إلا منطوق حكم سبقته حيثياته الملزمة للعقل،وألحقت به القاعدة العامة التى يلتزم بها سائر الناس عن بعد،ولا تثريب فى العقل على من يتزوج مطلقة ﴿قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾[الأحزاب:٣٧] ،أى لم يعد له فيه مأرب،وهى حرة تتزوج من تشاء،ليست فى ذلك حرمة ولا شبه حرمة،وليست تلك بالتى تسقط مروءة أحد،بل إن ظروف ذلك الزواج جميعا تؤذن بأنه كان من أعمال النخوة المأثورة عن محمد،ولم يكن تهورا ساقه إليه هوى صبيانى طائش،ولكن هل كان ذلك الموقف السامى فى فطنته ونبله بالذى يرتقع إلى مستواه كل عقل؟...إن معظم العقول تغرم بزخرفة الخيال وأوهام الحس الشائعة بين سواد الناس،فكان ما كان من اختلاط الفهم أو تلفيق البهتان.

(١٤)

وفى النهاية يصل نظمى لوقا إلى المطعن الأكبر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم،يصل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها،يقول:«لغط المحدثون من المفترين بأمر زواج الرسول من عائشة على ما يروى من أحاديث السيدة عائشة نفسها وهى دون العاشرة وتصايحوا منددين بانتهاك محمد لحرمة الطفولة ونسبوه إلى الوحشية الجنسية،وليس أبعد عن خلائق محمد من مثل هذه الفرية».

فروايات السيرة التى قدرت للسيدة عائشة عند زواج الرسول بها فى دار الهجرة تلك السن الصغيرة،روت أيضا أمرا آخر هو موضع إجماع الرواة،وهو أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبله لجبير بن المطعم بن عدى،وخطبة الرسول للسيدة عائشة لم تكن عن مبادأة منه،بل كانت باقتراح من خولة بنت حكيم،رشحتها للزواج منه وقد رأت حزنه واستيحاشه لوفاة السيدة خديجة،وما كانت أعمار الناس يومئذ لتعرف من شهادات الميلاد وأعمار النساء لم تزل – على عهد شهادات الميلاد – موضع تنقص واضح شائع بين جميع الطبقات،لا عن كذب متعمد،بل عن سليقة فى المرأة متصلة بفطرة أنوثتها.

والذى لا شك فيه أن أعمار البنات كانت تعرف فى تلك البيئة،مثلما تعرف فى بيئات الصعيد الجوانى بعلامات غير علامات التقويم،تعرف بأطوار النمو البدنى،كما يعرف الزراع نضوج الثمرة فى حقله،لا بيوم ثابت،بل بسمة معهودة،وآية هذا النضج هى التى قرأتها خولة بنت حكيم كما قرأتها البئية كلها،وبوحى من هذه الآية ذكرتها خولة للرسول فى معرض الزواج.

كانت عائشة إذن أنثى ناضجة يومئذ،اسمها فى قائمة المرشحات للزواج،وكان هذا المقترح فى السنة العاشرة للبعثة،أى فى السنة العاشرة لإسلام أبى بكر،وكانت عائشة مخطوبة لفتى آخر هو جبير،خطبها له أبوه المطعم بن عدى،وكان آل المطعم بن عدى جميعا فى السنة العاشرة للمبعث على كفر قريش المعهود فى الجاهلية،وهب أن المطعم بن عدى خطبها لابنه مذ ولدت،فهل كان ذلك معقولا أن يتم وأبو بكر هو من هو فى إسلامه؟

ليس من المرجح بالطبع أن يقبل الصديق بعد أن أسلم ذلك الخاطب المشرك،أو على الأقل ليس مرجحا أن يقبله إذا تقدم بعد أن أمر الرسول بالجهر بالدعوة،فإذا

أضفنا هذه القرينة إلى القرينة السابقة،وهى نضوج عائشة للزواج أو مقاربة نضوجها يوم ذكرتها خولة للرسول،قدرنا سنها فى ذلك اليوم بما لا يقل عن تسع سنين،ومرت بين الخطبة والزواج ثلاث سنوات على الأقل،تصل بها إلى سن الثانية عشرة بحسابنا.

ويشير نظمى إلى أن:«وحتى هذا القرن كانت حواضرنا تشهد زوجات فى هذه السن أو أقل منها،ولا أعدو الحقيقة إذا ذكرت أن ممن أعرفهن أوثق معرفة ممن تزوجن فى آخر العقد الثانى من القرن العشرين وهن دون العاشرة،وأن والدتى كانت لا تتجاوز الثانية عشر بكثير يوم تزوجت أبى،وما كانت تلك السن لذلك العهد موضع غرابة أو استنكار».

وسواء صح أن عائشة كانت فى الثانية عشرة على الأقل،أو كانت أصغر من ذلك بعام أو عامين،فالعبرة بالبيئة التى وقع فيها الحدث،ومن الخلط فى التفكير أن يوزن الحدث منفصلا عن زمانه ومكانه وظروف بئيته جميعا،فلا محل إذن للإدعاء بأن الباعث على هذا الزواج هو الوحشية الجنسية التى تتلذذ لذة منحرفة بانتهاك الطفولة .

هذه واحدة،أما الفرية الثانية التى يمصمص بها المصمصمون شفاههم – كما يقول نظمى – فهى الحديث عن الفارق الكبير فى السن،وحسبنا من رد عليه تكرار ما قيل عن الرجوع إلى البيئة التى وقع فيها الحدث،وما كان فارق السن فيها بدعة وإنما العرف السائد،كان فى ذلك كفاية،ولكننا نزيد عليه ما يثبت نقيض تلك المفتريات والمغامز العرجاء.

لقد كانت السيدة عائشة أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة،هذه حقيقة لا مراء فيها،ولكن لماذا؟...لأن هذه البيئة التى ترعرعت بين سمعه وبصره أحب

الناس إليه،بنت أخيه الصديق..بنت أبى بكر،أحبها أولا لأنها بنت أبى بكر،ودللها تدليل الأب،كان يأتيها فى السنوات الأولى من زواجها بأترابها ليلعبن معها بالدمى والعرائس،وكان يحملها لترى من فوق كتفه،وخدها لصق خده،ملاعب الأحباش بالرماح والدرق،وكان يتغاضى عن هناتها فى ترفق وحنان،كان يشعر بالبنوة وهو مع خديجة،وكان يشعر بحنان الأبوة وهو مع عائشة،كان حب وحنان وترفق،لا حب توحش وانتهاك كما أفكوا،كان لها الأب والزوج معا.

أما المحنة الأكبر فى حياة السيدة عائشة،فهى محنة الإفك،وينقلها نظمى لوقا فى كتابه عن سيرة ابن هشام مروية على لسان السيدة عائشة نفسها.

كان رسول الله إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه،فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه،فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع،فخرج سهمى عليهن معه،فخرج بى رسول الله،وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق – القليل من الطعام – لم يهجمهن اللحم فيثقلن،وكنت إذا رحل بعيرى جلست فى هودجى فيدفعونه فيضعونه على ظهر البعير،فيشدون بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك توجه قافلا،حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل،ثم أذن فى الناس بالرحيل،فارتحل الناس،وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى فيه جذع ظفار(خرز يمنى) فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى،فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده،وقد أخذ الناس فى الرحيل،فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه،فالتمسته حتى وجدته،وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى بعيرى وقد فرغوا من رحلته،فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع فاحتملوه،فشدوه على البعير،ولم يشكوا أنى فيه،ثم

أخذوا برأس البعير فانطلقوا به،فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب،قد انطلق الناس.

فتلففت بجلبابى ثم اضجعت فى مكانى،وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى،فوالله إنى لمضجعة إذ مر بى صفوان ابن المعطل،وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته،فلم يبت مع الناس،فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على،وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب،فلما رآنى قال:إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة رسول الله ...ما خلفك يرحمك الله؟فما كلمته،ثم قرب البعير وقد استأخر عنى وقال:اركبى.

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس،فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس،فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى،فقال أهل الإفك ما قالوا،فارتج العسكر والله ما أعلم بشئ من ذلك.

ولم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة،ولا يبلغنى من ذلك شئ،وقد انتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى،لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا،إلا أنى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بى،كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى،فلم يفعل ذلك بى فى شكواى تلك،فأمكت ذلك منه،حتى وجدت فى نفسى فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى:يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فتمرضنى،قال:لا عليك.

فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشئ مما كان،حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة،وكنا قوما عربا لا نتخذ فى بيوتنا هذا الكنف التى تتخذها الأعاجم،نعافها ونكرهها،إنما كنا نذهب فى فسح المدينة،وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن،فخرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح،وكانت أمها خالة

أبى بكر،فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت:تعس مسطح،قلت:بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا،قال:أما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر،قلت:ما الخبر؟

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك،فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى،ورجعت،فو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى،وقلت لأمى:يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شئيا،قالت:أى بنية هونى عليك الشأن فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليه.

وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى،ويقولون عليهم غير الحق،والله ما علمت منهم إلا خيرا،ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا،وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى.

ثم دخل رسول الله على وعندى أبواى،وعندى امرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى،فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:يا عائشة إنه قد بلغك ما قد بلغك من قول الناس،فاتقى الله،وإن كنت قد قارفت سوءا بما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده.

بكت عائشة بكاء البريئة وأبت أن تتوب مما لم تفعل،وفوضت أمرها إلى الله حتى نزل القرآن ببراءتها،ويقول نظمى:«هل هذا المسلك الرزين غاية الرزانة مسلك رجل يربطه بهذه الزوجة اشتهاء مستعر منحرف مما يلحدون؟،ليس هذا هياج ذى هوى متأجج ورغبة حارقة،بل هذا وقار أب يترفق بابنة صغيرة السن،فلا يفاتحها فى أمر يقض مضجعه ويجرح كرامته أيما جرح،وهو من هو؛لأنه وجدها مريضة وكان

أقصى ما فعله أنه لم يدللها كعادته حين تمرض،وما كان بوسعه ولا وسع غيره أن يفعل فى هذه الأزمة العصبية،هذا أسلوب الأب العطوف ولا مراء،وشتان هذا العطف الأبوى الذى بلغ أقصى ما تطيقه الطبيعة البشرية من التماسك ومن الترفق،والذى صوروه به من تعلقه بعائشة تعلق رجل شهوان يتلذذ بانتهاك الطفولة».

(١٥)

ويختم نظمى لوقا دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ضد ما لحق به فى حياته الخاصة بعبارة قصيرة وضع لها عنوانا دالا هو :وليذكر الذاكرون،يقول:«وليذكر الذاكرون أن التاريخ كم وعى من رجالات أصحاب رسالات،كانت لهم الزوجات الكثيرات،بالعشرات وبالمئات،وكانت لهم السرارى بغير عدد،ولم يقد فيها لهم من فضل ظاهر،ولا فيها لدعواتهم من أثر فى العقول والسرائر،وهل نسى الناس داود وسليمان وغير داود وسليمان؟،فكيف لا يحسب هذا التعدد اليسير إلا على محمد بن عبد الله دون سواه؟إلا أن الميزان المستقيم لا يكيل بمكيالي،ولا يحرم على زيد ما يرى أضعافه غير حرام على عمرو؟ومن يظلم فإنما نفسه يظلم،ومن يجور فى الحكم إنما يضير تفكيره وضميره...وسلام على الصادقين».



إسلاميات
كاتب
مسيحي

4

أبو بكر حواري محمد
ابحث عن الحب بين النبي والخليفة



قبل أن يبدأ نظمى لوقا حديثه عن أبى بكر الصديق الذى فضل أن يمنحه صفة الحوارى،وهى صفة فاز بها من أحاطوا بالمسيح عليه السلام،قدم لكتابه بما قاله المسيح: «لأن كل شجرة من ثمرها تعرف»،و«لأن من الثمر تعرف الشجرة».

ثم بدأ بتنبيهه الذى لم يتخلَّ عنه منذ كتب محمد الرسالة والرسول،يقول:«مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد،وما كنت بحاجة إلى هذا التنبيه الذى يغنى عنه اسمى،لولا أن نفرا من الناس ذهب ظنهم إلى أن إنصاف عقيدة من العقائد أو إنصاف أقطابها لا يمكن أن يصدر إلا عن شخص يدين بالعقيدة التى يدفع عنها الافتراء،وبالتالى لا يدافع بالضروة عن الإسلام ورجاله أو ينصفه إلا مسلم».

يرى نظمى أن هذا ظن باطل،فليست كتبه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الأصيلة،وإن عالجت أمورا متصلة بالدين،فالغرض الأول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة،والنظر فى سائر الأمور نظرا موضوعيا مبرءا عن التحيز والتحامل،بحيث يكون الفكر الإنسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى،لا تتأثر نتيجة تحليل الدم إلا بالعناصر التى يتكون منها هذا الدم فعلا،ولا دخل فى هذه النتيجة لأن تكون قطرات الدم لذى قربى أو لأبعد البعداء.

ويتضح المنهج الموضوعى الذى يسلكه نظمى فى كل ما يكتبه من قوله:«وإذا كان المنهج الموضوعى يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب البعيدة من غير أن يكون من سكانها، وعن المعادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس، وعن السيارات من غير أن يكون سيارة،فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن الإسلام ورجاله من ليس فى عداد المسلمين؟إلا أن الإنصاف النزيه أثمن فضائل الإنسان،وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا إلى الأمور كافة،بما فى ذلك الأديان التى ندين بها.

ومن التنبيه إلى الإهداء،يهدى نظمى كتابه إلى :«السائرين فى الظلمة،وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى أحمد صلاح الدين عفيفى الأخ الصادق الإخاء على اختلاف دياناتنا..ورب أخ لك لم تلده أمك».

(١)

لخص نظمى لوقا فى نهاية كتابه وجهة نظره فى أبى بكر الصديق،قال عنه:«أبو بكر فى مجموع صفاته النفسية وسلوكه نمط على طرف النقيض من نمط رجال كثيرين يكتظ بهم تاريخ الأمم على اختلاف لغاتها وأديانها،فأبو بكر مثال للرجل الذى تعز به دولة العقيدة،وأولئك أنماط الرجال الذين تنحل بهم سطوة العقيدة،أبو بكر وهب حياته للمبدأ،وأولئك جعلوا من المبادئ متجرا ومرتزقا،أبو بكر من معدن نادر شديد النقاء،وأولئك من معدن شائع شيوع الرمال فى الصحراء،فلئن قال قائل بعد هذا عن هذه الصفحات : أنها سيرة حياة من حيث هى سيرة قلب،أو قال قائل إنها دراسة فى الحب،فالقولان حين يتعلق الأمر بأبى بكر سيان؛لأن الحب الفذ كان لباب اللباب من ذلك الإنسان».

بهذه الفلسفة كتب نظمى لوقا عن أبى بكر الصديق،وليس أمامنا إلا أن نفصل ملامح هذه الصورة القلمية الرائعة التى رسمها نظمى لوقا لأبى بكر الصديق الرجل الثانى فى الدولة الإسلامية دينا وسياسة.

(٢)

يعرف الناس أبا بكر بن أبى قحافة بلقب الصديق الذى وصفه به محمد،وهم يعرفونه لسبقه إلى الإسلام،وصحبته الطويلة الصادقة للنبى،وهجرته معه إذ هو ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فى الغار،ثم هو الخليفة الأول منذ قبض النبى،وصاحب المواقف المشهورة فى محنة الردة حتى قضى عليها،وواضع دعائم ما صار فيها بعد إمبراطورية

عربية مترامية الأطراف تكاد تستوعب الجانب الأكبر من المعمورة.

لكن فى نهاية الأمر فإن أبا بكر المسلم الصديق إنما هو ليس أبا بكر الجاهلى، الذى لم تبدأ دعوة الإسلام إلا وهو يقارب الأربعين،أو وهو ابن سبع وثلاثين سنة أو تزيد قليلا على أرجح الأقوال،وهى سن يكتمل فيها الطبع وتتم السجية.

لكن من هو أبو بكر فى الجاهلية؟...أبرز ما يعرف عنه أنه رجل من قريش ومن بطن من بطونها الاثنى عشر،فهو من بنى تيم بن مرة،من حيث مصدر معاشه لم يكن هناك اعتماد له إلا على التجارة،ولأنه كان تاجرا فقد استلزم هذا أن تكون له صفات محددة.

منها : أن يكون عارفا بالأنساب التى تقوم يؤمئذ مقام البطاقة الشخصية فى زماننا،ولابد له أيضا أن يكون حسن المدخل عند الناس،حصيفا فطنا،كثير الأناة يتجمل بالصبر والبشاشة والدماثة التى تتألف القلوب، ولا تستثير العدوان وتستل السخائم،ولا ينفى ذلك كله أنه كان حازما يعرف أين تنتهى الملاينة والمسايرة،وأين يجب أن يقف فلا يتزحزح وإلا خسرت تجارته أو استخف به من يتعامل معهم فيذهب ماله ضياعا.

وعند خليقة الحزم هذه التى تمتع بها أبو بكر،التقت خلائق الحرص،واستدبار العواقب والبصر بدخائل الناس،وحسن الخروج من المواقف قبل أن تتأزم،وحفظ السمت حتى لا تسقط الهيبة بالتبسط والدعابة والبعد عن مباذل الفجور والخمر والميسر،وإلا تعرضت التجارة وهى محدودة للإفلاس فلا يسهل تعويضها أو تجديدها برأس مال مستحدث،وتلك كلها مما يحفظ المروءة ويستلزم الوقار مع البشاشة،وتستلزم كذلك التفكير العملى الذى لا يجد ضيرا فى التساهل استبقاء للمودة؛لأن من ليس عميلا اليوم لا بأس أن يكون عميلا فى يوم من مقبل الأيام،

فإحدى عينيه على اجتناب الخسارة،وعينه الأخرى على ربح مأمول،إن لم يكن عاجلا فهو آجل.

كان أبو بكر كذلك رجلا منضبطا،لا يسرع إلى الغضب والشحناء،ما لم يكن له عن ذلك بد لحماية الكرامة أو حماية المال؛ لأن التهور غير مأمون العواقب،فلا عدد فى العشيرة يرهب،ولا سلطان لها يخيف،ولا يكون بعد التهور فى هذه الحالة إلا تحمل الثأر أو الإهانة بغير قدرة على الردع،وليس أضيع للعربى من هذا الهوان.

هذا كان خلقه..أما وصفه،فقد كان أبو بكر الصديق كما تقول السيدة عائشة:«رجل أبيض نحيف خفيف العارضين أحدب،لا يستمسك إزاره،يسترخى على خصره،معروق الوجه،قليل اللحم فيه،غائر العينين،ناتئ الجبهة،عارى أصول الأصابع التى تتصل بظاهر الكف.

هذا التكوين الجسمانى كما يرى نظمى لوقا ظاهر فيه المزاج العصبى،وفى مظهره الذى تقتحمه العين ما يدخل فى حساب العوامل المشددة عند حساب صفاته الخلقية وسجاياه وأسلوب تعامله مع الناس،كيان صغير،لو انطوى على طبع فاتر أو مزاج بارد لكان مخلوقا صغيرًا الظاهر والباطن،كالأرنب تقتحمه العين،ولا يقف عنده ذو بصر ولا بصيرة.

أبو بكر كان فى كل ما عرف عنه ذا طبع جياش ومزاج حار،ظاهره ساكن وباطنه محتدم الأوار،وظروف قبيلته ومهنته تحمله حملا على أن يلتزم حدودا مأمونة فى سلوكه وتعامله مع الناس،ومن هنا جاءت أهمية ضبط النفس الشديد وأخذها بالحزم الحازم والنهى الصارم.

وحتى يدلل نظمى لوقا على أن أبا بكر كان نسابة كبير فى قومه،فهو يروى ما أورده القيروانى فى كتابه «زهر الآداب» من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

– وكان من أشعر قريش – هجا النبى محمدا بشعر مقذع:لما انتهى شعر أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم شق عليه،فدعا عبد الله بن رواحة فاستنشده فأنشده.

فقال النبى:أنت شاعر كريم،ثم دعا كعب بن مالك فاستنشده فأنشده،قال النبى:أنت تحسن صفة الحرب،ثم دعا بحسان بن ثابت،فقال له:أجب عنى،فأخرج حسان لسانه فضرب به أرنبة أنفه (متباهيا بطوله) ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمس أبا سفيان،فقال النبى:وكيف وبينى وبينه القرابة التى قد علمت؟فقال حسان:أسل منه كما تسل الشعرة من العجين،فقال النبى:اذهب إلى أبى بكر.

وكان أبو بكر أعلم الناس بأنساب قريش وسائر العرب،وعنه أخذ جبير بن مطعم علم النسب،فمضى حسان إليه فذكر له أبو بكر معايب أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب،فقال حسان شعرا فضح به أبا سفيان فى أمه سمية وأم أبيه سمراء،فلما بلغه هذا الشعر قال:هذا كلام لم يغب عنه ابن أبى قحافة.

وهذا العليم بمثالب السادات ومغامزهم ما أحراه إذن أن يتوقى من الفعال ما تلحقه سبة يحفظها له نسبة من طرازه.

ومن الصفات التى صاحبت أبا بكر من الجاهلية إلى الإسلام،أنه كان مشهورا بصدق القول والوفاء بالعهد،يقيد به نفسه حتى عندما تكون له فرصة من التقيد به، لو أنه رام ما يبرر به أمام نفسه وأمام الناس ذلك التحلل.

والمثال الواضح على ذلك مما جرى بين أبى بكر والرسول فى حادثة زواج النبى من عائشة،إن أبا بكر لم يحب أحدا وآثره على نفسه وأهله مثلما أحب النبى محمدا،لكن ذلك لم يدفعه إلى التزحزح قيد أنملة واحدة عن سجية الوفاء بالعهد

والقيام عند الوعد.

فالنبى محمد يخطب إليه ابنته عائشة،أرسل فى ذلك خولة بنت حكيم،فخاطبت فى ذلك أم رومان والدة عائشة،فكان طبيعيا أن يسيطر السرور أبا بكر إذ يرى ابنته تملأ الفراغ الذى تركته خديجة بنت خويلد شاغرًا أمدا طويلا،وأن يرى فى ذلك آصرة تزيد ارتباطه بنبيه فيها من شرف المصاهرة ما يضاعف شرف المصاحبة.

ولكن رجلا من رجالات المشركين كان قد خطبها قبل ذلك بسنين لابنه المشرك،فما أحسنها فرصة ليسل ثيابه من ثياب هذا المشرك،وفى شركه هذا كاف لمثل أبى بكر بعد الذى لقيه وبنيه من عنت فى الأشخاص والأموال كى يستبدل الذى هو خير ما يمكن بما هو شر ومدعاة حرج وإعنات.

ولكن معاذ مروءة أبى بكر،إن أبا بكر خير من يشعر بهذا كله،وبأن الله بدله من شر خيرا عميما،ومن حرج شرفا وفرجا،ومع هذا قال لزوجه أم رومان:إن المطعم بن عدى كان قد ذكرها على ابنه،وكأنما استشعر تمام المقابلة بين الضدين،وأنه لا يليق بمثله أن يذكر هذا الخاطب المشرك أمام خاطب هو نبيه الذى يفتديه بالنفس والنفيس،فأردف ذلك بالمبدأ الذى إذا ذكر لم تعد المسألة مسألة مقابلة ومقارنة بين ما هو أدنى وما هو خير:والله ما أخلف أبو بكر وعدا قط.

وتوجه إلى مطعم بن عدى يسأله ألم يزل على رغبته فى تزوج ابنه من عائشة؟وأبدت امراة عدى تخوفها وقلقها أن يؤثر أبو بكر على ابنها،وكان لم يزل حديث السن، وقالت له: أتصبئه يا أبا بكر وتدخله فى دينك الذى أنت عليه؟، وأيدها زوجها فى هذا التوجس،فكان ذلك حسب أبى بكر كى يجد أنهما أحلاه من وعده ،فإنه ما كان مستطيعا أن يعد بعدم تبشير زوج ابنته بدينه الجديد،وهو الذى يبشر به ويدعو إليه كل من وجد فرصة للتحدث إليه من عرض النس

وخاصتهم،فكيف بصهره وختنه إذن؟

أما وهو عاجز عن شرطهما فهو فى حل من وعده،أما بغير هذا الشرط الذى اشترطاه فما كان شئ ليغريه بالنكول عن الوعد ولو أصهر إلى مشرك فى الوقت الذى يمد إليه يده نبيه للمصاهرة.

(٣)

ولم يكن أبو بكر يدفع أحدا إلا بالتى هى أحسن،اللهم إلا أنا يكون الأمر متعلقا بها لمطلق معنى الحق من قداسة،وأن يكون التطاول فى استخفاف لا بشخص أبى بكر بل بسلطان يمثله أبو بكر،وفيما عدا ذلك فهو إلى المسالمة وخفض الجانب،ولقد يتحرش به الرجل من الأجلاف فلا يرى ذلك شيئا ولا يحسبه مدعاة للغضب.

قال له رجل ذات مرة:لأسبنك سبا يدخل معك قبرك،فما زاد أبو بكر على أن قال:بل معك والله يدخل ..لا معى.

كانت هذه الكلمة الهادئة عقابا أوجع ودرسا أنفع للكافة من ألف غضبة مضرية هتكت حجاب الشمس أو تمطر الدماء، وقد يقال: أن هذه الدماثة رويت عن أبى بكر فى الإسلام،ونقول نحن:لا يكون الرجل فى الإسلام على سجية نفسية تناقض سجاياه الأصلية،أنه قد يتغير بالكف عن هذا الأمر أو ذاك بسبب التحريم،أما أسلوب معاملة الناس مما ليس فيه تحريم فمرجعه إلى طبيعة النفس ذاتها أو المزاج النفسى،فالرقيق يكون رقيقًا، والخشن يكون خشنا،والبخيل بخيلا والكريم كريما،والحساس للجمال حساسا للجمال وهلم جرا.

ولننظر إلى رأى المشركين فيه حين أسلم،وما أظنهم مهتمين بالتحيز لأبى بكر،يروى ابن هشام أن الاضطهاد حين كثر على أبى بكر استأذن فى الهجرة إلى الحبشة،فلقيه فى بعض الطريق ابن الدغنة وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال له:إلى

أين يا أبا بكر؟،قال أبو بكر:أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي،فقال ابن الدغنة:ولم إنك لتزين العشيرة وتعين على النائبات وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ..ارجع فأنت إلى جواري، ذلكم كان رأى أهل الشرك فى أبى بكر.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

(٤)

من أهم ما يذهب إليه نظمى لوقا فى تناوله لشخصية الصديق أبى بكر رضى الله عنه، هو أن الرجل كان له ظاهرا وباطنا،ويبدأ بسؤال:هل كان فى حياة أبى بكر فى الجاهلية ما أتاح لدماثته وصبره هذا الامتحان الثاقب؟

والإجابة:قليل من أخبار جاهلية أبى بكر ما أتانا فى هذا السبيل،ولكنه القليل الذى ينبى عن كثير،وفى تأمله ما قد يحدثنا بأن دماثته لم تكن مثل سائر الدماثة انسياقا محضا وباطنا خاويا من كل ما يخالف الظاهر المألوف فيه،وفيمن حوله من أترابه وأهل عشيرته الأقربين والأبعدين.

لقد نشأ أبو بكر فى عاصمة الأوثان مكة، ولكنه لم يكن ممن انساقوا مع التيار،فلم يعكف كما عكف أهل بيته على الأوثان،وفيما وصل من خبره أنه لم يسجد لصنم قط،وتحدث هو عن ذلك فقال:لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام فقال لى:هذه آلهتك الشم العوالى،وخلانى وذهب ...فدنوت من الصنم وقلت:إنى جائع فأطعمنى،فلم يجبنى الصنم فقلت:إنى عار فاكسنى،فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه.

وقد تصدق هذه الرواية بحروفها أو قد لا تصدق،ولكن مدلولها يبقى ناطقا لواقع الحال الذى وصل إلينا عن أبى بكر بن أبى قحافة.

فالأمر الذى لا وضع للشك فيه أن أبا بكر المسلم لم يكن خلقا طارئا لا عهد

للعالم به قبل يوم اعتناقه للإسلام،بل هو امتداد على نحو متطور لأبى بكر الجاهلى،بل إنه ما كان ليسلم على النحو الذى أسلم به إلا أنه ذلك الشخص المعين بالذات الذى عرفه الناس فى الجاهلية،فمكونات شخصيته وهو جاهلى هى التى حددت أسلوبه فى مواجهة الإسلام.

ولو لم يكن أبو بكر ذا تكوين معين فريد فى جاهليته لما كان موقفه من الإسلام ذلك الموقف الذى تفرد به،وحين تعوزنا معرفة كافية بجذور الشجرة لن نضل إذا التمسنا معرفة نوعها وصفاتها من الثمرة التى تتمخض عنها؛لأن من الثمر تعرف الشجرة،كلمة السيد المسيح وما أصدقها فى موعظته المشهورة.

وحتى يتضح هذا التكوين الفريد لأبى بكر،فلابد أن نبدأ بعلاقته بالأصنام قبل الإسلام،تلك العلاقة التى انحدرت عنها الرواية الشهيرة التى كلم فيها الأصنام ولم ترد عليه،ففى رواية ابن هشام أن النبى قال عن إسلام أبى بكر:ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد،إلا ما كان من ابن أبى قحافة،فما عكم (أى ما انتظر) حين ذكرته له وتردد فيه،وهذا شأن رجل انطوى على غربى نفسية شديدة فى عالم الأوثان،وأضمر لها ازدراء عميقا عاشه أمدا طويلا،ومحال أشد المحال أن يكون تصرفه هذا من وحى الساعة بغير مقدمات وتمهيدات سابقة.

أما عن دماثته فى الجاهلية فلم تكن دماثة انقياد ومحض تعلق بالناس وتحبب إليهم لكان حريا أن يعرض عن دعوة تورثه عداء الناس وتقطع ما بينهم وبينه من ألفة وتواد،ولكنها دماثة الباطن السخى الثرى الذى تفيض منه المودة عن احساس عميق بالإخاء الإنسانى وعن سعة أفق وبعد عن الأثرة،إنها دماثة الوجدان الحار والعاطفة الدافقة والحماسة للخير والرحمة.

وهذا هو التفسير الوحيد المقبول لدى العقل لإقدام أبى بكر بغير تردد على

تعريض كل علاقاته الدمثة للخطر والمجازفة بالمودة والألفة التى عاش فى ظلالها إيثارا لأى شئ؟... إيثارا لما كان عنده على الدوام – وإن خفى عن عيون الناس التى تتجاوز الظاهر – أرجح من الدماثة ومن الأشخاص إيثارا للقيم التى أحسها وأحس أن الأوثان هيهات تمثلها، وإنما هى تسد الطريق إليها وتشغل الناس بالأباطيل والترهات.

وفى شخصية أبى بكر نجد حرارة وحماسة، فيروى المبرد فى كتابه الكامل حادثة ذات دلالة خاصة يقول: «حدثنى العتبى إسناده ما ذكره قال: دعا طلحة بن عبيد الله أبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فأبطأ عليه الغلام بشئ أراده، فقال طلحة: يا غلام، فرد الغلام: لبيك، فعاجله طلحة: لا لبيك، فكف أبو بكر عن الطعام وقال: ما يسرنى أنى قلتها وإن لى الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرنى أنى قلتها ولى نصف الدنيا، وقال عثمان: ما يسرنى أنى قلتها ولى به حمر النعم (أكرم أنواع الإبل)... وصمت عليها طلحة فلما خرجوا من عنده باع ضيعة بخمسة عشر ألف درهم فتصدق بثمنها كفارة».

لم يكن ما حدث بين طلحة وخادمه بالأمر الغريب بمقاييسنا العصرية، بل لعله أخف بكثير من قول بعضنا لخادمه حين يضيق به لكثرة قوله حاضر من غير أن يحضر: لا أحضر الله لك الخير، ولكننا نرى أبا بكر يثور بصديقه ومضيفه عن شعور بالإخاء للخادم ورفقا به وكراهة للخشونة على هوان أمرها ويقول مستاء: والله ما يسرنى أنى قلتها وأن لى الدنيا وما فيها.

أما عمر فكان حسبه أن ترجح عنده هذه الكلمة الجافية نصف الدنيا، أما عثمان رجل المال والأعمال الذى يعرف قيمة ما يملك فما زادت عنده هذه الكلمة على كرائم الإبل وأغلاها ثمنا وكأنه يوشك أن يؤديها من حر ماله نقدا وعدا.

ورغم ذهاب نظمى لوقا إلى أن هذه الواقعة قد تصح أو لا تصح بحذافيرها، لكن الموضوع الذى تصوره الرواية وهو الرأى فى هؤلاء السادة الكرام ومقدار ما فى خلقهم من مكرمة يبقى صحيحا،ففى أقل القليل كان الناس يعهدون فى أولئك الثلاثة خفض جانب وكراهة للفظاظة وحبا شديدا للرحمة والرفق بالضعفاء وصغار السن ممن تحت أيديهم،هذا واضح بالطبع،ولكن أمرا آخر وراء هذا لابد من التنبيه إليه،فها هنا ترتيب تنازلى لاستنكار كل واحد من الأئمة الثلاثة للعنف مهما كان يسيرا.

فنحن أمام ثلاث درجات من حرارة عاطفة الاستنكار والرحمة بعضها فوق بعض،أدناها ذلك الرجل الرقيق المدقق المشتغل بالحياة العملية على ثراء فيه وكرم خلق،فهو يستنكر ولكن بحساب ويسخو سخاء كبيرا مما يملكه فعلا لا على سبيل الفرض والتخيل،ويذهب فى التضحية إلى الحد الذى يطيقه من المال المعدود الناجز،وعمر رجل فيه حرارة الاندفاع ،ولكنه لا ينسى فى حرارة اندفاعه واقع الدنيا فلا يتطرف فى استنكاره كل التطرف.

أما أبو بكر الوقور الدمث فها هنا اندفاع لا يحسب حسابا لشئ إلا مطلق معنى الحق ومطلق قدسية القيمة،وهكذا مرة أخرى نجد أنفسنا عند سلوك واحد بعينه وكأن نفسه قوس مشدودة ترمى عن منزع واحد،هذا الرجل التاجر العملى المجامل ما باله فى مواقف بعينها متطرفا مسرفا فى المثالية؟

لقد بدت مثاليته فى التمسك بالوعد،ولمشرك خطب ابنته وذلك حين جاءه النبى خاطبا لها،وبدت مثاليته فى الاستنكار بحرارة تنم على أن العاطفة عنده متى استثيرت تملك صاحبها ولا يملكها صاحبها،فها هنا رجل يحب الرفق ويحرص عليه ولكنه يغاضب صديقه الحميم ومضيفه وهو فى داره لهذه الهنة حتى أنه يبرأ من

قول مثلها ولو أعطوه بها الدنيا وما فيها،رفق شديد يعبر عنه أبو بكر الصديق فى هذا الموقف بحرارة شديدة وحدة شديدة،ولكنها ليست حدة الخشونة بل حدة الرحمة.

(٥)

بعد أن توفى الرسول وأصبح أبو بكر الصديق خليفته،وقف فى المسلمين خطيبا،قال:«إن استقمت فتابعونى..وإن زغت فقومونى، ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها».

وهذا كلام واضح منه لكل ذى عينين أن صاحبه «رجل مبدأ» المبدأ عنده هو القائم،وهو السلطان الأعلى والمعيار الأوحد وأمام سلطان المبدأ يستوى جميع الناس،حتى خليفة رسول الله،فإن استقام أى التزم بالمبدأ وهو هنا القانون الدينى،فعلى الناس طاعته ومتابعته فيما يأمر به،وإن زاغ عنه فلا تهاون معه،وعلى الناس أن يتحولو من متابعته وطاعته إلى تقويمه.

المبدأ أو القانون له السيادة المطلقة على الجميع،ويشفع هذا بالحجة الدامغة والمثل الناصع،فهذا رسول الله لم يكن استثناء من هذه القاعدة،على مكانته التى ليست مثلها عند الناس مكانة،فقد أبى النبى إلا أن يعرض على الناس فى خطبته المشهورة الاقتصاص من شخصه،حتى مات وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها،فكيف يحق لأى أحد من هذه الأمة،ولو كان خليفة رسول الله أن تبدر منه مظلمة فى حق أحد من غير تقويم يصان به المبدأ وتتأيد به حرمة القانون ويتعزز به سلطانه الذى يرتفع فوق الأشخاص مهما أوتوا من سلطان؟

ينطق الموقف بأن أبا بكر رجل مبدأ إلى آخر حد،ولكنه لأمر ما شفع تلك

العبارات بعبارة تبدو من مستوى جديد،قال:ألا وإن لى شيطانا يعترينى فإذا أتانى فاجتنبونى.

إنها دعوة باعثة على الحيرة بين مطلبين متتاليين فى نفس واحد وسياق واحد،إن زغت فقومونى،وإذا أتانى شيطانى فاجتنبونى،كأنما هو ينبه الناس إلى الفارق الحاسم على الرغم من تشابه المواقف بين الزيغ المألوف وبين ما سماه شيطانا يعتريه،وهو لم يكن يعنى بالشيطان إلا حدة بالغة فى الغضب وغليان الطبع والاندفاع فى بعض المواطن،وما من شك فى التعبير بهذا اليسر الشديد عن حدة الطبع بأنها شيطان يعتريه يدلنا على أمرين:أنها حدة معهودة فيه لا يستغرب عارفوه أمرها فهى عندهم مفروغ منها،وأنها شديدة بالغة لا يجد لها تأويلا أو تشبيها إلا مس الشيطان،ذلك أنها تتجاوز كل حد.

ومن رأى ابن أبى الحديد – شارح نهج البلاغة – أن أبا بكر إنما أراد بالشيطان الغضب ولم يرد أن له شيطانا من مردة الجن يعتاده وينوبه، وإلا لكان فى عداد المصروعين من المجانين،وما ادعى أحد على أبى بكر هذا،لا من أوليائه ولا من أعدائه.

(٦)

والآن :لما أسلم أبو بكر؟

هناك اتفاق على أن أبا بكر كان أول من أسلم من خارج خاصة أهل بيت محمد،كما أنه لم يتردد ولم يجادل،بل أسلم من فوره منذ عرض عليه النبى العقيدة الجديدة،وهناك اتفاق أيضا على أن أبا بكر لم يكن بالغر الساذج الذى له من حداثة السن نزق أهوج، فاندفاعاته وهو فى السابعة والثلاثين أو يجاوزها بشهور اندفاعه ذى بصيرة يدرى ما يفعل.

وهنا يأتى سؤال:ما سر هذا الإسراع الذى يمكن أن نصفه بالاقتحام ولا يكفى فى وصفه الاندفاع؟..هذا الوقور الألوف المحبب إلى قومه لا يمكن إلا أن يكون قد لمح كل عناصر الموقف فى فطنة،وما كان يضيره أن يتريث ويتدبر إن استطاع،ولكنه أقدم ..بل اقتحم.

ولا تفسير يقبله العقل أمام هذه الموانع الشتى إلا أن يكون قد جرفها دافع من نوع آخر،دافع أقوى من هذه الموانع فلم تقف أمامه طرفة عين،وكأن طوفانا عارما اكتسح السدود على كثرتها فلم تبق منها باقية،هذا العامل المضاد لجميع الموانع،المباين لها فى النوع والكنه وكلها موانع مادية واجتماعية واضحة ظاهرة،لابد أن يكون عاملا نفسيا باطنا.

وهنا نجد أنفسنا أمام طبيعة أبى بكر الجياشة وعاطفته التى تستثار فتملكه ولا يملكها،بهذا وبهذا وحده،نعقل إسلام أبى بكر على الوجه الذى أسلم به متميزا بل متفردا،فهو قد أسلم إذن لا عن انتفاء الموانع بل على الرغم من تنوع الموانع وسطوتها.

أسلم أبو بكر لأن العقيدة الجديدة استثارت عاطفته الجياشة، فكأنما وجد فيها نفسه بعد طول افتقاد، ورأى الدنيا فى جانب بكل ما فيها ومن فيها من العلائق والمنافع،ورأى نفسه الحقيقية فى جانب آخر،فاقتحم مندفعا إلى الجانب الذى وجد فيه حقيقة نفسه:ماذا ينف الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟،كلمة السيد المسيح وما أصدقها.

ثم كيف ترانا نتصور أبا بكر وقد تريث يفكر؟..نراه يوازن بين الموانع والموجبات،ويرجح بينها،فكأنها عنده متقاربة القيمة يحتاج إلى وقت ومراجعة ليتبين أى الجانبين يمكن أن يكون له عند الرجحان،وهذا فى حدا ذاته لو أنه حدث

يجعل أبا بكر ليس أبا بكر،يجعله شخصا آخر يمكن أن تنعقد عنده مقارنة تتضمن التقارب بين قيمة كل ما تمثله الدنيا وبين ما يمثله الدين الجديد من قيم،ومثل هذا الشخص لا تكون له العاطفة الجياشة التى اجتمعت لأبى بكر.

أما وأبو بكر هو أبو بكر،فما كان ليسلم إلا اقتحاما على نحو ما أسلم:ما تردد وما كبا وما عكم،ولو أنه تردد ووازن لكان معنى هذا أن العقيدة الجديدة لم تستثر عاطفته الجياشة،ولصار أمر الترجيح على مستوى واحد من قياس المنافع والمضار،وعلى هذا المستوى كان الأحرى أن يكون للموانع المتنوعة أشد الرجحان،بما يمثله التزامها من منفعة وأمان وما ينذر به الخرزج عليها من القوارع والخسران.

(٧)

لا يكفى بالطبع فى تعليل الثقة المطلقة التى كان يبديها أبو بكر الصديق للنبى صلى الله عليه وسلم، أن نقول : أن محمد بن عبد الله كان الأمين الذى تعرف قريش صدقه وأمانته وكريم أخلاقه، فقد كان ذوو قرابته من بنى عبد المطلب فضلا عن بنى هاشم يعرفون هذا كما تعرفه سائر قريش ، بل وأكثر مما تعرفه،ولم يكن هذا كافيا عندهم مع ذلك كى يقبل أحد منهم الإسلام بغير تردد كما فعل أبو بكر.

إذن لابد من سبب فوق هذا السبب المألوف فى تعليل الثقة الدافعة إلى التصديق القاضية على الموانع،ولابد لكل شئ يحدث فى الكون من سبب كاف أما الأسباب التى دون الكفاية فلا تحدث النتيجة التى نبحث لها عن تعليل وتفسير.

فما هو إذن السبب الكافى ليكون أبو بكر أول من أسلم مفتتحا،بل مقتحما طريق الأهوال،وليكون إسلامه اندفاعة لا تعرف التردد والمراوحة بين عوامل الإحجام والإقبال؟

إن دواعى الثقة الشائعة فى قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم غير كافية لهذا التفسير،وإلا لكانت كافية لدخول أكثرية قريش فيما دخل فيه أبو بكر،وعلى نحو ما دخل أبو بكر،لابد إذن من سبب فوق الثقة،وأقوى منها بما لا يقاس،فأى شئ عساه يكون هذا السبب؟وبأى إسم من الأسماء المعهودة فى شمائل الناس ندعوه.

إن الثقة اقتناع بالشخص تأسيسا على سوابقه فى التعامل،ومحمد ابن عبد الله لم يأت الناس بحديث عن شئ من قبيل ما ألفوا التعامل فيه معه أو مع سواه،فما هو بحديث تجارة،ولا بحديث رواية أو عيان كسائر ما يرويه الرواة ويشاهده المشاهدون،ولكن الذى يرويه استجاش عاطفة أبى بكر واستولى على مجموع نفسه حين نبذ كل شئ وبايعه على الإيمان بدعوته.

السر إذن أو بعض السر على الأقل،فيما كان يجول بنفس أبى بكر قبل أن يلقاه بما لقيه به،فقد كان أبو بكر على يقين لا شك من ضلال الوثنية،ولكنه كان هو نفسه لا يدرى ماذا يكون وجه الحق بخلاف ذلك ولا ماذا يكون الهدى،أكان على حد تعبير ستراط كالجاهل الذى مبلغ علمه أنه جاهل،فهو مشتغل بعد ذلك بالبحث عن المعرفة،وهو بهذا المتميز بأنه أعلم الجهال؟ أكبر الظن أنه كان كذلك،فلو أنه عرف الهدى من نفسه لما كانت له إلى الهدى من غيره حاجة.

كان شأنه شأن المبصر ضاق من حوله بالظلمة ضاربة بجرانها،وكان يحسن أنه لابد من نور،لكنه لا يدرى من أين،ولا كيف يكون هذا النور الذى تنقشع عن وجهه الظلمات،ولو أنه أنس من نفسه ذلك النور،لما كانت له إلى سراج من عند غيره هذه اللهفة.

ولكن ماذا يدريه أن هذا الذى يحمله إليه ذال الغير هو النور المنشود،وما رآه يعرض عليه منه إلا قبسا؟..أهى الثقة؟ لقد فرغنا من قبل من أمر الثقة،وإنها لم تكن

كافية بمعناها الدارج،فلابد إذن من مستوى خاص يتكفل بالثقة على هذا المستوى الخارق،إنه شئ ليس فيما كان يدور بنفس أبى بكر فحسب،بل شئ يتعلق أيضا بالبشير الذى اهتدى بهداه على الفور،ولا يمكن أن يكون تصديقا بمجهول،أو معروف على المستوى المألوف من التعارف بين أهل قرية واحدة،فقد كان أولى بذلك لو أنه كان كافيا عترة محمد من بنى عبد المطلب.

هو إذن شئ أكثر من ثقة المعرفة أو ثقة القرابة،إنه ثقة التآلف الروحى الذى يسقط جميع الحواجز،ولا يحتاج إلى أسباب ومعاذير،نوع سام من الحب هو حب يندر أن يقع إلا بين الأصفياء من بنى البشر،ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه من سائر العلاقات المألوفة كما يتميز الألماس عن سائر أنواع الخرز والزجاج.

كان يملؤه هذا الحب الذى لا يستطيعه ولا يرقى إليه إلا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين فيما نرى؛ لأن هذا الحب هو الذى يمكن له وحده أن يفسر انفتاح قلب أبى بكر بهذه السهولة وارتماءه فى أحضان العقيدة الجديدة،ولم تكن بينهما معرفة عادية كالتى تكون بين أبناء الحى الواحد والحرفة الواحدة،ولا الثقة التى تعم بمألوفها كل غاد ورائح فى مدينة لا يزيد حجمها يومئذ على قرية كبيرة من قرانا الحديثة.

إنه حب عظيم بين أبى بكر ومحمد صاحب الدعوة،حب أساسه الشعور بحضور المثل الأعلى الذى كان يحلم به العاشق،فإذا المطلق الذى تعلق به قلبه وقد تمثل فى فرد من البشر،وأنه ليدرك بقلبه مراميه وآفاق تحليقه الخارق،ولكنه لا يجد فى نفسه تمام القدرة على مثل صنيعه،فيعيره روحه ويشاركه قوة جناحه فى الإقرار وإعجاب وخشوع،ولولا هذا الصفاء الروحى الشديد لانقلب صاحب هذا التكوين حاسدا ناقما،ولكن أبا بكر نسى فى صفائه أنانيته وذاب فى مثله الأعلى،

فصار حواريه الأول وتابعه الأمثل وأمثال محمد لا يكون لهم الناس إلا عاشقين أو حاسدين ناقمين.

بغير هذا الحب العظيم يتمنع فهم هذا الأسلوب فى الإيمان بغير تردد أو تفكير فى العواقب التى تحيق برجل حرفته التجارة،وصلاته بالناس أساسها الود ولين المهد والكياسة وحسن السياسة.

ومحمد فى هذا الحب تمثل فيه المبدأ والمطلق بشرا سويا،وكان أبو بكر مثل من ينشد ضالة يحسها شوقا غامضا فى نفسه،فإذا به يجدها متبلورة كأصفى ما تكون فى شخص آخر،فتعلق به تعلقه بكل ما فى قلبه من شوق،وهو هيام ليس كمثله هيام مما يعهده الناس فى سائر أحوالهم الحسية.

لقد صار محمد عند أبى بكر تجسيد المبدأ المطلق،فكل ما جال بنفسه وجده فيه على صورة أوفى وأتم، فألقى قلبه كله إليه حين أسلم،ولم يتصور كيف يمكن لأن يتحول عنه من رآه بعين البصيرة فى مثل ذلك النور الباهر،وهكذا كان أبو بكر نمطا وحده فى ولائه لمحمد؛ لأنه ولاء استوعب نفسه كلها ولم يترك فيها بقية للتفكير فى شئ ذى بال،إنه استيعاب، أو هو – إن شئنا التعبير بلغة المحدثين – استقطاب،وفى ذلك الاستيعاب أو الاستقطاب نجد تفسير كل سلوك أبى بكر بعد اعتناقه الإسلام اعتناقا أشبه ما يكون بالاقتحام.

(٨)

كان لهذا الحب العظيم من براهين واضحة....وهى براهين تظهر فى الآتى:

البرهان الأول:بعد أن أعتق أبو بكر بلال بن رباح من يد أمية بن خلف،أعتق وكما يقول ابن هشام : ست رقاب هم عامربن فهيرة وأم عبيس وزنيرة والنهدية وابنة النهدية وجارية نوفل التى كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل أن يدخل فى

الإسلام.

وهى تضحية عظيمة يقوم بها تاجر محدود المال باتت تجارته أقل رواجا ومعاملاته أضيق مجالا بعد أن خرج عن دين قومه،ولم يكن عجيبا أن يدور بعد ذلك حديث بين أبى بكر وبين أبيه أبى قحافة أقرب إلى العتاب والتقريع.

قال أبو قحافة لإبنه أبى بكر:يا بنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا،فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا أشداء يمنعونك ويقومون دونك.

وهو حديث معقول جدا بمقاييس أب مشرك لم يزل على دين قريش،طاعن فى السن،يرى ابنه - وهم عشيرة قليلة العدد - مهددا فى نفسه وماله،يتربص به أعداؤه ويعتدون عليه حتى أنهم يشجون رأسه،فيريد أن يكون له على الأقل بهذا المال الضائع فى الشراء والعتق نصراء أشداء من مواليه – أى عتقائه من عبيده السابقين – يقدرون على حمايته ودفع الأذى عنه فى تلك المحنة التى تحدق به.

فماذا كان جواب التاجر ابن التاجر،قال لأبيه:يا أبت إنى إنما أريد ما أريد لوجه الله عز وجل.

ولذلك لم يكن عجبا أن يروى ابن هشام أن ما قاله له أبوه وما أجابه به كان هو المقصود بتلك الآيات من سورة الليل:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

إن الحب العظيم هو التفسير الوحيد لهذا الصنع الذى يهلك به مال تاجر تحف به الأزمات والشدائد، ولا يدرى من أمره غدا،الحب العظيم وحده هو التفسير الذى

يستقيم به فهم سلوك تاجر حصيف أنساه اندفاع العاطفة تدبير التاجر وحصافته، فجعل متجره نشوة القلب ورضوان الضمير لا ساحات الأسواق وحساب الخسائر والأرباح.

البرهان الثانى:كان فيما حدث فى الإسراء والمعراج،وهو حادث سنحت فيه الفرصة لقريش أن تشكك أبا بكر فى صديقه محمد،آن لهم أن يقولوا:هل لك يا أبا بكر فى صاحبك؟انظر إلام وصل به الأمر،فقد أغراه تصديقك إياه أن يخرج على الناس هذه المرة بما لا محل للمماراة فى بطلانه الذى لا يقبله عقل،فأنت التاجر العتيد ليس أحد أعرف منك بطريق،وكم قطعته جيئة وذهابا،وما أحد أدرى منك بطوله الذى يستغرق شهرا للذهاب ومثله للإياب،وهذا صاحبك يزعم أنه ذهب إلى هناك وعاد تحت جنح ليلة واحدة.

هى الدامغة إذن ليس مثلها فى حسبانهم دامغة،وكان أول ما تبادر إلى ذهن أبى بكر: أنتم تكذبون عليه، فلكم افتروا عليه من قبل،ولكم جرب عليهم الإدعاء بالباطل على صاحبه،ولكنهم قالوا:بلى..ها هو فى المسجد يحدث الناس بذلك،فماذا كان من أبى بكر الحصيف الأريب العارف بالناس والديار والدروب،ومجرب الحياة الوقور:والله لئن قاله لقد صدق.

قالها مناقضا كل معلوماته عن مضمون ما يقول،مناقضا كل معلوماته عن المسافة وعن الوسائل وعن المدة،فعلى قياس العقل كل قضية إما صادقة أو كاذبة لذاتها بصرف النظر عن قائلها،وأبو بكر فى نظر الناس وتجربتهم ذلك العاقل أشد العقل،الفطن أشد الفطنة،اللبيب الذى لا تدخل عليه غفلة ولا تجوز عليه خدعة،وبهذا الحساب كان ينبغى أن يكون أشد المكذبين،فإذا به أشد المصدقين،ومن غير إلقاء نظرة واحدة على مضمون القضية التى يتحدث بها محمد،أى من غير

مراجعة لمقاييس العقل الحسابى الذى يقيس الغائب على الشاهد،ولا يسلم بأمر خارج على مألوف العادة فى التجربة.

ولكن الشك لم يداخل أبا بكر لحظة واحدة،وهذا العقل الحسابى لم يكن فى حسبانه حين قالها بغير تردد بعد أن رأى أنه استوفى حق هذا العقل كل الاستيفاء بالشك فى صدق زعمهم،أما وقد صار الأمر متعلقا بمحمد وحده،فليس للشك فى المسألة مكان،وليس فيها قولان،وإنما هو حكم لا يحتمل عنده نقضا ولا حاجة معه إلى برهان:والله لئن كان قاله لقد صدق.

قالها وهى بالنسبة لنفسه كافية،أما بالنسبة لهم فلابد لها من تبرير،ومن هنا أردف:فما يدهشكم من ذلك فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أعجب وأبعد مما تعجبون.

وهو تبرير من الواضح أنه يؤسس تصديقا على تصديق،ذلك أنه حين يتعلق الأمر بمحمد وحده،فلا محل عنده لغير التصديق،أما الشك فلسواه من الناس برهان جدلى مفحم،قائم على مقدمة ليس لها قدرها وقيمتها إلا عند المؤمن الذى انتهى من التسليم بصدق صاحب الدعوة ولم يعد ذلك محل مراجعة،وأبو بكر كان أول المصدقين به.

البرهان الثالث:وكان ذلك يوم الهجرة،فلم يتردد فى أن يكون رفيقه فى هذه الرحلة الصعبة،وكما يقول نظمى:«الذى آذنه به محمد إنما هو المخاطرة بالحياة على الأرجح،وهو بالقطع فراق الأهل والولد،وكما كان بقى له من أسباب الدعة والاستقرار، إنه النفى الاختيارى الذى لا تؤمن معه الغوائل على التجارة وموارد الرزق كلها،ولا تؤمن معه غوائل قريش على بنتيه وأبيه الشيخ الأعمى وأمه،وإنما هو الشظف والقلق.

إنما هى المحنة من كل وجه أتاه محمد يدعوه إليها،فما كان أحراه أن يفرق أو يتوجس،وعلى أقل القليل ما كان أحراه ألا يستطيره السرور بهذه القوارع الجسام،ولكن السرور استطار أبا بكر حتى بكى فرحا،وما عسى أن يكون منبع هذا الفرح الطاغى الذى يجرف دواعى القلق والحزن والتوجس والجزع حتى تنعدم وتتلاشى من جوانحه وهو الحصيف الأريب الذى يستبصر عواقب الأمور ويحسب لكل شئ حسابه بإحساس مجرب الحياة وفطنة التاجر؟

إنه ولا شك منبع من مستوى أعلى بكثير من كل هذه الأحاسيس والحسابات،وهى حسابات لا يكفى لإبطالها الإيمان العادى،فقد يكون الرجل مؤمنا ثم يأخذه الخوف على حياته أو ماله وولده،إنه إيمان من نوع خاص،إيمان المحب الذى استقطب حبه لمحمد كل كيانه وكل إحساسه وكل تفكيره،فحيث صحبة محمد يكون اقتحام الأهوال التى لا تتوقف دون الموت أحب إلى نفس هذا المحب من كل طيبات الأمن والدعة وطمأنينة البال على النفس والأهل،وأحب إلى نفسه مئات الأضعاف،حتى لا يكتف فى فرحه بأقل من الدمع المدرار.

ثم يتساءل نظمى لوقا:ثم ماذا كان من أمره بعد ذلك؟

والإجابة:ألعلها كانت دموع فرح من وحى اللحظة،حتى إذا ذهبت حدتها وراجع فكره ارعوى أو استأنى أو كف عن غربه،يقول ابن اسحاق:فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر بن أبى قحافة مخزجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته،ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه،ويقول ابن هشام:وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال:انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا،فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية،يقى رسول الله بنفسه.

وهى حادثة ناطقة بذاتها، إن هذا فعل المحب الذى يقدس حبيبه حتى ليفتيديه بنفسه فى غير تردد،وهو ما لا يشبهه صنيع إلا صنيع أم مفرطة الأمومة بوليدها تدفعها الغريزة – بغير تفكير أو تدبر – فى لحظة الروع أن تلقى بنفسها على مصدر التهلكة وقاء له إن كان ثمة وفاء،أو فداء له إن لم يكن فى الأمر حيلة دون الفداء،وهو صنيع لا يصدر إلا عن أسمى مشاعر الحب والولاء.

(٩)

كان أبو بكر فى مكه مكافحا ضد كثرة ساحقة باغية طاغية،وفى المدينة لعب دور المكافح ضد جانب من سكان المدينة الذين يخالفون الدعوة الجديدة ويصدون عنها،وأول هذا التصدى ما رواه ابن اسحاق:دخل أبو بكر الصديق بيت المدارس(وهو البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتابهم)على يهود،فوجد منهم ناسا كثيرا،قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم وأحبارهم،ومعه حبر من أحبار اليهود يقال له أشيع.أبو بكر إذن هو الذى دخل على اليهود مكان دراستهم الدينية.

فلماذا دخل؟

والإجابة:قال أبو بكر لفنحاص:ويحك يا فنحاص اتق الله واسلم،فقال فنحاص لأبى بكر:والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر،وإنه إلينا لفقير،وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر،وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا،وقال له:والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله.

ويعلق نظمى لوقا على ذلك بقوله: وما بأوضح من ذلك يكون التصدى والتحدى، يدخل على اليهود عقر دراهم وهم فيها جمع كبير فيدعو أحبارهم إلى الإسلام، وحين سمع ردا قبيحا فى حق الله لم يملك نفسه من الغضب وهو فرد وسط جماعتهم الكبيرة، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وتهدده بضرب عنقه لولا العهد.

غضب شديد لا يقيم وزنا للمخاطر، وهذا شأن النفس الجياشة التى إن مس شئ موضوع عاطفتها الكبرى لم تقم وزنا لشئ، وكأنما مس ذلك لغما شديد التفجر، وهو غضب نزل فيه قرآن: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

غضب ينسى كل شئ حتى ليفوته عزم الأمور وهو اللبيب الحصيف الأريب الوقور، وهذا نمط من سيرته فى صحبة النبى، وزيرا ومؤازرا وصاحبا ومشيرا ونصيرا، نمط حماسة لا تخمد وهمة لا تفتر وحب ليس له حد وغيرة كلها إقدام.

(١٠)

فى محنة الإفك التى تعرضت السيدة عائشة والرسول صلى الله عليه وسلم، التزم أبو بكر الصديق الصمت، ويسأل نظمى لوقا: لماذا صمت أبو بكر؟

يقول: إن صمت أبى بكر يلتبس عند غير الواعى بالجمود أو عدم الفعل، أو هو ما يسمونه برطانة هذه الأيام سلبية، وهو مع هذا فعل أقوى ما يكون الفعل، أو هو بتلك الرطانة إيجابية أقوى ما تكون الإيجابية؛ لأنه إحساس قوى جياش مضطرم له حاكم أقوى منه بين ملكات النفس وينابيعها، حاكم قد لا يقدره كل إنسان قدره، لأنه ينبوع فذ لا يرقى إليه إلا الأقلون، ينبوع ذلك الحب الفريد، والناس يتصورون سواهم على غرارهم.

والغريب أنه عندما بشر محمد عائشة ببراءتها لم ينطق أبو بكر أيضا وظل صامتا،وهنا يبرز جانب آخر من شخصيته،جانب الكرامة والترفع،فلئن قالوا : فهو يعلم أنه فوق ما قالوا،وما كل فرية كفؤ للرد عليها،ولا سيما حين تنزل إلى مستوى رمى الأعراض الطاهرة بأخس المفتريات وأقذرها،وبحسبه أن قد ظهر الحق.

وكان قصاراه حين وقع النبى الحد على كبار المرجفين بالإفك،وفيهم مسطح ابن خالة أبى بكر،أنه أقسم لا يعوله كما كان يفعل لفقره،فكانت تلك بادرة غضبه الوحيدة،وها هنا ملحظ لا تفوتنا عبرته العامة.

مسطح هذا ابن خالة أبى بكر،وأسير فضله لأنه يعوله ويعول أمه،ومسطح هذا من بين كبار مروجى هذه الفرية القذرة التى تصم أبا بكر،وتقمئه بما هو أنكى من القتل،أنقول :اتق شر من أحسنت إليه،نقولها نعم،ونقول أيضا:لا حيلة لك أمام شر بعض الأخساء،ولا سيما إن أنت أحسنت إليهم؛ لأنه يضمرون من الحقد على كل حال ما قد لا يجسرون على التعبير عنه،حتى إذا سنحت السانحة كانوا أدنأ الأعداء،بغير سبب ظاهر للبغضاء،إلا ما ينطوون عليه من غل ووضاعة،فكل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد.

ثم ملحظ آخر:ليذكر أهل الوعى أن ليس كل فرية قذرة لا تتلقى من المفترى عليه ردا فهى قائمة على أساس،فأهل الكرامة يترفعون عن النزول بأنفسهم إلى حضيض الاتهام،وكأنه شئ مشروع للمرجفين،وكأنهم بحاجة إلى الدفاع عن طهارتهم أمام كل وبش يخطر له الخوض فى أعراضهم بسوء نية،فهم أكرم على أنفسهم من هذا،ثم يجب ألا ننسى غضاضة الانشغال بهذه الدناءات التى تشبه المخاط،أن ترفعه تتقزز،وأن تتركه تتقزز.

لذا كان قصارى سخط أبى بكر أنه أقسم لا يعول ابن خالته الآثم،واستثنى أمه

لأنها كانت بريئة من ذنبه،ومع هذا كله فإنه حبا لمحمد،ولما يأتى به محمد،ما أن نزل القرآن يسأل:﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ،حتى قال أبو بكر بغير تردد:بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى،والله لا أنزع نفقتى عن مسطح أبدا.

(١١)

عندما مات الرسول،أقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر،وعمر يكلم الناس،فلم يلتفت إلى شئ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة،وهو مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة (نوع من ثياب اليمن) فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم،ثم أقبل عليه فقبله ثم قال:بأبى أنت وأمى..أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها،ثم لن يصيك بعدها موتة أبدا،ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال:على رسلك يا عمر أنصت.

فأبى عمر إلا أن يتكلم،فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر،فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال:أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات،ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت،ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

هذه صورة تناقلتها الألسن على مدى الأجيال،ورآها الناس بحق فتحا قائما برأسه،ثبت العزائم الواهنة،وأرسى قواعد الإيمان فى النفوس،فلا تميد بذلك الزلزال العظيم،واستخرج منها الأكثرون حقيقة شائعة،إن المفارقة تامة بين أبى بكر وعمر،وإن أبا بكر كان رجل الواقع حيث كان عمر رجل عاطفة.

وهذا كلام لا ينفذ إلى ما وراء السطح من سلوك الرجلين الظاهرى،فعمر كان

رجل عاطفة فى هذا المقام ولا مراء،ولكن أبا بكر كان أيضا رجل عاطفة فى هذا المقام بالذات على الخصوص،وعاطفته أقوى من عاطفة عمر وأعمق.

كانت عاطفة أبى بكر على مستوى أعلى،ليست عاطفة الجزع أمام مفاجأة،أو عاطفة إشفاق على النفس من هول ما منيت به من رزق لا كفاء له،وهو حال عمر،بل كانت عاطفة الإحساس بالواجب نحو محمد فى هذا الوقت العصيب،كانت عاطفة المشغول بمحمد لا المشغول بنفسه،كانت عاطفة من ينسى مصيبته على جسامتها وفداحتها ،فلا يذكر شيئًا سوى ما ينبغى لمحمد وقد ألم به طائف الموت،حذر امتداد يد الموت إلى أكثر مما لا حيلة لأحد فى ردها عنه وهو جسم محمد.

أما محمد المعنى،أما محمد المبدأ،أما محمد الدعوة،أما محمد الدولة،أما محمد الهادى،فذلك ما ينبغى ألا يسمح للموت بالاجتراء عليه.

إنها العاطفة الراقية التى تلزم صاحبها وتلهمه يقظة العقل والحس وضبط النفس وحضور البديهة،وتوقد القريحة،كى يكون نعم الحارس أمام هذا الغائل الرهيب،فلا يسمح له بتجاوز ما وقع فى يده فعلا،وهو على كل حال أمر لا محيص عنه،فلا جدوى من الجمود عنده،وما يستغرقه الجزع من همته هو أحوج ما يكون إلى استجماعه للقيام بالحراسة الواعية الضاربة لتراث محمد حتى لا يذهب بذهاب بدن محمد.

(١٢)

تمت البيعة لأبى بكر،فصار خليفة محمد،وبذلك أعطيت القوي لباريها،وصار أشد الناس حبا لمحمد هو بعينه حارس مجد محمد،والحفيظ على ما أرسى قواعده وما مثله فى الحياة.

بوحي هذ الحب نفسه وبوحي هذه الغيرة،وقف أبو بكر يقول للناس غداة وفاة النبى، على ما يذكره الطبرى:«أيها الناس...إنما أنا مثلكم وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق،إن الله اصطفى محمدا على العالمين،وعصمه من الآفات،وإنما أنا متبع ولست بمتبدع، فإن استقمت فتابعونى، وإن زغت فقومونى،وأن رسول الله قبض وليس أحد فى هذه الأمة يطلبه بمظلمة سوط فما دونها، ألا وإن لى شيطانا يعترينى ..فإذا أتانى فاجتنبونى».

وهو كلام رجل يقدر مسؤوليته التى لا مسؤولية مثلها تمام التقدير،فهو مدرك كل الإدراك حدود طاقته،ومدرك كل الإدراك ذلك الفارق بين ذاته وذات محمد،وبين وضعه ووضع محمد:«أيها الناس إنما أنا مثلكم»،ولا يعنى بذلك أنه مثلهم بشر،فقد كان محمد بنص القرآن مثلهم بشرا،بل يعنى أنه بشر ليس له مدد من الوحى ولا سند من العصمة:«وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله يطيق»،وكيف عساه يطيق ما كان محمد يطيق؟أليس الله قد اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات.

ذلك إذن جماع الفوارق بينه وبين محمد،محمد ليس كمثله أحد،وإن كان بشرا، لأن الله اصطفاه على العالمين من دون معاصريه جميعا،وخصه وحده بالعصمة من الآفات،أما أبو بكر فيجب أن يراه رعيته على حقيقته،رجلا مثلهم غير معصوم من الآفات والنقائص، وليس الله هو الذى اصطفاه وإنما هم الذين اختاروه وبايعوه وارتضوه.

فأين إذن يلتمس المرجع للإصابة والسداد،حيث لا عصمة من الزلل والآفات؟ محمد المعصوم ذلكم المرجع:وإنما أنا متبع وليس بمبتدع،ليس من عند أبى بكر ما يأمرهم به منذ اليوم،ولا عن هواه ورأيه يصدر،بل عن فعل محمد وقوله،فإن

أطاعوه إنها محمدا على الحقيقة يطيعون.

وشعار الاتباع هنا أوفق شعار لقوم حديثى عهد بدين تحول بهم عن دين أجدادهم،ولئن دانوا به فعن طاعة لمن ينطق بوحى السماء،أما وقد انقطع الوحى وصار الأمر لبشر منهم فلا أساس لولائهم ولا ضمان.

وتأسيسا على إقامة هذا المرجع الأوحد للسياسة والحكم،يجب أن يكون هذا المرجع فوق الجميع بلا استثناء،فوق أبى بكر وفوق جميع الرعية على السواء.

(١٣)

كان محمد عند أبى بكر بشرا يتمثل فيه المثل الأعلى،فما بلغه عن ربه وما قضى به وشرعه للناس هو الدستور الذى لا يرقى إليه ضرب من الشرائع والقوانين والآراء.

وذهب محمد البشر...وبقى قانون محمد سلطانا أعلى تعنو له كل هامة،ويتطامن أمامه كل بأس،ويطأطئ له كل رأس،ومنه ينبع كل سند شرعى للسلطان،فحينما تعلق الأمر بهذا القانون الأعلى لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون استثناء،فما النفس وما الولد وما كافة الناس بجانب هذا القانون والمثل الأعلى الذى يتحدى فيه أبو بكر الموت وعوادى الدهر بعد أن صار محمد رهين القبر؟

بهذا أخذ أبو بكر نفسه وأخذ خاصة أهله،وأخذ أولى الناس بالرعاية والحدب،فقد تدمع عينه رقة لهم ويتنزى قلبه،ولكنه لا يستثنى منهم أحدا فى الخضوع المطلق لما يأمر به هذا القانون الأعلى:قانون محمد بشريعة القرآن وصحيح السنة.

كان محمد أحب إليه من أهل الدنيا جميعا،لا يستثنى من ذلك الحب أحدا،لا نفسه ولا ولده،ثم مات محمد فكان حبه لمحمد المعنى الباقى محور وجوده ومحور

كل وجود فى نظرة جامعة بعامة،ولا يستثنى من ذلك أحدا،ولو كانت فاطمة بنت محمد.

أجل فاطمة بنت محمد،تلك التى أحبها محمد كما لم يحب أحدا من الناس،وهى بعينها التى ضرب بها محمد مثلا شرودا فى سيادة القانون:«والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

القانون فوق كل إنسان ولا استثناء،هكذا استن محمد وبهذا بلغ محمد عن ربه وأشهد الناس على ذلك،أو لم يكن محمد هو الذى دعا الناس إلى القصاص من شخصه بموجب هذا القانون،إن كان جلد لأحد منهم ظهرا أو لطم له خدا.

شخص محمد بموجب سنة محمد وشريعته كان خاضعا أتم الخضوع للقانون،وفاطمة بنت محمد كانت – بنص كلام محمد عنها وبروح شريعته – خاضعة أتم الخضوع لذلك القانون،وهذا القانون كل ما بقى من محمد بعد موت محمد ،فكيف يكون منه استثناء ولو لفاطمة بنت محمد.

ذهبت فاطمة إلى أبى بكر تطلب منه أن يمكنها من ميراثها فى أبيها،لكنه رفض وقال لها:يا ابنة رسول الله والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وأنه قال: إن الأنبياء لا يورثون،فقالت له فاطمة:إن فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال أبو بكر:فمن يشهد بذلك،فجاء عمر بن الخطاب فشهد،وجاءت أم أيمن فشهدت، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله كان يقسمها على آل بيته وعلى الفقراء والمساكين،قال أبو بكر:صدق يا ابنة رسول الله،وصدق على،وصدقت أم أيمن،وصدق عمر،وصدق عبد الرحمن بن عوف،وذلك أن مالك لأبيك،كان رسول الله يأخذ من فدك ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله،فما تصنعين أنت بها؟

قالت فاطمة:أصنع بها كما يصنع أبى،فرد أبو بكر:فلك على عهد الله أن أصنع كما كان يصنع فيها أبوك،سألته فاطمة:والله لتفعلن؟،فرد أبو بكر :والله لأفعلن،قالت فاطمة:اللهم فاشهد.

هذا موقف بالغ الشدة على أبى بكر.

لكنه انحاز إلى تطبيق قانون محمد،ولذلك استجمع شجاعة إيمانه وقالها صريحة حاسمة مدوية:لا استثناء لكائن من كان،ولو كان فاطمة بنت محمد.

قالها وعينه تدمع وقلبه يدمى،ولكنه قالها لأنه لم يكن له عن قولها محيص،مدفوعا فى إغضاب وحيدة محمد بحله الفذ لمحمد،واشتدت لواعج الألم لذلك الثمن الباهظ الذى أداه فى سبيل سيادة القانون،فصحب عمر بن الخطاب يسعيان إلى بيت فاطمة يريدان استلال غضبها بالمحاسنة والتبرير،لا بالرجوع عما رآه أبو بكر واضحا كالشمس وقت الضحى،واستأذنا عليها فأبت أن تأذن لهما.

فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما،فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط،فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام،فتكلم أبو بكر فقال:يا حبيبة رسول الله،والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى،وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى،ولوددت يوم مات أبوك إنى مت ولا أبقى بعده،أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ثم أمنعك حقك وميراثك من رسول الله،ألا أنى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لا نورث ..ما تركناه فهو صدقة.

فقالت فاطمة:أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به؟قالا:نعم،فقالت فاطمة:ناشدتكما الله.. ألم تسمعا رسول الله يقول..رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى؟

قالا:نعم، فقالت:إنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطمانى وما أرضيتمانى،

ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه،فقال أبو بكر:أنا عائذ بالله من سخطه وسخطك يا فاطمة،ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق،وخرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم:يبيِت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه؟لا حاجة لى فى بيعتكم ..أقيلونى بيعتى.

ما من عاطفة شخصية امتحنت بأحرج من هذا الامتحان العصيب،وثبت أبو بكر،لا بيعة صحيحة يمكن أن تسمح له أمام ضميره وأمام حبه لمحمد المثل والقدوة ومحمد القانون أن يقضى لبنت محمد بما يراه استثناء واضحا من قانون محمد ،إن قلبه ليتصدع حزنا وأسى،ولكنه مع هذا لا يملك ولا يستطيع هذا الاستثناء.



إسـلاميات
كاتـــب
مســيحي

5

عمر بن الخطاب
البطل والمثل والرجل

على الغلاف الداخلى لكتاب «عمر ...البطل والمثل والرجل» كتب الناشر أنه بقلم المفكر المسيحى الدكتور نظمى لوقا،كانت هذه صيغة جديدة لم أجدها فى أى من كتبه،سواء التى سبقت كتابه عن عمر أو التى لحقته.

لم يغير نظمى نص إهدائه كتبه،ظل كما هو:إلى السائرين فى الظلمة ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى ضحايا التعصب الجاهل الأرعن على اختلاف عقائدهم،لكن الجديد والذى يكشف أن الكتاب صدر فى وقت أزمة مر بها الكاتب،أنه طرح قبل أن يكتب سؤالا هو:لماذا يكتب مفكر مسيحى عن الإسلام وأقطابه؟فكأنه أراد أن يدافع عن نفسه أو على الأقل يؤكد الدفاع الذى ذكره أكثر من مرة قبل هذا الكتاب.

(١)

السؤال كان صريحا،والإجابة كانت كذلك.

يقول نظمى:فى مطلع كتابه «محمد الرسالة والرسول»، كتبت هذه العبارة:من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور،وهى حقيقة مستمدة من تجربة العقل الإنسانى،أيا كان لون هذا الإنسان أو جنسه أو ديانته،فما من تدين صحيح يملى على هذا المتدين أن يغلق عينيه،أو أن يفتحهما حين يجد ما يوافقه،ويغمضهما حتى لا يرى مالا يوافقه،أو أن يضع على عقله حجابا يعطل نفاذه،أو أن يجعل على ذمته رقيبا يلتوى بها كى لا يقول الصدق بغير جمجمة ولا لعثمة،أو يكتمه إيثارا للهوى وإهدارا للكرامة.

والإسلام بكل ثرائه مصدر له وزنه للحضارة الإنسانية،وموضوع للدرس والاعتبار،لا يخص المسلمين دون سواهم،بل إنه بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الأمينة منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة،ولا يشترط فى هذا العاقل

البصير طالب المعرفة أن يكون مسلما،فالإسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها،أما العقل فلا خصوصية له إلا معاييره النزيهة التى لا تعرف المجاملة ولا التحامل.

ويضرب نظمى لوقا مثلا حسيا مجسما لتقريب المسألة إلى ذهن من عساه يحتاج إلى هذا التقريب،يقول:جسمى ملكى ويخصنى فى المقام الأول بما هو جسم،بمعنى أنه لا يمكن أن يستخدمه أو يعيش به وبوظائفه الحيوية أحد سواء،مهما كانت درجة قرابته منى،أما حين يتعلق الأمر بمعرفة وظائف هذا الجسم،فهذه المعرفة لا شأن لأحد بها لمن يملك أسبابها ووسائلها ومنهجها،وقد لا أملك شئيا منها،فأكون أجهل الناس بجسمى الذى أعيش به،ويكون أدرى منى به الطبيب والعالم والدارس،حتى ولو لم تربطنى به صلة قرابة أو جنس أو لغة أو ديانة.

وكل ما يشترط فى هذا الطبيب أن يكون نزيها مخلصا باذلا أقصى ما يملكه من معرفة وفهم، وغبى ولا مراء من يحكم على طبيبى بأنه قريبى أو نسيبى أو تربطه بى عاطفة أو آصرة من الأواصر؛ لأنه يرى إخلاصه فى فحص جسمى ودراسة خواصه.

ومصدر خلط الناس فى أمر مثلى،ممن يدرس تراث ديانة غير ديانته أن الأمر يلتبس عليهم فى مفهوم الديانة،فالديانة عند هؤلاء المتعجلين فى الحكم عقيدة قوامها الانتماء الإيمانى ولا شئ آخر،ويغيب عنهم أن لها مفهوما آخر،إلى جانب مفهوم العقيدة الإيمانية،وهو أنها موضوع يصلح للدراسة المعرفية،وليس هناك ما يوجب إطلاقا أن يكون الدارس لهذه العقيدة منتميا إليها مؤمنا بها،لأن الدراسة شئ غير الانتماء الإيمانى،الدراسة نشاط معرفى،لا علاقة له أصلا بالانتماء الدينى

وهنا يجدد نظمى لوقا سؤالًا،إذ ما الذى يدعو مفكر مسيحى،أن يكتب عن الإسلام وأقطابه،ويجيب فى أسباب محددة:

السبب الأول: أنه يفكر والمفكر عالما كان أو فيلسوفا من حقه قطعا أن يعمل عقله وقدراته المعرفية فى كل ما له شأن وأهمية من الأمور،وتراث الإسلام وأقطابه ركائز لها أهميتها وأثرها الكبير فى أمور العالم وتطور تاريخها ولا سيما فى المنطقة العربية،فإذا كان هذا المفكر عربيا صار نظره فى هذه الأمور الخطيرة واجبا لا حقا جائزا مباحا فحسب.

والسبب الثانى:أنه مسيحى والمسيحية تأمر بالمحبة،للعدو والصديق على السواء،وأول مراتب المحبة هى التطوع وإيفاء العقيدة المخالفة حقها غير منقوص من التقدير والتقييم،فبذلك يكون هذا المفكر المنصف مخلصا لمسيحيته وروحها المتميزة بالسماحة والحب،مثلما هو مخلص فى الوقت نفسه لمهمته المعرفية ومنهجها العقلى النزيه المتجرد من الأهواء العمياء،من رضا أو سخط متى قاما على غير أساس صحيح من الإحاطة النزيهة بالموضوع.

ويقول نظمى:«فإذا كان المفكر المسيحى عربيا،فالداعى لهذه البحوث فى الإسلام بتراثه وأقطابه أوجب؛ لأنه عندئذ يعرف عشراءه ومواطنيه وقومه المعرفة التي ترضى العقل،وترضى سماحة المسيحية،وترضى الواجب القومى والوطنى على السواء.

وغير خاف أن تراث الإسلام حافل بما يعنى الإنسان،فليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من الخبرات والتجارب والقيم والسلوكيات،وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب،ويعنيه كل شعاع مضىء ينبثق منها لينير للبشر،بما هم بشر أيا كانت عقائدهم وقومياتهم التى تعقدت وتشعبت فيها المسالك وانبهمت فيها المعايير.

ولست أفهم كيف تستطيع أمة – كالأمة العربية – أن تعيش كما ينبغى أن تعيش

ما لم تعرف كل طوائفها،سواء من الأغلبية أو من الأقليات،حقيقة تراثها القومى الذى هو ملك للبشرية كافة،وهو من باب أولى قسط مشترك بين كافة طوائف الأمة العربية أولا،ولست أعقل أن يجهل قسم من أقسام هذه القومية العربية ما لدى القسم الآخر من فكر وفهم وقيم،فلا غنى عن المعرفة النزيهة بالجانب الآخر وقيمه وتراثه.

ولئن كان من عمل الدعاة والوعاظ أن ينشروا معرفة التراث بين المنتمين إليه،لمحو أميتهم المعرفية والفكرية بتراث ديانتهم،فليست هذه مهمة المفكر العلمانى،الذى ليس داعية ولا واعظا لبنى ملته،بل الأولى به أن يكون قدوة ومثلا لبنى ملته فى التعرف على تراث الملة الأخرى بكل الموضوعية والتجرد من التحامل،ليقدم لهم نفائس تراث هذه الملة التى تنفع معرفتها أبناء ملته،وأبناء الملل الأخرى على السواء؛ لأن منهجه عقلى نفسى موضوعى،والناس فى ملته وفى غيرها سواسية فى الهواء الذى يتنفسونه والماء الذى لا حياة لهم بدونه».

ويلخص نظمى لوقا كل ما يريده بعد ذلك قائلا:« ثم فليعلم من لم يعلم بعد أو لم يفهم أننى قد أكتب فى أمور تتصل بالدين عن قرب أو عن بعد،ولكنى لست كاتبا دينيا،ولا أمارس الكتابة بمنهج دينى،بل بمنهج فكرى ومن منطلق إنسانى،ومن المستوى الذى يعنى الناس كافة،ويشترك فيه كافة العقلاء...إننى مسيحى أجل..ولكنى لا أكتب بالنظرة العقائدية المسيحية،وأكتب عن الإسلام، ولكن ليس بالنظرة العقائدية الإسلامية،بل بالنظرة الإنسانية العامة،اكتب عن الإنسان للإنسان بما هو إنسان».

(٢)

وقبل أن يمرق نظمى لوقا إلى عمر بن الخطاب يوجه دعوة للجميع.

يقول: «أضيئوا جميع الأنوار، كي يرى كل طرف ما لدى الطرف الآخر على حقيقته بغير خفاء فتطمئن نفسه، ولا يبقى أى حاجز نفسى بين أصحاب الديانات، فالكل يعبدون الإله الواحد، وإن اختلفت الأساليب، إلا أن المعنى واحد، والمقصود واحد، ولكل فريق بعد هذا لانتهائه إلى عقيدته التى لا يجهلها الآخرون، ولا يسيئون فيها إلى الرأى عن جهالة، ولا تحف بها فى وهمهم الخرافة التحقيرية المزدرية بدافع الكراهية العمياء، وبذلك لا يكون لكل فريق إنتماؤه الإيمانى، مع التواد الذى لا تعشش فى كنفه بغضاء، ولا ينبت منه تعصب أعمى، يجمع بين الجهل والتهور، ويعبر عن سلوكيات عداونية شأن كل كراهية».

نظمى يرى أن الحاجز النفسى بين أصحاب الديانات والذى نشأ بين أصحاب الديانات بحكم فساد التربية النفسية والفكرية يقاوم إضاءة الأنوار، ويحرص على حماية الجهل، ويدافع عنها بإستماتة، فى الحالات الحادة من استفحال ذلك الحاجز النفسى، ويأبى أن يصدق كل حديث صادق عن حقيقة الآخر، وفى هذا شاهد عظيم الدلالة على أن الحقيقة لا تقنع إلا الإنسان المخلص فى طلبها والمستعد لتلقيها فى نزاهة وخلو من الهوى والتحامل، أما من احتشدت نفسه بالأهواء المغرضة، فالمعرفة النزيهة لا تجد عنده قبولا؛ لأنه أشبه بمن يضع على عينيه عدسات لاصقة ملونة أو ملتوية السطح، فلا يمكن أن يرى ما يوضع أمام بصره – مهما قربته منه وجلوته له – إلا ملونا أو ملتويا.

ويأخذ نظمى لوقا مما حدث معه شاهدا على فكرته الأساسية، يقول: «الذين أهلهم استعدادهم الفطرى للنزاهة أن يفهموا حملتى للتعريف والتنوير العقلى الموضوعى فى مجال الإسلاميات، وأن يتبينوا بفطرتهم النقية أنها ليست عملية تحيز لعقيدة أنتمى إليها، بعد أن ناديت فى كل كتبى أن انتمائى للعقيدة المسيحية لا خفاء

أو مواربة،ولكن غيرهم ممن تنطوى أعماقهم على التحيز لما ينتمون إليه من هذا الفريق أو ذاك،ولا يتصورون موقفا يعلو على هذا التحيز أو يتخلص منه،لذا ساورهم الظن أن وراءه واجهة عدم التحيز الفكرى التى أعلنها للناس سريرة متحيزة للإسلام والمسلمين،وكم مسنى من هذا ضيق وإعنات شديد،وليس الضيق والإعنات لما ينزل بمشاعرى الشخصية فحسب،فما كان أهون هذا،بل الجانب الأكبر من هذا الضيق مصدره ما أشعرنى من أننى أرمى بما أحاربه فيهم،أى أننى أتكلم لغة عربية لا يفهمها من أخاطبهم،وإننى وقفت جهدى لقضية محكوم عليها بالعقم؛ لأن العامة غير مستعدين لها».

وللأسف الشديد يعترف نظمى لوقا إعترافا جارحا للغاية له ولكل من يكتب،يقول:«وكلما سمعت نبأ فتنة دينية فى جزء من الوطن العربى انتابنى الاكتئاب وشعرت أنى لبثت قرابة ربع قرن أنفخ فى قربة مقطوعة».

لكنه كان يقاوم هذا الاكتئاب من خلال قناعته بأنه يكتب فى الإسلاميات لسببين كما قالهما هو:

أولا:لأنى أؤمن بما نادى به السيد المسيح،قبل أن تخرج القذى من عين أخيك، أخرج أولا الخشبة التى فى عينيك.

ثانيا:أن من أراد الإصلاح فليصلح أهله قبل أن يصلح سواهم من الناس،ليتعقب أهله بالإصلاح مهما اشتد،فهو مجلبة نفع لهم،إذ يعلمهم الإنصاف، وهو مصلحة لهم قبل أن يكون مصلحة لمن ينصفهم.

(٣)

ومن أسئلة نظمى العامة عما يفعله،إلى سؤال أكثر تخصصا عن عمر،وهو :لماذا كتاب جديد عن عمر بن الخطاب؟

وكانت الإجابة كما قالها هو:«من حق أى قارئ عربى أن يتساءل:ولماذا يكتب نظمى لوقا كتابا عن عمر بن الخطاب،وقد سبق إلى الكتابة عنه فى هذا العصر عالمان شامخان من أعلام الفكر والأدب،هما عباس العقاد وحسين هيكل...؟وهل تركا قولا لقائل؟

وهو سؤال له وجاهته،والإجابة عنه تقتضى نظرة هادئة إلى علاقة أى كاتب بالموضوع الذى يتناوله،ومجمل هذه العلاقة أنها علاقة فكر لا منهج معين،ونفس لها مزاج معين ومن ثم له رؤية معينة للموضوع،ولقد كان ما يكتبه هيكل أقرب إلى السيرة التى تتعقب الأحداث والأعمال بالرصد والتسجيل والتحليل،وتنتهى إلى تقييم شامل متوازن.

وأما العقاد فلم يفارقه حس الشاعر،وحماسة العاشق،وهو يعمل فكره فى تصوير شخصية عمر وتفسيرها،فلم يفارقنى الإحساس أننى أمام موكب ملكى رائع أقامه العقاد لحبيبه عمر،وحشد له طاقته المذهلة فى المنطق والبلاغة وسحر البيان،فجاءت عباراته أشبه بعربة مذهبة تجرها الجياد المطهمة،ويحف بها الفرسان الدراعون الصناديد.

ويتساءل نظمى:«أفأكتب عن عمر سيرة أخرى،أبارى بها الدكتور هيكل،ليس هذا اتجاهى،ولا أرب لى فيه،ولا حاجة إليه أيضا،ففى السيرة العمرية التى كتبها الدكتور هيكل كفاية لا أحس حاجة معها إلى مزيد،وليست الزيادة عليها ميسرة لمن شاء،فالصمت إذن أولى».

ما قدمه نظمى فعلا عن عمر كان عبارة عن رؤية إنسانية محض،مدنية محض،تتناول عمر بن الخطاب من حيث هو بشر يتمثل فيه مستوى رفيع من الصفات الإنسانية تجعل منه مثلا رفيعا لكل من يتطلع إلى المثل الرفيعة فى السلوك

والنهوض بالأعباء الجسام.

رؤية تنحصر فى تبين عمر الإنسان الذى تعم فائدة التعرف إليه البشر جميعا،فهى ليست رؤية أدينية بعينها ما قد يرتفع بعمر بن الخطاب عن المستوى البشرى،وما قد ينسب إليه من صفات ووسائل خارقة لا يتيسر الإنصاف بها لكل إنسان.

الكرامة فى هذه الرؤية هى كرامة البطل،وتفوق سلوكه لا مصدر له إلا ذلك التكوين البطولى،الذى لا يستمد مكانته من القدرات الممتنعة على سائر الناس،بل من الاحتشاد الإنسانى المحض للمستوايات التى يلتزم بها من تلقاء نفسه،ويندب لها نفسه قياما بحق النخوة والمروءة،ووسائله لتحقيقها هى – على الخصوص – وسائل إنسانية متاحة لسائر الناس،إن هم راضوا أنفسهم على تكاليف الأخذ بها،ولا ينفرد بوسائل اختص بها دون سواه؛ لأنه بذلك الإنفراد بالوسائل والموارد لا يكون المثل ولا يكون الرجل ...بل المعجزة.

ويؤكد نظمى على ما قدمه:«ليس لأحد أن يتوقع منى سيرة لعمر،ولا قصيدة إنبهار بعمر،بل دراسة لسمات البطولة عموما من خلال صورة عمر ومواقفه،وكيف وجهت فطرة البطولة فى ذلك البطل المطبوع مراحل حياته،وكيف شكلت وكيفية أفعاله وتصرفاته.

إن عمر عند نظمى لوقا بطل مطبوع على البطولة،ولكنه أيضا صاحب مزاج نفسى خاص،يمارس به بطولياته،وهنا يجد المتأمل المجال واسعا لتمييز ما يصلح أن يكون من تصرفاته مثلا للناس كافة؛ لأنه ليس تعبيرا عن مزاج تفرد به عمر الرجل فحسب،بل هو تعبير عن تجاوزه لذاته إلى النمط الموضوعى الذى يستوى فى الانتفاع به،والإخلاد إليه سائر العقلاء على اختلاف دياناتهم وأمزجتهم النفسية.

عمر الرجل فرد له ذاتيته الخاصة كسائر الناس،أما عمر البطل فهو احتشاد لهمة

ترتفع فوق الذاتية المحدودة لتجسيد مبدأ موضوعى يسمو فوق الاعتبارات الذاتية الخاصة،فسمة الرجل أن يكون العمل معبرا عن ذاتيته ومزاجه الخاص وأحواله المعينة،أما سمة البطل فإن تتجاوز ذاتيته ومزاجه،فيكون مثلا لكل بنى البشر،تلغى فى مواجهته الحوائل والحواجز الذاتية والفئوية.

(٤)

هذه مشاهد متفرقة من حياة عمر لكنها فى النهاية مشاهد تضع أيدينا على ما أراده نظمى لوقا إيضاح البطولة والمثل والرجولة لدى عمر.

يسأل نظمى:«أى الفتيان كان عمر؟...إن أى فتى يشترك فى تحديد شخصيته تكوينان أو تأثيران،أحدهما تكوينه الجسدى وما ركب فيه من قدرات وميول فطرية،والآخر تكوينه البيئى،وما أثرت به ظروفه الاجتماعية فى تشكيل هذه الطينة الفطرية لتقوية جانب منها،وكف جانب آخر أو مصادرته أو قمعه بعض الشئ وكل الشئ،فيتمخض هذا التفاعل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب عن كيان محددالسمات».

أما عن تكوينه الجسمانى فقد كان عمر مفرط الطول،فاره البدن،قوى البنية قوة تفوق المألوف وتلفت النظر كما يلفته طوله البائن،حتى قيل: أنه كان يمشى بين أقرانه فكأنه راكب وهم مشاة،وفيه عنف وخشونة واندفاع إلى الغضب وسرعة بديهة ونفاذ فراسة ولطول ساقيه وقوته الحيوية والعصبية كان واسع الخطو،لا يلاحقه السائرون معه،فلا تكون لهم حيلة إلا السير فى أثره كأنهم فى ركابه.

وأما البئية التى شب عليها هذا الفتى العملاق الغضوب القوى البأس،وإلى أى حد شاركت فى تنمية هذه العناصر من تكوينه،وإلى أى حد كفت بعضها أو علت من مساره،حتى صارت له أنماط سلوكية لاصقة بشخصيته؟

فهو فتى عربى قرشى،نشأ فى مكة موطن قريش،التى كانت تضرب لها أكباد الإبل فى شتى أنحاء الجزيرة فى مواسم الحج والتجارة،ولكن قريشا فى ذلك العهد كانت بطونا وعشائر متباينة ليست سواسية فى القوة والجاه والشرف والثراء،فمن أى البطون كان عمر؟

لقد كان من بنى عدى بن كعب....وبنو عدى هؤلاء من البطون ذات المكانة والسمعة فى قريش،ولكنهم لا يتولون شيئا من المناصب الكبرى فى القبيلة الأم،فقد استأثر بهذه المناصب من السقاية والسدانة واللواء،ومنع إلى ذلك بنو هاشم وبنو أمية وبنو مخزوم،ثم هم لا يملكون ما يعوضهم عن المناصب العليا ثروة طائلة، ولكنهم مع هذا من ذوى الوجاهة،فى الصف الثانى إن جاز هذا التعبير الحديث.

والعهد فى القبائل – ولا سيما فى زمن الجاهلية – أن تتنافس البطون والعشائر داخل القبيلة الواحدة تنافسا عنيفا ضاريا،فما لبثت عشيرة بنى عدى فى زمن والد عمر بن الخطاب أن أجبرت على الجلاء عن منازلها التى كانت تحتل موقعا ممتازا بين أراض مكه،والنزوح إلى موضع بعيد عن الأمكان المرموقة،ليقيموا فى جوار بنى سهم،وبذلك هبطت مكانتهم فوق هبوطها،بسبب قلة أعدادهم وقلة أموالهم،ولم يبق لهم من الوجاهة إلا ظل محتد قديم ونسب عريق ، وليست لهم عدة بين العشائر والبطون إلا الاعتداد بالكرامة التى يتشبثون بها رغم رقة الحال،فيزيد ذلك من حساسيتهم وشعورهم بالمضاضة والغبن والبخس.

ومن شأن هذه المشاعر أن تؤجج فى أصحابها حدة الطبع والأنفة والحمية،ولكن قلة ما تحت يدهم من الحول والطول والعدد والعتاد يجنح بهم إلى التحامل على النفس وإيثار صيانة المكانة المهددة ما وسعهم ذلك بالوقار والحكمة والرزانة .

ولذلك كان القوم من قريش ينتدبون قومهم من قريش لمجالس التحكيم ووفود

المفاوضة أو السفارة،وهى مهام تضفى عليهم ما يعوضهم عن الحرمان من المناصب الكبرى فى الدين والحرب والاقتصاد،صحيح أنها مكانة فى الصف الثانى،لكن أصحابها يقبلونها على مضض،ويرحب أى فرد منهم بالمجال الذى يتيح له إبراز كفاءته أو قدرته الشخصية ما وجد إلى ذلك سبيلا،ليخترق حاجز الفاقة والخمول النسبى الذى ضربته المنافسات القبلية على رهطه،ولينجو من ذلك التوتر الحاد بين الكبرياء والبخس.

وهنا يأتى سؤال،حول تفاعل تكوين عمر البدنى والنفسى مع هذه البيئة الاجتماعية والنفسية؟فالفتى عملاق خارق القوة،وهذه كلها عناصر تجعل إحساسه مضاعفا بوطأة التوتر بين الكبرياء والبخس،فلا عجب أن يجنح تكوينه الخارق للعادة هذا إلى أن يجد متنفسا لهذا التوتر الذى يضغط على نفسه،بعض هذا المتنفس يتيحه له المجتمع القرشى الجاهلى،وهو مهام السفارة والتحكيم،ولكنه لا يتيحه له بصفة خاصة،بل لأى فتى فى مثل نسبه من عدى،ومن الطبيعى وهو متنفس عام غير خاص أنه لا يرضى كل الإرضاء فتى شديد التفرد فى صفاته مثل عمر.

وعليه فقد ذهب عمر ينشد لنفسه المتنفس الفردى الذى لا يتاح لأى فرد آخر من قومه،وهو حلبات المصارعة ومبارياتها،فغدا مصارعا مرموقا متفوقا لا يثبت له خصم،ولو كان صاحب هذه القوة الخارقة التى لا يقف أمامها أحد خاليا من الفطرة الخلقية،لسلك المسلك الذى يغرى الكثيرين من أقوياء البنية،فغدا معتديا يستثمر قوته الخارقة فى الإرهاب وابتزاز الإتاوات،أو لغدا قاطع طريق مثير كثيوين من صعاليك العرب،ولكنه لم يمارس قوته إلا فى مباريات المصارعة العلنية التى يشهدها الناس،وليس فيها أى لون من ألوان الغيلة أو الغدر أو الاستغلال الشخصى الرخيص.

كانت لدى عمر فطرة خلقية،وهى الفطرة التى يكون لها انتماء وولاء لقيمة عليا تتجاوز الذات، أى تعلو بسلوك صاحبها عن الانصراف إلى لذاته ونوازعه الذاتية،التى لها نظائر عند سائر الحيوان،بل تجعل له حدودا لا يتعداها ولاء لهذه القيمة.

لكن ماذا كانت هذه القيمة؟

لم يكن زمان فتوة عمر وشبابه زمان حرب وكر وفر،فلم تكن هناك إذن قضية عليا يوجه إليها عمر طبعه المنتمى فى ساحات النضال، فلم تبق أمامه إذا إلا المتنفسات المتاحة فى مجال السلم،وهى الإسراف فى الخمر،أو الإغراق فى إتيان النساء بالإكثار من الزواج،وكلاهما مصرف قوى لطاقة العملاق الجارفة،فهى أيضا كالمصارعة،مباريات فى الشراب ومصاحبة الغوانى والتنافس عليهن.

كان عمر إذن بطل مطبوع،ولكنه لا يجد القضية التى تتجلى فيها روح البطولة،من الولاء ونصرة القيمة العليا،فذلك الفتى الجاهلى فى زمن السلم والأمن يشعر أن شرف القبيلة مصان لا يتهدده خطر من أى نوع،فالقبائل كلها تبجل قريشا،وهو لا يعرف قيمة أعلى من شرف القبيلة يكون لها ولاؤه وانتماؤه،ويمارس فى إعلائها روح بطولته.

إلى جانب ذلك كان عمر بن الخطاب شديد الاعتداد بنفسه،مع يقظة فى الحس والذهن تضارع قوة بدنه،ومع فراسة صائبة تتجاوز طاقة المحيطين به كما تتجاوز خطوته الواسعة خطواتهم،وكان اعتداده بنفسه وبرجولته مقترن بأنه لا يعتد كثيرا بالنساء وإن رغب فيهن،فهن فى إحساسه أدوات أو دمى أو وسائل،قد تكون لاذة وقد تكون نافعة،وقد تكون إليها حاجة ولكنها ليست ذات بال،بل لا تسمع لها كلمة،مخلوقات هى فى نظره من الدرجة الثانية.

ويبرر نظمى لوقا هذه النظرة الدونية التى كان يبديها عمر للنساء بقوله:«ولم يكن عمر فى هذا شذوذا خارجا عن المألوف بين رجال زمنه،ولا كان ذلك علامة على قصور أو جمود فى التصور والتفكير،فهذا هو المعلم الأول أرسطو لا يجعل للمرأة - سامحه الله - أكثر مما جعل لها الرجال فى الجاهلية عموما ولا سيما عمر».

ثم أن هناك أمرا آخر،وهو أن تكوين عمر الرجل لا يسمح له بأن يكون عاشقا متيما هائما،فهو لاعتداده بنفسه يستخدم المرأة،ولكنه لا يترك لها زمام نفسه،ومقاليد لبه،ولكنه قادر على الود،لمن يودهم ويقدرهم من الرجال،إلا أنه ود من يملك مشاعره ورشده وأحكامه تمام الامتلاك،فليس لإنسان مهما أحبه عمر أن ينسيه يقظة ذهنه وصدقه ونزاهته فى وزن الأمور.

كان عمر كذلك شديد الحمية والغيرة،والغيرة من طباع ذوى الحدة والحمية واتقاد الطبع والاعتداد بالنفس،إذ يلحق بالاعتداد بالنفس حماية ما فى الحوزة،وأشرف ما فى الحوزة العرض والسمعة،ومع حدة الطبع توجد لدى القوى الخارق القوة غلظة وصراحة لا تعرف المداراة لأنه لا يجد أمامه أحدا يحوجه إلى تكلف المداراة،ولكنه فى مقابل هذا أيضا صفة نابعة من فطرته الخلقية،هى محاسبة النفس،حيث لا يجرؤ أحد على محاسبته،وكانت هذه الفطرة هى الشعرة التى تفرق بين البطل والوغد،وهذه الفطرة الخلقية هى التى تقوم بالمراقبة والنقد الذاتى،لدى ذلك الرجل الذى لا يجسر على مساءلته وتحدى جبروته وعنجهيته أحد.

(٥)

ولأن عمر كان يدافع عن شرف القبيلة،فقد تصدى للرسول محمد ولصحابته، عندما خرج ليدعو قريش أن ينبذوا عبادة الأوثان ويعبدوا إلها واحدا،كانت هذه قضية شاحذة لهمة عمر ولروح البطولة فيه،كى ينبرى للدفاع عن شرف القبيلة،

وهو عنده القيمة العليا التى لا يعرف يؤمئذ قيمة أعلى منها فى الوجود،ولم تكن هناك أى غرابة أن يكون عمر الجبار البطل المطبوع من أشد الناس عداو ة لمحمد ودعوة محمد،التى يسميها دين الإسلام.

ويسأل نظمى لوقا:«أكانت عبادة الأصنام أهلا لاستثارة كل هذه الحمية فى نفس عمر بن الخطاب،الذى كان معتدا بفطنته وفراسته ويقظة حسه،بحيث يصب كل جبروته على أتباع محمد،وهم أناس ضعفاء،فيهم النساء والأحداث والشيوخ وكلهم مسالمون لا من أهل البغى والعداون؟».

والإجابة:«أكبر الظن أن الأمر لم يكن بهذه الصورة،فمثله لا يمكن أن يخفى عليه أن هذه الأصنام حجارة صماء لا تضر ولا تنفع،أليس هو الذى كان بعد الفتح وفى عهد خلافته،ما أن يطوف بالكعبة ويأتى إلى الحجر الأسود،حتى يقول له:لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»،فهو فى حسبانه حجر لا يضر ولا ينفع،فإذا كان هذا مبلغ يقظة عقله وحسه فى مناسك الدين الذى آمن به وجاهد فى سبيل نصرته،فأين كانت يقظة عقله وحسه فى عهد الوثنية؟»

لا تفسير لذلك كله يقبله العقل،سوى أن هذه الأوثان لم تكن ذات حرمة لديه لذاتها،أى من حيث هى أوثان وأحجار،بل من حيث هى رموز،لشرف القبيلة وتراثها وتقاليدها ومكانتها الموروثة المصانة،شأنها شأن الراية،التى هى خرقة من القماش مثل الخرق التى تستخدم فى أحط الأغراض،ولكن قيمتها ليست فى كونها خرقة من القماش،بل فى كونها رمزا للوطن أو الجيش أو الفريق الرياضى وما إلى ذلك.

ولذلك فلم يكن جبروت عمر وعتوه على المسلمين عن إيمان منه وطيد بالأوثان،بل عن إيمان منه وطيد بأعلى قيمة عرفتها نفسه حينذاك،وهى شرف

القبيلة التى سفه محمد أحلامها وحقر آلهتها،فكان شرف القبيلة هو القضية الكبرى أو القيمة العليا التىْ اعتقد عمر أنه لا قيمة تعلو عليها،فهى أجدر بأن توهب لها كل حميته وروح بطولته؛ لأنها باتت فى خطر واضح صريح مثل خطر الحريق،هكذا كان اعتقاده،وهو اعتقاد أشبه بالفجر الكاذب الذى يحسبه الساهر الفجر الصادق،وهو ليس كذلك.

(٦)

وكان لابد للفجر الصادق أن يأتى.

وكان لابد أن يجد البطل قضية حقيقية لحياته.

لقد أسلم عمر فى لحظة،عندما سمع القرآن يتلى فى بيت أخته،لكن نظمى لوقا يرى أن هذه الرواية توهم أن ميل عمر إلى الإسلام كان من تأثر اللحظة،وهو فى الحقيقة أمر لايسوغ فهمه على هذا الوجه السطحى،بل جاءت هذه اللحظة بمثابة الذروة لتأثيرات تراكمية تتابعت على المدى الطويل،فى سريرة ذلك العملاق النافذ البصيرة،فأقرت فى نفسه المرة تلو المرة،وفى الموقف تلو الموقف أنه وهو المحارب الذى لا يقوم له أحد ولا ينال ما وراء ظهره على حد تعبير معاصريه،وهو نفسه أمام سلاح سرى من نوع جديد وغريب عليه تماما،يجعل أضعف الخلق بنية أعصى على الهزيمة ببطشه من الجبابرة ذوى البأس الشديد.

كان عمر يجرب مرة أخرى موقف العجز،فى الوقت الذى أراد فيه أن يقضى على شعوره بذلك العجز الساحق لكبريائه،بقتل مصدره محمد،ها هو يجد ذلك السلاح الذى يشعره بالعجز التام متمثلا فى أقرب أهل رحمه إليه،فى شخص أخته،التى ما زادها الشج وتدفق الدم إلا تحديا له أن يصنع ما يشاء.

ها هنا انحسم الموقف ، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير وليس الفعل

للقشة فى حد ذاتها،بل لما كان قد تراكم قبلها فوق ظهر البعير من الأحمال التى وصلت إلى أقصى طاقته،فلما أضيف إلى هذه الأحمال الثقال المتوارية فى سريرة عمر ذلك الثقل الجديد،كانت هذه هى الضربة القاضية.

لم يكن المخرج إذن قتل محمد،بل المخرج هو الانضمام بجبروته إلى محمد،فها هنا قضية إيمان كونى تتجاوز قضية القبيلة وتراثها،ها هنا القضية التى تستحق أن توهب لها حياته وتحتشد لها بطولته الفطرية.

وهكذا حدث الانقلاب فى نفس عمر،فإذا أشد الناس على المسلمين،وقد بات أشد الناس على أعدائهم واعتاهم فى الذود عنهم،ونصرة ما يؤمنون به ويدعون إليه.

لقد أيقن عمر أن المعسكر الذى يليق به هو معسكر الإيمان بالقيمة العليا التى تدبر الكون ويمتد بها سلطان الروح فيرفع البشر من مستوى الحيوان الفانى الهالك،إلى مستوى الخلود والبعث وحمل التبعات والاعتصام بالمبادئ الكونية،وليس المعسكر الذى يجعل الآدمى حيوانا زائل الوجود،يعيش ثم ينفق،ثم لا يكون بعد ذلك إلا عدما،لن تكون حمية البطل المطبوع فى نصرته لقضيته الكبرى أقل بلاء مما كان فى مناوأتها وخذلانها،وهو حقيق أن يكفر عن ذلك العتو فى حربها بالاستماته فى تأييدها والنضال فى سبيلها.

(٧)

عندما دخل عمر بن الخطاب الإسلام لم يخفِ إسلامه بل أعلنه،ولم يكن إعلان إسلامه هذا مسألة إعلان للكافة فحسب،بل هى حركة أشبه ما تكون بجر الشكل مع حلفائه السابقين،فهو لا يكتفى بإطلاق من كلفه بنشر خبر إسلامه – وهو جميل بن معمر – هكذا فى القوم،بل يتدخل ليزيدهم غيظا وتحرشا،كأنما يغريهم بافتتاح

المعركة القتالية معه.

يقول نظمى: «ألم أقل أنه قوة ضاربة متحدية، لا مانعة رادعة فحسب، وتكاثر عليه القوم، وهو يجالدهم ويجاهدهم بمفرده حتى الظهر، فأصابه الإعياء، فيكون قوله لهم أشبه بالاعتذار عن نفاذ طاقته لكثرتهم: لو كنا ثلاثمائة رجل مسلم لناجزناكم، فإما أجليناكم عن مكة، أو أجليتمونا عنها».

كانت هذه مرحلة جديدة إذن فى الدعوة الجديدة، مرحلة التحدى والحرب من جانب المسلمين، لا من جانب المشركين، كما كان الأمر من قبل، وهكذا كان إسلام عمر بداية مرحلة التحدى والتصدى لا مرحلة الموادعة والمدافعة، ولولا والد عمرو ابن العاص، وهو العاص بن وائل بن سهم الثرى والوجيه الأمثل، لما انتهى ذلك اليوم هكذا، فقد ذب عنه الناس وأجاره، ومن عجب أن عبد الله بن عمر عندما سأل أباه بعد الهجرة إلى المدينة بعد سنين، من هذا الرجل جزاه الله خيرا، كان رده العجيب هو فلان وأردفها بقوله: لا جزاه الله خيرا.

وهذا الاستدراك أدل على مزاج عمر الرجل ذى الطبع المعين والذاتية المعينة من أى تعبير آخر، فهو لا يستهويه ويأسره معروف الرجل الذى لا شك فيه، بل يدعو عليه، فليس يغفر له فى نظره مهما فعل أنه لم يسلم ومات على الشرك، وهذه سمة عمرية، لا يشاركه الكثيرون فيها، وهى عدم التسامح بأى ثمن ولأى مقتض مع أعداء إيمانه، أى أعداء القيمة العليا التى صارت قضية البطل الكبرى ومدار حياته وبطولته.

(٨)

عندما أدركت قريش أن إسلام عمر كان فاتحة مرحلة جديدة، أشد خطورة من ذى قبل، وادعى لاستنفار قواها وحشد جهودها للمقاومة، ولولا حماية بنى هاشم

لمحمد لكانت قريش أقدمت على العلاج الحاسم الذى فكر فيه عمر،حين توشح سيفه ليقتله ويقضى على الفتنة بأن يقتلعها من جذروها،وما تحب قبائل قريش أن تنشب فيها حرب أهلية دموية،ولكن قريشا قبيلة المعاملات والتجارب،فليكن حربها إذن لآل محمد وحماته تقوم على المقاطعة المدنية فى المعاملات والتجارة.

لا تزاوج مع بنى هاشم،ولا بيع ولا شراء معهم...هو الحصار المدنى والاقتصادى إذن،إلى حد التجويع،وكتبوا بهذا العهد وثيقة علقوها فى بيت أوثانهم بالكعبة،فكان ذلك من قريش مواجهة سلمية ردت بها على المواجهة التى نمت تحت حماية عمر بن الخطاب وحمزة،بإلحاح من عمر،وكان من نتيجة هذا الرد السياسى الاقتصادى العنيف من الأغلبية الساحقة على الأقلية المسحوقة،أن تراجع من المشركين من حدثتهم أنفسهم بالإسلام متشجعين بمظاهرة عمر.

هى حالة حرب إذن،لها كل مقومات الحرب فيها عدا الاشتباك العسكرى،وهى حرب قاسية لم يعد للرحمة ولا لصلات الرحم فيها مكان،ولم يكن عمر إلا ميالا فى طلب الإشتباك أيا كانت نتائجه،ولكن قيادته التى تستلهم وحى السماء كانت ترده عن عمل يعرض الجماعة كلها للخطر الذى لا يقف دون الفناء إذا انجرفت إلى ما يدعو إليه عمر.

فى فترة هذه المحنة التى طالت أكثر من ثلاث سنين،بدأ البطل المطبوع يتمرس بشئ لم يعهده اندفاعه الفردى من قبل،ألا وهو الانضباط والطاعة لما يؤمن بأنه أمر صادر من مستوى فوق مستوى البشر،وهذا ما يهون عليه الخضوع والإذعان،فلم يكن عمر خليقا أن تطيب نفسه بالطاعة لبشر مثله يدب على قدمين،لولا الإيمان الجديد الذى ملك عليه نفسه.

***

(٩)

طوال السنوات الشداد التى عاناها المسلمون فى مكة،كان عمر لا يزيد على أن يتحمل هذا العسف والضيم والمصادرة،شأنه شأن بقية المسلمين،ولا ينبرى للاشتباك فلو أنه كان منه شئ من ذلك لما فات الرواة أن يرووه عنه.

فهل كان هذا السكوت مناقض لطبع البطل المطبوع عمر؟

ويجيب نظمى لوقا:«بطولة عمر كانت مندفعة بغير زمام ولا لجام،قد تطامنت واتجهت إلى الداخل،إلى قمع هذه الاندفاعات الحيوية الجامحة،لكى تخضع وتستسلم،أليس الإسلام أن يسلم المرء لله وما يأمره به؟إنه الآن أسلم،وعليه أن يمتثل لما يصدر إليه من أمر الله،على لسان نبيه الذى آمن به،مهما خالف هذا الأمر ما ينزع إليه طبعه الجامح،ولست أتصور عمر فى هذه السنوات ساكن النفس ولا يجيش بالرغبة فى الاشتباك بالكفار،بل أتصوره دائم النزوع والثورة على هذه السلبية ولكن من يقوم بترويضه يزجره ويرد اندفاعاته،فيجعل طاعته امتحانا لإيمانه وتسليمه».

كان عنف الاضطهاد مدعاة لعنف إثارة طبع.عمر العنيف،وهذا مقياس يبين صرامة ذلك الترويض الذى تعرض له،فما أشبهه بالترويض الذى يتحكم فى ثورات البراكين ويرغمها على قمع شواظها الجامح،وظل عمر إلى أن صدر الأمر بالهجرة إلى المدينة التى أسلم كثير من أهلها وبايعوا على نصرة النبى ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وآلهم،فهاجر فيمن هاجر.

أغرى عنف عمر بعض المؤرخين أن يزعموا أنه خالف أمر نبيه فى الاستخفاء عن الهجرة،فقالوا : هاجر الجميع مستخفين إلا عمر،تنكب قوسه وتوشح سيفه وتحدى القرشيين فى دار الندوة أن يتبعه منهم من شاء أن تثكله أمه،ولكن رواة

السيرة من الثقات لا يروون شيئا من هذا،وهو الدليل على أن البطل قد تخرج تلك السنوات من مدرسة الترويض،وصار أهلا لطور جديد.

ويذهب نظمى لوقا إلى أن الكف الشديد لجبروت عمر واندفاعاته لم يكن من الممكن أن يلغى حيويته الدافقة التى كانت موظفة فى اندفاعاته الجامحة طوال حياته حتى تلك الحقبة،والقانون الطبيعى أن القوى الطبيعية العاتية التى تقمع مظاهرها فى شكل معين لا يموت،بل تتخذ هذه القوى العاتية مصرفا آخر لها غير المصرف المسدود.

فلئن صادر الترويض سمات عمر الباطشة،فلابد أن قواه النفسية الجارفة اتخذت لها مجالا لنشاطها غير مجال الفعل البدائى،وليس أمامها فى هذه الحالة غير المجال الشعورى والذهنى،وهكذا ارتد نشاط حيويته إلى داخل سريرته،عوضا عن الاتجاه الخارجى،فانكب طوال تلك السنوات على تأمل مشاعره وأفكاره وتعميقها ومراقبة خواطره ونوازعه مراقبة يقظة غاية اليقظة حتى لا يفلت منه زمامها،فتخرج عن النطاق الذى رسمه النظام العام،فلم يكن مباحا فى آيات القرآن حتى ذلك الوقت قتال المشركين،ولم يحل سفك الدم،بل هى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،ودفع الأذى بالتى هى أحسن،وذلك نقيض نزالية عمر التى طبع عليها.

(١٠)

تمت الهجرة فبدأت مرحلة جديدة حاسمة فى تاريخ الإسلام،ومرحلة جديدة حاسمة أيضا فى جهاد البطل المطبوع الذى أصبح مروضا منضبطا فى تلك السنوات العسيرات التى سبقت الهجرة.

فبالهجرة لم يعد الإسلام مطاردا مضطهدا،بل صار له حمى مستقر مصون من

الأنصار فى يثرب،لاذ به المهاجرون وتآخوا معهم وصار أمام عمر مجال للنشاط مختلف عن المجال الذى كان يستثير نفسه فى مكة، كاختلاف الأمن والأمان عن الضنك والمصادرة.

وفى هذا الإطار الجديد يصبح لعنصر من أهم عناصر شخصية عمر الجديدة نشاط بارز مستفيض،وهو ما كان يتميز به دواما من حدة الذهن،واستقلال الرأى، وصدق الفراسة التى انصرفت كل قواه النفسية الجارفة إليها فى سنوات الترويض، وهى أمور تدعو إلى الحاجة الملحة فى تأسيس الدولة وسياسة الرعية،والاتصال بالمخالفين والتعامل مع المخالفين،وفى المدينة يثرب لأول هبوط المهاجرين إليها،كان فريق كبير من أهلها الأوس والخزرج،قد أسلموا ولكن بقى سائرهم على الشرك،وكان على أرباض المدينة معقل اليهود،فكان التعامل مع هؤلاء وهؤلاء يحتاج إلى الراى وإلى الكياسة وحسن السياسة.

وفى هذه الأمور بدأ يبرز نفاذ بصيرة عمر،وحسن دهائه رويدا رويدا،إلى جانب ما يدعو إليه الحال من الاستعداد لحرب قريش عندما يأتى أوان الحرب.

(١١)

وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم ظهر عمر بن الخطاب إلى جوار أبي بكر.

يقول نظمى لوقا:«كان أبو بكر يفهم ويعرف جيدا مكانته عند عمر،وضخامة رصيده عنده،بحيث لا يتأثر هذا الرصيد بأى مقدار يسحبه منه،لكن ما أن يتخذ أبو بكر قراره،حتى يكون عمر أشد العاملين على إنفاذه،وأعنف المبادرين إلى عقاب من يخرج عليه».

وهكذا كان اختلاف طبع عمر عن طبع أبى بكر،وكان اختلاف منهج عمر الإبداعى المتصرف عن منهج أبى بكر المتبع عضدا وسندا لأبى بكر وعونا له لا

تقويضا لمضائه وفتا فى عضده.

حتى ما كان من أمر خالد بن الوليد،حين ظفر بمالك بن نويرة مع ما قيل عن إسلامه وقتله،وتزوج بإمراته على الفور،فأثار ذلك غضب قريبه عمر بن الخطاب،ورآه عدوانا واستغلال نفوذ فاحش،ولم ير أبو بكر ما يدعو لإغماد سيف سله الله،فلم يعزل خالد ولم يحاكمه ولم يفرق بينه وبين امرأة مالك بن نويرة كما يريد عمر.

كان عمر عنيفا فى سخطه على خالد،وهجم عليه وهو داخل إلى حضرة الخليفة،فنزع السهام التى يزين بها عمامته وكسرها وهو يندد على ملأ من الناس بخيلائه،وبأنه لم يكفه أن قتل امرءًا مسلما حتى نزل على امرأته.

ولم يقتنع بما كان من هوادة أبى بكر،واكتفائه بأدراء دية مالك بن نويرة،ثم رد السبى،ثم أعاد خالدا إلى إتمام حروبه ضد المرتدين،وظل عمر يلح على أبى بكر فى عزله،إلى أن أمره أبو بكر أن يكف عنه،ولكن غضب عمر لم يسكن،وظل يندد فى مجالسه بخالد،ويفتى بأنه يستحق الرجم على الزنا.

وقد قيل: أن عمر كان يغار من خالد فى سريرته،ولسنا نرى بشرا معصوما كل العصمة من نوازع الغيرة،والغيرة بين ذوى القربى معهودة شائعة،وهى بين الإخوة قد تكون أشد ما يمكن،وخالد من أخوال عمر لأنه من بنى مخزوم،وهو أيضا ابن عم أمه حنتمة،ولكننا لا نلجأ إلى تفسير موقفه بالغيرة،ولا نجد تفسيرا طبيعيا آخر لهذه الشدة العمرية فى أمر خالد.

لكن نظمى يشير مرة أخرى إلى هذه الواقعة،يقول:«ما عرفناه من نفسية عمر يجعلنا نوقن أن غضبه على خالد ثمرة طبيعية لطبعه وتقديسه لعقيدته،وفى مثل هذا الموقف لا ينقاد عمر لأبى بكر،بل يرى الصواب فى جانب غضبه لله وللدين،فهو

ليس إذن غضبا على خالد أساسا،بل غضبه عليه فرع عن غضبه لله ودينه،وهو ليس غيرة من خالد؛لأن غيرة عمر الصادرة صدورا طبيعيا جدا من طبيعته وطبعه إنما هى غيرة على العقيدة،لا من شخص أيا كان.

وظل هذا رأيه وإن ترك المسئولية لصاحب المسئولية الأولى،إلى أن تولى الخلافة فكان أول ما صنعه عزل خالد عن القيادة العامة،إنه الشعور بالمسئولية،ويقول نظمى:«إن الشعور بالمسئولية وبالفراغ الذى تركه النبى،هما اللذان جعلا عمر يطامن مثاليته قليلا حين نصح بالتساهل فى أمر الزكاة،فى مقابل بقاء أولئك الناس على إسلامهم بسائر أركانه،أما فى أمر يتعلق بصميم مسئولية القائد العسكرى،مثل قتل من أعلن إسلامه والزواج بامرأته ولم يجف دم زوجها،فمسألة لا تفسر على أنها تساهل مع جماعة أو قبيلة تريد أن تساوم،فى وقت ارتدت فيه قبائل كثيرة فطرحت الإسلام جملة،بل تفسر على أنها التواء بشرع الله عندما ينتهكه ذو قوة وبأس شديد،فتداس قدسية الدين الذى سوى بين الناس.

ويصبح الشرع نافذا على الضعفاء فحسب،وتصبح القوة هى الحق،وذلك ما كان عليه أمر الجاهلية،فكأنما ارتد أمر الحكم الإسلامى إلى الجاهلية بهذه التفرقة،إنه الإسلام بالإسم فحسب إذن،وقيام الجاهلية تحت قناعه،إذ أن معيار القيم عند الناس هو ما يمسهم منها عند تطبيقها وذلك هو البلاء الذى لا يمكن أن يسكت عليه عمر.

عمر الذى يطبق الشرع على الأقوياء قبل الضعفاء،وإلا عد نفسه دنيئا خسيسا،يستضعف الضعفاء،ويتحامى إغضاب ذوى السلطان وما هكذا نفسية البطل،لكن من ها هنا تبدأ البذرة النفسية للبطل الذى سيصبح المثل السائر على الدهر فى بطولة العدل والعفة والتقشف وإذلال فتنة السلطان».

(١٢)

وأصبح عمر هو الخليفة،وفى خلافته بلغ فى نسكه وتقشفه مدى قلما بلغه أحد،ولم يكن ذلك لنقص فى حبه مناعم الحس وطيبات العيش،فقد كان جسد فره وقوة حيوية عارمة،ولكن الذات الدنيا كانت كالفرس القوى الشموس الذى يصعب أن ينتاد إلا لفارس له من الشكيمة ما يفوق فى قوته قوة ذلك الفرس وشموسه،وكانت ذات عمر العليا التى فيها فطرته الخلقية وإيمانه هى هذا الفارس الذى لا يشق له غبار،ولا ينقاد لغيره الجواد الجبار.

كان عمر فى لبسه الخشن غير المهند من الثياب،وفى طعامه الخشن الذى كان يبذل لعامة المسلمين ما هو أفضل منه،ذلك العنيف على نفسه الذى يرقب نزواتها بحذر،ويعلم سوراتها وجماحها،فلا يفلت لها زماما ولا ينام عن خطراتها طرفة عين.

فلم يكن التزامه بذلك العيش الخشن مبالغة فى التدين،بل إنه كان يعرف الحلال ويرد نفسه عنه،كما يرد السجان سجينه المشاغب إلى الخبز القتار والحبس الإنفرادى فى زنزانة.

وبطبيعة الحال يحتاج الفارس الذى يروض الفرس القوى العنيد إلى العنف والغلظة والجبروت،وهكذا كان عمر غاية فى العنف والغلظة والجبروت على نفسه،وهو إذ يأخذ نفسه بالغلظة والعنف،لابد أن يبدو للناس بادى الغلظة والعنف فى تعامله معهم؛ لأنه شأن المثاليين جميعا،يرى أن المبدأ الأعلى لابد أن تكون له السيادة بغير هوادة عليه وعلى الناس كافة،وهذا التجرد من الهوادة يصدم الناس منه،لما فى ذلك من غلظة،وإنه لو علموا على نفسه لأفظ وأغلظ وأعنف.

ولأنه صار أداة صرفا للحق،فهو يطلب من الناس ذلك،وقد صار المسئول البشرى الأعلى عنهم،بعد رحيل صاحبه،وإن الناس ليرونه شديد العنف بهم فى

الحق،ولأنهم قريبو عهد بالنبوة،فللحق عليهم سلطان لا يدفعونه،لذا يتقبلون منه هذا العنف ولا يتمردون عليه،وإن صاروا ميالين إلى نقده وتسقط الأخطاء،ولكن عمر أشد تيقظا ونقدا لنفسه،فمن أين يجدون عليه مأخذا،وهو الأسوة لهم فى كل شئ؟

ويقول نظمى لوقا:«وإنا لنراه تنبه بفطرته الألمعية إلى أن دولة الإسلام دولة إيمان،وليست ملكا،تنبه إلى الفرق بين الخليفة والملك ، وهو لا يرى الملك بذلك المعنى إلا خائنا كذاك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا،وهو فى يقظته لهذا الفرق حاسم،أدرك تمام الإدراك أن الملك قد يقوم على القهر والغلبة،كما كان الحال فى الجاهلية عند العرب،وفى إمبراطوريتى الفرس والروم،أما دولة الإيمان فلا تقوم إلا على الإخلاص للعقيدة بحيث يكون الحق هو مناط السلطة ويكون الحكم كله لله».

(١٣)

لابد من الإشارة إلى ما كان من عمر فى عام الرمادة.

يروى ابن سعد الشئ الكثير من شدته على نفسه وعلى أولاده فى تلك السنة،لئلا يتميز عن الناس المطحونين بالقحط،حتى أنه فى تلك السنة لم يأكل إلا الخبز الجاف والزيت،حتى هزل بدنه الفاره وتغير لونه.

ويروى الطبرى بإسناده عن أبى هريرة :يرحم الله ابن حنتمة (أى عمر) لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت فى يده،وإنه ليعتقب هو وأسلم،فلما رآنى عمر قال:من أين يا أبا هريرة؟قلت:قريبا،وأخذت أعقبه حتى انتهينا إلى صرار،فإذا صرم (خيام منعزلة) نحو من عشرين بيتا من محارب،فقال عمر:ما أقدمكم؟قالوا:الجهد،وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويا،كانوا يأكلونه،ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها،فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر،فما زال يطبخ لهم

حتى شبعوا،فأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة،ثم كساهم،وكان يختلف إليهم،وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك البلاء.

لقد حرص عمر فى عام الرمادة ألا يأكل وحده داخل بيته أبدا،بل يولم للناس من بيت المال،ويجلس ناحية لا يأكل مما يأكلون،بل أقل عادة مما يأكلون،ويمر به رجل من أصحابه فيدعوه إلى طعامه الخاص،فيتورط الرجل ويأكل معه الخبز الجاف والزيت،وعامة الناس تأكل اللحم،فإذا عاتبه قال له:إنما دعوتك إلى طعامى أنا،وذاك طعام المسلمين.

وكان يصنع هذا حتى يعرف الناس أنه لا يأكل خلسة خيرا مما يأكلون،بل الأمر بالعكس،أكان بهذا يرجو ثناء الناس؟أهو رثاء الناس،كلا ..بل هو العمل على أن يثقوا بعدل الحاكم وإيثاره،لأن الثقة بالعدل لا تقل قيمة عن العدل فى حد ذاته،إن قاعات المحاكم مرفوع فيها فوق رءوس القضاة:وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

وهى مكتوبة كى يثق الناس بالعدل،وعلنية القضاء مطلوبة لهذا السبب،لأن الخفاء مظنة السوء،والثقة بالعدل أساس الحمد، بل إنه ليس العدل فحسب،بل جمع إليه حب الناس أيضا والرحمة بهم والغيرة الآكلة عليهم،فنعم ولى الأمر عمر، وهكذا يكون أبو الأمة ولى الأمر فى مقدرته وحكمته وغيرته ويقظته وفطنته وحزمه ونزاهته وبره ورحمته ....وإلا فلا.

(١٤)

فى إدارته لأمور المسلمين،كان عمر بن الخطاب يعزل الولاة والأمراء مخافة الفتنة،وأخذا بالأحوط،جعل سياسته فيهم نقيض مبدأ القضاء فى الجرائم،فهو لا يأخذ المتهم بالشبهة،بل بالبينة القاطعة،وكل شك يفسر لمصلحة المتهم ويؤدى

لبراءته لعدم كفاية الأدلة،أما الولاة فهو يأخذهم بالشبهة لأن الأمر لا يتعلق بضرر يلحقهم،بل يلحق الحكم والدولة بأسرها،..«وهان أمر يصلح الناس أن يبدلهم أميرا محل أميرا».

ومن هذا نفهم أن عمر نظر إلى الأمراء نظره إلى نفسه،فهو فى نظر نفسه أداة للحق ودولة الإيمان وخدمة الناس كافة،وهم فى نظره أدوات لخدمة الناس من رعيتهم،مجرد أدوات وأيما ضرر خيف من أداة،فالأحوط طرحها واتخاذ غيرها.

وأما رأيه فى الحاكم الفاسد الخرب الذمة الذى يستغل منصبه أو نفوذه،وما يجب أن ينزل به من العقاب،فيرويه الطبرى بسند مرفوع إلى موسى بن عقبة،على النحو التالى:أتى رهط إلى عمر فقالوا:كثر العيال واشتدت المئونة فزدنا فى أعطيتنا،فقال عمر:فعلتموها جمعتم بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال الله عز وجل،أما والله لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر،تذهب بنا شرقا وغربا،فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم،فإن استقام اتبعوه وإن جار قتلوه،فقال له طلحة:وما عليك لو قلت إن تعوج عزلوه،فقال عمر:لا القتل أنكل لمن بعده.

ويقول نظمى لوقا:«وحسبك هذا إعظاما للنزاهة،وكراهة ومقتا للجور وفساد الحكم،ولكن هل كان غير منطوي على حب أو مودة أو تقدير لهؤلاء الرجال الكبار، ومنهم أمين الأمة أبو عبيدة،وسعد بن أبى وقاص الذى كان من الستة الذين حصر فيهم عمر الترشيح للخلافة،بل كان يحبهم ويقدرهم،وينادى ببراءتهم من كل ناحي،ولكنه يفصل بين الحب ومصلحة الدولة،فهم بمنظور العمل ومصلحة الدولة مجرد أدوات،كما أنه هو أداة عليا وحذره من نفسه الدنيا وفتنتها لا يفتر،أما بمنظور شخصه فهم محبوبون أثيرون،وهو لا يخلط بين ما يخص شخصه وما يخص مصلحة الدولة،ألم أقل لك إن أمره مع الولاة عجب؟..ولكن إذا عرف

السبب...ونعم ولى الأمر عمر..ونعم المثل للحاكم الحكم الأمين هو.

(١٥)

من أهم ما كتبه نظمى لوقا عن عمر بن الخطاب كان عن تعامله مع أهل الذمة.

يقول نظمى:«كانت حرية العقيدة سائدة فى عاصمة الإسلام نفسها على عهده،فعاش فيها أفراد من النصارى ومن اليهود،معظمهم من أصحاب الحرف أو الأسرى الوافدين من الفتوح،وحسبك أن أبا لؤلؤة الذى قتل عمر يقال: أنه كان عبدا نصرانيا،وأن غيره من الأحرار كانوا فيها من النصارى وبعضهم من اليهود».

بل كان لعمر عبد نصرانى نجيب اسمه أسبق،عرض عليه عمر أن يسلم ويتخذه عاملا له على بعض الأمصار،فأبى أن يترك النصرانية،فما كان منه إلا أن أعتقه لوجه الله الكريم وقال له:اذهب حيث شئت.

وفيمن بقى من اليهود بالمدينة كان شيخ أعمى رآه يسأل،فتألم عمر وقال:ما أنصفناه ..أكلناه لحما ونرميه عظما.

ثم أمر بتسجيل سائر أمثاله من العجزة الذميين كى يكون لهم من بيت مال المسلمين ما يكفيهم الحاجة،وما كان اليهود أحب الذميين إليه بطبيعة الحال،وهذا هو معنى أنهم أهل الذمة وهو يتأدب فى هذا بأدب نبيه الذى قرر أن من آذى ذميا كان النبى خصمه يوم القيامة.

فإذا تركنا المدينة رأينا قبيلة تغلب العربية،التى سيكون منها الشاعر الأخطل فيما بعد باقية على النصرانية لا ترضى عنها بديلا،ويذكر الرواة أن الأخطل كان فى بلاط بنى أمية يعلق فى صدره صليبا ضخما،وأنفت تغلب أن تدفع الجزية،فاللفظ لا يتفق وما للعرب من أنفة وحمية،وأبوا إلا أن يؤدوا الصدقة،التى يؤديها المسلمون،واشتد الخلاف وانتهى الأمر إلى أدائهم صدقة المسلم مضاعفة،وليس هينا أن يلين عمر لهم

هذا اللين،حفظا لكرامتهم وصونا لأنفتهم ويروى عنه أنه قال:نحن نسميها جزية،وسموها أنتم ماشئتم.

ولكن الأمر انتهى إلى أنها الصدقة الواجبة على المسلم مضاعفة،وما كانت الجزية إلا ما نسميه اليوم بدل التجنيد،أى مقابل قيام المسلمين بالدفاع عن الذميين عسكريا؛ لأنه لا ينخرط فى سلك الجندية بالدولة الإسلامية- والدولة يومئذ دينية لا قومية- أحد من غير المسلمين،إنها ضريبة الدفاع وضريبة الأمن،ومقطوع بأن الذميين فى ذلك العهد كانوا لا يدركون أيضا أن الدولة دينية لأن القومية لم تكن قد برز مفهوها بروزه فى العصور الحديثة،ولذا كانوا يقبلون تلك الجزية فرحين،وأما موقف التغالبة فمرده إلى الأنفة العربية والمجد التالد فيها.

وكان الوليد بن عقبة حين غزا بنى تغلب قد فرض عليهم الإسلام،فشكوه إلى عمر،فأنصفهم وأدان الوليد بن عقبة،فالدين لا يجوز أن يفرض على أهل الكتاب بالسيف،إلا من شاء الإقامة بجزيرة العرب نفسها،فهو مخير بين الإسلام أو الإرتحال عن قلب الجزيرة إلى أطراف العراق أو الشام،وما كان التغالبة فى قلب الجزيرة،ولكنه اشترط عليهم ألا يمنعوا أحدا من أفرادهم إن أراد اعتناق الإسلام.

وكان لهذا الإنصاف العمرى أثره،فمنهم من أسلم ومنهم من ظل على نصرانيته،ولكنهم رفضوا مسبة الجزية،وذهب وفد منهم إلى المدينة لمفاوضة عمر،وتوسط على بن أبى طالب عندما اشتد الحوار، وقال لهم عمر فى حسم:أما نحن فنسمى ذلك جزية،وسموه أنتم ما شئتم.

فالآن على قلب عمر وقال له:وماذا تريد منهم وقد ضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة،فرضى منهم بالصدقة بدلا من الجزية.

وبيت القصيد من هذه الواقعة أنه كان حريصا على عدم إعنات المتمسكين

بنصرانيتهم،وكل ما هناك أنه كان لأسباب تتعلق بالسياسة العليا قد قرر ألا تقيم قبائل غير مسلمة فى داخل الجزيرة العربية،زيادة فى الحيطة،حتى لا يوجد ما يمكن أن يكون طابورا خامسا فى قلب الدولة لحساب المتربصين.

وقد بدأت سياسته هذه مع أهل نجران فى جنوبى الجزيرة العربية،وكان النبى قد عاهدهم على الجزية،فكلف عمر عامله يعلى بن أمية أن يجلى أهل نجران إلى حيث يختارون من الأرض التى بها قوم على ملتهم خارج جزيرة العرب.

وشدد عمر على يعلى بن أمية ألا يجبرهم على الإسلام،ولا يغريهم أو يضغط عليهم ليفتنهم عن دينهم،فوافقوا على الارتحال إلى العراق،وكتب عمر إلى عامله هناك أن يوسع لهم فى الأرض التى يختارونها بما يسعهم وييسر لهم الحياة وسط جيران من ملتهم.

وكان مما أوصى به يعلى بن أمية أيضا أن يشترى منهم بمقابل سخى ما يتركونه من العقار والأموال التى لا تنقل،وأن ينقلوا معهم صلبانهم وأدوات شعائرهم كما يحبون ويشتهون.

وكذلك فعل أيضا بعشائر اليهود أو جيوشهم الباقية فى الجزيرة بخيبر أوفدك فأجلاهم إلى الشام مع أشباههم من أهل دينهم هناك،وأجزل لهم التعويض عن ممتلكاتهم وأرضهم،ولم تكن أسبابه من قبيل التحامل أو التعصب،بل هو إجراء لأمن الدولة،فى عصر كانت الدول فيه دينية لا وطنية ولا مدنية،وللدليل على نفى التعصب عنه أنه كان يساوى فى الخصومة أمامه بين اليهودى وعلى بن أبى طالب نفسه عند القضاء بينهما،فمثله لا يظن به التحيف والتعصب.

ثم نأتى إلى سياسته فى أرض أهل الكتاب التى فتحها المسلمون،فهم فلاحون يزرعون تلك الأراضى ويعيشون منها ويمتلكونها ويتوارثونها،وكان الأمر جاريا

على عهد النبى – بموجب سورة الأنفال – على تخصيص الخمس من الغنائم للنبى أو الخليفة بعده،وتقسم أربعة الأخماس على الجند الذين تم على يدهم الفتح،وها هو فتح مبين شمل سواد العراق،فلا عجب أن يتوقع المجاهدون الفاتحون ذلك التقسيم للفيء ويرونه سنة،بل أمرا سماويا نص عليه القرآن فى تلك السورة.

ولكن عمر برؤيته الاقتصادية والسياسية وبعده عن الطمع العاجل والتعصب، رفض هذا الرأى؛لأنه رأى فى ذلك مضيعة لأهالى تلك البلاد،وإنشاء فى الوقت نفسه لطبقة من كبار الملاك من المسلمين المعاصرين،ثم لا يجد سواهم من المسلمين فى يدهم شيئا،لأن ملاك هذه الأراضى الجدد سيورثونها أبناءهم.

وأيد صديقه عبد الرحمن بن عوف رأى الجند والقواد فى التقسيم،ولكن عمر أصر على رأيه محتجا وبحق أنه لتفتح أراض واسعة كهذه بعد عهده،فماذا عن المسلمين بعد عهده؟وهل تسود الطبقية والتحاسد بينهم؟

وطلب جنوده التحكيم بين أهل الشورى وبسطوا القضية ثم قال عمر:إنى أعوذ بالله أن أركب ظلما،ولكنى رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى،وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم،فقسمت ما غنموا من أمواله بين أهله،وأخرجت الخمس فوجهته على وجه،وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون إلى الأبد فيئا للمسلمين،المقاتلة والذرية لمن يأتى بعدهم ،أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها؟أرأيتم هذه المدن العظام لابد لها من أن تشحن بالجيوش ولابد من إدرار العطاء عليهم،فمن أين يعطى هؤلاء إن قسمت الأرض بينهم.

وهكذا فرق عمر بين النص الذى يتصل بالعقيدة والعبادة،والنص الذى ينظم مصالح الناس،فرأى أنه إذا تغيرت أوجه المصالح،كان الأوجب والأوفى بالذمة

والأمانة وحق الله هو الأخذ بالأصلح،وكانت نتيجة هذا برا بأهل تلك البلاد،وقد دخلوا فى ذمة المسلمين،فبقيت لهم أرضهم،يؤدون عنها الخراج،ويؤدون عن أشخاصهم الجزية،وهم بعد هذا فى أمان الله.

(١٦)

وفى النهاية وتحت عنوان «مات عمر ..عاش عمر» ،يكتب نظمى لوقا:«على غير توقع طعن عبد فارسى موتور عمر بن الخطاب،وكثرت الأقوال فى أمر مصرعه أهو مكيدة سياسية من خصوم العرب المهزومين الذين زال سلطانهم وملكهم على يديه،أم هى جريمة فردية.

وما اهتز عمر بل كان مثلا راقيا رائعا للشجاعة فى مواجهة الموت،وشغل نفسه بتدبير أمر الدولة من بعده كى تنتقل السلطة العليا انتقالا هادئا إلى خليفته الذى يختاره أهل الشورى الذين عينهم.

أجل مات عمر والموت نهاية كل البشر،ولكن لئن مات عمر البطل وعمر الرجل فليحى عمر المثل ما بقى للعظمة فضل مشهود وذكر ممدود وهمة يستحق صاحبها الثناء والخلود».



إسلاميات
كاتب
مسيحي

6

عمرو بن العاص
قائد طموح.. مع المغنم دائماً

تمسك نظمي لوقا بالإهداء الشهير الذى يضعه فى كل كتبه عندما بدأ كتابه عن عمر بن العاص وهو:«إلى السائرين فى الظلمة ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد وأيضا إلى من يقدسون الحق ويغارون عليه ولا يعدلون به شيئا».

وفى توطئة بين يدى الكتاب يصف نظمى عمرو بن العاص بأنه كان عدة رجال على رجل واحد،فهو ابن أبيه ابن النابغة والجاهلى جواب الآفاق وسفير قريش وعدو الإسلام والمقر بالإسلام ومحطم الأصنام والقائد وفاتح فلسطين وفاتح مصر ومؤسس الدولة والمخلوع وصاحب خدعة التحكيم وصنو معاوية فى جاه الدنيا.

وهذه عنده مستويات شتى من الشخصية البشرية الواحدة،يكاد يكفى كل مستوى منها لحياة رجل بأكملها،واجتماعها كلها فى حياة رجل واحد بعينه أمر يدعو للدهشة فى حد ذاته،وإن كان مرد هذه الدهشة إلى ضخامة من حيث الكم - إن صح هذا التعبير - لأنه يوجز فى فترة عمر رجل واحد ما كان يصلح لجملة أعمار أو لجملة رجال.

لكن هذه الدهشة - على جسامتها - تتضاءل حتى لتكاد تتوارى بجانب دهشة من نوع آخر،وتلك الدهشة التى يثيرها النظر فى كنه هذه المستويات المختلفة من مجالات العمل والسلوك،فإذا اختلاف يصل فى كثير من الأحوال إلى درجة التناقض الفادح ولا أريد أن أقول الفاضح.

ويتساءل نظمى:«كيف يمكن فى نظر العقل الفاحص أن يلم امرؤ على شعث أطراف تلك الخلال كلها فى شخصية متسقة لم تظهر عليها بادرة من بوادر الصراع أو الفصام؟وكيف يصح فى نظر العقل الفاحص أن يكون عمرو المجاهد المؤمن هو عمرو الذى يسقط من اعتباره كل وزن لمصلحة العقيدة ومستقبل نقائها،وصلاح أمرها كى ينضج لنفسه على نار الفتنة التى أوضع فيه مغنما من جاه الدنيا وسلطانها

مهما كان جسيما»؟

وتأتى الإجابة:«هذا على الأقل حقيق أن يدعو للدهشة التى ليست مثلها دهشة،أما التناقض الآخر،أعنى انقلاب الكافر عدو العقيدة إلى مؤمن بها مجاهد فى سبيلها،فليس مما يثير دهشة العقل الفاحص لأنه انقلاب فى الاتجاه الطبيعى الذى سلكه كل مؤمن بعد أن كان يرفض الإيمان ويلج فى المكابرة والعناد،فما أشد ما صلح إيمان عمر بن الخطاب بعد أن كان جبارا عنيدا فى كفره وعدائه للإسلام والمسلمين،وما أشد ما صلح إيمان خالد بن الوليد وهو بطل قريش يوم أحد،وغيرهما كثيرون تغنى فيهم الإشارة عن الإحصاء....ذلك أن الإيمان طور طبيعى بعد طور الكفر».

ثم يعود نظمى إلى عمرو،فهو عنده وللمرة الثانية عدة رجال فى رجل واحد،لا يكاد يلم شتاتهم المتباين إلى حد التناقض شئ من الأشياء،ومع هذا جمعهم فى كيان واحد ذلك الرجل الذى حقق من كبار رجال الأعمال ما يجعله جديرا بمكانة بارزة بين أعلام العرب،أليس قد غير وجه الدولة العربية،ومن ثم غير وجه الحضارة والتاريخ إلى يومنا هذا،إذ هو صاحب الفكرة الثاقبة فى فتح مصر،ثم هو فاتحها فعلا بما يشبه المعجزة العسكرية؟

أليس عمرو هو الذى غير وجه التاريخ مرة أخرى تغييرا حاسما فى الدولة العربية الفتية حين انتشل بالرأى الحاذق والحيلة البارعة مصير معاوية من مهاوى الهزيمة،وأرسى خطاه على طريق النصر،فأحدث الحدث الذى لا يدانيه حدث فى تاريخ الإسلام والعرب،إذ تحولت الخلافة الديمقراطية الجمهورية الصائرة إلى الإشتراكية، فصارت ملكا عضوضا يتوارثه آل بيت واحد،لا مكان فيه للديمقراطية، وإنما هو الاستبداد وتسلط الفرد،ونظام المجتمع فيه أدنى إلى الثراة والسراة والطبقية والعصبية منها إلى حكومة التقريب بين الطبقات والتكافل

الاجتماعى واعتبر الناس كافة سواسية كأسنان المشط.

ومرة ثالثة...أليس عمرو هو الذى يرجع إليه الأثر الأكبر فى إجهاض هذا الحلم الرفيع من أحلام البشرية،حتى أسقط فى أيدى الطامحين لقيام دولة الحق والعدل والمساواة وقالوا:وداعا لكل هذا،فبهذا الأثر الضخم فى ذاك نقيضه،فى إقامة صرح دولة العدل وفى تقويض هذه الدولة،وبغير هذا الأثر من الآثار فى معركة قيام الإسلام يستحق عمرو بن العاص أن يكتب عنه الكاتبون.

ويعود نظمى للسؤال مرة أخرى:«ولكن أيستحق عمرو بن العاص أن يكتب عنه الكاتبون بسبب هذه الآثار فحسب،وبسبب هذه الأحداث وحدها»؟

ويجيب:«اللهم لا....إن الأحداث قد تكون جليلة الخطر فى أطوار الأمم والدول والحضارات،وهى بهذا جديرة بالدراسة والبحث والتمحيص توسلا إلى التعلم والاعتبار،ولكن دراسة أطوار النفس الإنسانية فى ضوء الأحداث الكبرى أمر لا يقل عن دراسة الأحداث فى ذاتها أهمية وخطرا،بل تربو عليها فى ذلك أيما إرباء».

إن الأحداث من وجهة نظر نظمى لوقا لا تكتسب وزنها الحقيقى إلا لأنها متصلة بحياة الناس ومصائرهم،فالإنسان – الإنسان الفرد والإنسان المجتمع والإنسان النوع – هو مقياس كل جليل من الأمور والحوادث وغايتها القصوى فى الوقت نفسه،ومن أجل الإنسان وفى ضوء فهم تكوينه وأسرار نفسه وسلوكه يجب أن يكون اهتمام الدارسين الأكبر بأحداث التاريخ....ولهذا كله فإن عمرو بن العاص جدير بالدراسة.

(١)

لكن من هو عمرو بن العاص؟

يقدم نظمى للإجابة على هذا السؤال بقوله:«نحن أبناء آبائنا وأمهاتنا...هذا

شأن سائر الكائنات،لا يستثنى من ذلك النبات،والصن من حيث يخرج،كما يقول أبو الحسن على بن العباس بن جريج،ثم نحن بعد ذلك وآباؤنا وأمهاتنا أبناء بيئة لها أبعادها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية».

ومن هنا فعمر هو ابن العاص بن وائل زعيم بنى سهم،وبنو سهم من أبرز بطون قبيلة قريش،وكانت له منزلة خاصة بين أقطاب قريش بما اجتمع له من قوة الشخصية والاعتداد بالنفس واتساع التجارة وبذخ الجاه وكثرة الأموال،وتشير بعض النصوص إلى أنه اشتغل فى بعض مراحل حياته بالجزارة.

حاز العاص الثراء الطائل والمكانة المرموقة،فموقف الطبيعى بحكم السيادة والنعمة والجاه،أو بحكم الطبقية أن يقف موقف المعاند من دعوة تنادى بالتسوية بين الناس كأسنان المشط،وأن لا فضل لقرشى على عجمى إلا بالتقوى.

وكان طبيعيا أن يعادى العاص دعوة الإسلام ويحاربها فى مقدمة من انبروا لها من المعاندين المستكبرين،وهو موقف تمليه المكانة فى القبيلة،ويمليه الحرص على المصلحة الشخصية ، وتمليه الغيرة على النفوذ المستمد من نظام المجتمع فى الجاهلية،ولم يكن الرجل يرضى لنفسه وهو المعتد بنفسه فى عنجهية أن يكون له فى ذلك المضمار موضع دون الصدارة شأنه فى كل أمر يخص القبيلة فى حرب أو سياسة أو تجارة،ناهيك ودعوة محمد تهدد هذا كله،وتعتبر فى نظر أمثاله تمردا وخروجا على الطاعة يستوجب الردع،ودعوة هدامة تستحق القضاء عليها بكل الوسائل.

كان الأب إذن رفيع العماد،والبيت وطيد المكانة،ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يكون عمرو شديد الاعتداد بأبيه وعشيرته،ولا سيما فى الجاهلية أهل الاعتزاز والتفاخر بالأنساب والأحساب....وإن كان عمرو لديه باعث خاص للتزيد فى هذا الاعتداد بأبيه،باعث يجعلنا نسأل عن أمه من تكون.

يقول نظمى لوقا:« أجمع الرواة تقريبا على أنها سلمى بنت حرملة،وكنيتها النابغة،من بنى عنزة من قبيلة أسد بن ربيعة،وقد انعقد الإجماع على أنها كانت سبيا،سباها بعض فتاك الأعراب وباعوها فى سوق الرقيق بمكة،وطبيعى أنه جرى عليها ما جرى للإماء عادة فى مدينة كمكة على عهد الجاهلية.

وأهون تصوير لذلك الذى كان من أمرها ما ورد على لسان ابنها عمرو نفسه،قال:«ذكروا أنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل الأمير عمرو بن العاص وهو على المنبر عن أمه،فسأله:تريد أن تعرف أم الأمير،فقال عمرو:أمى سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بنى عنزة،أحد بنى عجلان،أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة،ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان،ثم صارت إلى العاص بن وائل،فولدت له فأنجبت،فإن كان لك شئ فخذه».

كان هذا كلام عمرو،أما الغامزون فلهم كلام آخر،فعندما شتم عمرو أروى بنت الحارث فى مجلس معاوية بن أبى سفيان ردت عليه قائلة:«وأنت يا بن النابغة تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة وآخذهن لأجرة؟اربع على ظلعك،وأعن بشأن نفسك فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها، ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك،فسئلت أمك عنهم فقالت:كلهم أتانى..فانظروا أشبههم به فألحقوه به..فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به».

لم يكن ما ذكرته أروى بنت الحارث بدعة،بل هو العرف الجارى فى الجاهلية،فهذه السيدة عائشة تقول:«كان يجتمع الرهط فيدخلون على المرأة فيصيبونها،فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع،فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم:قد عرفتم الذى كان من أمركم فهو ابنك يا فلان،تسمى

من أحبت أن تسميه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع الرجل».

الوضع إذن ملتبس،وكما يقول نظمي:«إن عمرو بن العاص بهذا الشكل ابن سيد ولكن سنده في السيادة مثلوم ثلما فادحا أليما لنفس الحر الأبى،فما يكون من أثر ذلك عنده؟»

بالطبع حساسية مفرطة من جهة أمه،يعوض عنها تلقائيا بالتزيد من اعتداده وزهوه بنسب أبيه ومكانته ومنعته وثرائه وترفه،ومن ذلك مثلا،عندما عزله عثمان بن عفان عن مصر ولامه على شبهات لحقت ولايته،فإذا عمرو يشتاط غضبا ويقول في عنجهية:لقد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك،فوالله لعاص كان أشرف من عفان،فإذا بالخليفة الحصيف الوقور يكتفي في الرد عليه بقوله:ما لنا ولذكر الجاهلية.

كان عمرو بن العاص يتصرف بمنطق التعويض عن الشعور الوجيع بالنقص،يلوذ لياذ المستجير بجاه أبيه،ويبالغ في التباهي به في غير موضع للتباهي كي يدرأ عن نفسه حساسة ومضاضة تلحقان به من جهة أمه،ولذلك كان لابد لمثله من مجد شخصي إذن،لابد له من السيادة بأي ثمن،وفي أي حال لأن السيادة لمثله مطلب ليس منه مناص،وليس له بديل،وإلا ظلت قرحة عار الأم تنزف ولا تجد البلسم الشافي أو المسكن الناجع،وهذه ضرورة لا مناص منها لمن كانت له كبرياء عمرو وطموحه،فكأنه يقول بما يحققه من تفوق شخصي خارق،وما يفاخر به من سؤدد أبيه الباذخ:لا يضير من كان له أب كأبي ..ثم كانت له فعال كفعالي،أن تكون له أم كأمي.

(٢)

في شبابه تسنى لعمرو ذلك الحظ من فنون التربية المتاحة في بئيته وزمنه،فقد تعلم ركوب الخيل كأقرانه أبناء السادة من قريش في سن مبكرة،وتعلم كذلك استخدام

السيف فى المنازلة والمصاولة،وحذق حيل العراك والكر والفر،وكلها فنون تعتبر من ضرورات الحياة لعربية لدى الحجازيين عامة ولدى القرشيين خاصة لما تقوم عليه حياتهم من الأسفار البعيدة للتجارة الخارجية - بتعبير أهل العصر الحديث – فى رحلتى الشتاء والصيف.

تعلم عمرو السباحة كذلك إلى درجة عصمته من الغرق بين أمواج البحر فى رحلته إلى الحبشة وهى الرحلة التى سافر فيها ليستعيد المسلمين من بين أحضان النجاشى لكنه فشل فشلا تاما،وهى رياضة أقل شيوعا من الفروسية وفنون السيف والقتال عموما بين أبناء الحجاز؛لأنها أقل ضرورة منها،فليست هذه البقعة المعمورة من الأرض شاطئ بحر ولا تشقها الأنهار التى تجعل السباحة أو الملاحة عنصرا أساسيا لا محيص عنه فى إكتساب الرزق وارتياد مكامنه.

ورغم ندرة من تعلموا القراءة والكتابة من أهالى قريش،إلا أن عمرو كان كاتبا قارئا،وكان حاسبا أيضا،وإن كان كثير ممن يجهلون القراءة والكتابة يعرفون من أوليات الحساب ما يحتاجون إليه فى ممارسة تجارتهم بيعا وشراء ومماكسة فى الأسواق ابتغاء الربح واتقاء الخسارة.

وكما تعلم عمرو القراءة والكتابة فقد نظم الشعر،صحيح أنه لم يكن شعرا من الطبقة الأولى ولا الثانية بين طبقات هذا الفن الرفيع من فنون القول،ولكنه شعر مناسب يدل على فصاحة،وعلى صدق فنى فى التعبير عن مشاعر هذا العربى الفذ وشخصيته ذات المعالم المتميزة،وإن كان أقل من مستوى خطبه وكلماته التى يرسلها عفو الخاطر،فإذا هى أصدق صورة لطريقته فى التفكير وزاوية نظره إلى الأمور.

لقد كانت تربية عمرو بهذه الطريقة من وجهة نظر نظمى لوقا تربية سلبية،وهى التربية التى يكون غاية كل جهد الناشئ فيها أن يتعلم ما يراد له أن يتعلمه،ولأنه

مكلف بأن يتعلمه مسوق إليه،وما لم يطالبه المطالبون،ويلاحقه الملاحقون،ربما بالزجر أو الضرب لما جعل همه أن يتعلمه،ومن شأن هذا ألا يزيد ما يتعلمه على الحد الأدنى الضرورى، الذى لا حيلة له فى أن يجهله وهو سليم البدن والحواس.

أما التربية الإيجابية فهى التى يكون للناشئ فيها إرادة ظاهرة،فلا يتعلم ما يراد نه أن يتعلمه فحسب،بل يتعلم لأنه يريد أن يتعلم،وعلامة ذلك أنه لا يكتفى بما لا محيص للكافة من تعلمه ، فيكلف نفسه ما لا تكلفه إياه ضرورات مجتمعه الحتمية،ويطلب ويحصل أشواطا وضروبا من الخبرات والفنون غير شائعة ولا ضرورية لأمثاله.

لكن ما الذى تدل عليه هذه المهارات التى اكتسبها عمرو بن العاص،يقول نظمى:«إنها تدل على طموح فائق،وإصرار شديد منذ بواكير عمره على التفوق والتميز على أمثاله ممن قد يفوقونه فى تمام العروق على حد تعبيره فى شعره،أى من ينوقونه فى النسب الصريح الذى لا ثلمة فيه».

(٣)

لقد انطلق عمرو يزود نفسه بأسباب التفوق والمنعة،ويتعلم تجنب المكاره والمزالق،وينأى بنفسه عن مثل ما اجترحه أبوه فى حقه،ويصبو إلى عصامية تفرده بمكان يعلو فوق مغمز نسبته إلى أمه،ويجعله جديرا بنسبته إلى أبيه،وكيف كان مكانه فى بيت هذا الأب المرموق؟

ولذلك قرر عمرو أن يستقل عن أبيه،فلم يصل من أخباره أنه كان يسافر متاجرا لحساب أبيه،ولكن الأخبار التى وصلتنا تروى أنه كان يسافر بتجارة خاصة به،ولم يصفها أحد بالاتساع الخارق،ولكننا نعلم أنه كان يتاجر فى العطور،يحملها إلى الشام ومصر شمالا،وإلى اليمن والحبشة جنوبا،وكان يتاجر كذلك فى الأدم،وورد فى

أخباره أيضا أنه كان فيما بين مواسم التجارة والارتحال يحترف الجزارة بين جزارى مكة.

لقد كانت لعمرو أسفار كثيرة،ومن هذه الأسفار بدت شجاعته وتدبيره،وهذا هو الدليل على أن تكوينه الفطرى تكوين القائد المطبوع على القيادة وإدراك المعارك بمعناها الواسع،وليس تكوين التاجر الفردى الذى تنحصر شجاعته فى نزال اللحظة الحاضرة واقتحام المواقف لأن اقتحامها والتصدى لها غاية فى حد ذاته،وقيمته فى نظر نفسه رهن بالإقدام من غير تردد أو نكوص.

وهذا بالطبع بخلاف طبيعة عمرو الذى ينظر إلى النصر نظرة أشمل،ويراه الغاية التى يستخدم لها الوسيلة المناسبة،فإن كانت الكر والإقدام كر وأقدم،وإن كانت المراوغة والانسحاب وتأجيل الصدام إلى أوانه المناسب بعد أن يعد له عدته لم يتردد فى المراوغة والتسويف والانسحاب.

وهذا التفريق ضرورى لإدراك الفارق بين عمرو وبين معظم الصناديد من معاصريه وأقرانه،فهم كانوا أبطال اللحظة فى حين كان عمرو بطل التكتيك والاستراتيجية بالمعنى الحربى،وهى آية على أن الأقدار كانت تعده ليكون بفطرته قائدا فاتحا لا محاربا فردا فحسب.

وكان عمرو على جانب عظيم من الاعتداد بنفسه،والثقة بعبقريته وسموها فوق المستوى العادى للقيم السائدة فى بيئته،حيث كان يوزن الرجل باستهانته بالمهالك واقتحامه الخطوب غير مبال بما يكون،فإما الفوز وإما الموت.

ومن بين رحلات عمرو وأسفاره يتأكد أنه زار مصر تاجرا،وأنه شهد من أحوالها وخبر من احتكاكه بالمواطنين وصغار الموظفين ما أطلعه بفطنته الثاقبة على تدهور الحال فيها،وتداعى نظام حكمها،رغم مظهره الفخم،وكأنه الدوحة التى

نخرها السوس فتكفى هبة ريح قوية أو ضربة فأس واحدة لإسقاطها فلا تقوم لها قائمة.

(٤)

وفى حياة عمرو رحلة مهمة للغاية تلك التى خرج منها سفيرا لقريش من أجل أن يستعيد المسلمين الذين خرجوا إلى الحبشة طالبين الغوث من النجاشى.

إن الحرب على الإسلام بالنسبة لعمرو بن العاص لم تكن إلا فرصة للعمل السياسى،كى يثبت لقومه كفاءته ونفعه لهم عند الشدة،فكان مكانه الطبيعى أى بحسب طبعه ضد الإسلام لا فى صفه،وبمنطق الطموح تفانى فى خدمة قضيته التى وضع نفسه فى خدمتها وارتجى النفع،ولم يكن الأمر يؤمئذ أمر حرب،فما كانت شوكة المسلمين قد بلغت هذا المبلغ،ولكنه كان أمر نكاية وكيد،ثم حين فروا بعقيدتهم إلى المنفى لم تجد قريشا خيرا من عمرو فى الدس لهم عند النجاشى؛لأنه صديقه من جهة،ولأنه من جهة أخرى بارع الدهاء واسع الحيلة نافذ الفكر.

ولولا ما هو ظاهر من قوة شخصية النجاشى واستقلال تفكيره وحبه للعدل واستقامة الإجراءات لكان حريا أن ينجح فى الإيقاع بأولئك المهاجرين،وقد سلك طريق رشوة بطانة الملك وائتمر معهم فأحكم المؤامرة،ولما خاطب الملك أحسن الحديث بلباقة الدبلوماسى الذى يهون للطرف الآخر قبول ما يطلبه إليه متلطفا.

ولم يكن فشل عمرو عن خرق أو قلة تدبير أو سوء تعبير،بل لأمر لا حيلة له ولغيره فيه،وهو نزاهة النجاشى نزاهة غير مألوفة فى ملوك ذلك العصر،بل ملوك سائر العصور،قبل أن تكون هناك حقوق تؤثر للإنسان فى القانون الدولى،وإنما هى النخوة الفردية فى الفلتة من الرجال بين حين من الدهر وحين.

إلى هنا والدبلوماسية أو التدبير السياسى المحكم اللبق فى مستوى عادى،أما ما كان

بعد الجولة الأولى دن دسيسة عمرو فيما يتصل بالمسيح،عند ملك على شعب شديد الحساسية لكل ما يتصل بالعقيدة،فتلك وإن لم تنجح خارج عن إرادة عمرو،وهو يقظة عقل النجاشى وضميره،هى العلامة على قدرة خارقة فى الدهاء والمكيدة،تعده بآخرة من العمر لضرر لا يكاد يعدل أثره الحاسم أثر فى حياة الدولة الإسلامية.

(٥)

لم تكن الحبشة هى معركة عمرو الوحيدة ضد الإسلام،لقد كان له تاريخ حافل ومديد على طول عشرين سنة أو أكثر فى محاربة الإسلام والمسلمين،فقد قضى النبى ثلاث عشرة سنة بعد بعثته فى مكة إلى أن هاجر إلى المدينة،وفى المدينة بعد الهجرة النبوية انقضت سنوات ثمان إلى أن قدمها عمرو بن العاص مبايعا للإسلام،ولقد قيل إنه إنما كان يعادى الإسلام انقيادا لأبيه الذى كان يعتز به أشد اعتزاز،وأنه ما كان ليسلم وأبوه على قيد الحياة، فلما مات أبوه انتهى أمره إلى الإسلام.

لا يسلم نظمى لوقا بهذا الكلام بالطبع،بل يرى أنه يحتاج إلى الوقوف عنده بعض الشيء،فها هو عمرو نفسه يقول لإبنه عبد الله حين حضرته الوفاة بمصر:بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فكنت أكره الناس لما جاء به،أتمنى لو أنى قتلته....لم يقل كنت أكره ما جاء به محمد فحسب،بل قال : كنت أكره الناس لما جاء به أى أشد الناس بغضا له،وليس فى هذا القول ما يدل إلا على تطرف وحماسة فى عداء محمد ورسالته.

ولا يستقيم أن يكون هذا بالوكالة أو من باطن شخص آخر،ولو كان أباه،وليس أدل على استماتة عمرو فى عداء الإسلام والمسلمين من أنه لم يكن سفير قريش إلى النجاشى ضدهم بآخرة من الزمن فحسب،بل كان منذ بداية البعثة المحمدية لسانا من أقذع الألسنة التى أثيرت فى قريش لهجو النبى وتكذيبه وتحقير شأنه،وله فى ذلك شعر يذكره الذاكرون.

وقد مرت بعد سفارته إلى الحبشة الخائبة سنوات لم يتغير فيها سلوك عمرو بن العاص، وهاجر النبى إلى مكة،وعمرو مشغول بشئون قريش وحربها للنبى.

لقد رجحت الأقوال أن العاص بن وائل مات بعد هجرة الرسول بشهر واحد،ولكن انقضت سنوات ثمان بعد موت أبيه قبل أن يهاجر عمرو إلى المدينة ويسلم،إذن لم يكن أبوه وسلطانه عليه هو الذى منعه من الإسلام.

وقد سئل عمرو بعد إسلامه:ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت فى عقلك؟

فأجاب:«إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال،ما سلكوا فجا فتتبعناهم إلا وجدناه سهلا،فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم،ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم،فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم،فإذا الأمر بين فوقع الإسلام فى قلبى».

(٦)

شارك عمرو بن العاص فى غزوة الخندق التى لحقت بالمشركين فيها هزيمة منكرة،ويقول عمرو عن ذلك:«لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى،فقلت لهم:تعلمون والله إنى أرى أمر محمد يعلو علوا منكرا،وإنى رأيت أمرا فم ترون فيه؟

قالوا:وماذا رأيت؟،قال:رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده،فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى،فإما أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد،وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا،فلن يأتينا منهم إلا الخير،قالوا:إن هذا نعم الرأى،قلت:فأجمعوا لنا ما نهديه له،وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم(الجلد) فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

وهنا يتدخل نظمى لوقا،يقول:«فى هذا ما يدل على أن عمرو بن العاص ذو

طبيعة عملية،وليس صاحب طبيعة نظرية،وتزيد الأمور وضوحا فنقول : أنه لم يكن الرجل الذى يضع نفسه فى خدمة الشعارات المثالية،بل يحرص على أن يستخدم الأحداث الواقعية لخدمة أغراضه،ولا يسمح لشئ ولا لأحد باستخدام شخصه أو مواهبه وكفاءته العالية إلا مقدار ما يتمشى ذلك مع ما يريد».

فعندما وجد عمرو الموقعة بعد الموقعة تتجلى عن انتصار محمد وصحبه لم تفته عبرة هذه الانتصارات وهو القائد المطبوع الذى يحسن قبل كل شئ تقدير الموقف تقديرا موضوعيا لا يخدع فيه نفسه حتى لا يؤخذ على غرة.

ومن ناحية ثانية ليس مثله من ينساق وراء المثالية،فليس فيه شئ من خلائق المطبوعين على الاستشهاد – كالحسين بن على مثلا – وإنما هو طالب نصر أينما كان النصر،فكيف يسمح لتيار التاريخ أخذ هديره يملأ سمعه المرهف أن يغرقه فى طوفانه الهائل؟

ومن جهة ثالثة ينبغى ألا يفوتنا أن فريق قريش وأحلافهم لم يكن لهم عقيدة تملأ جوانب النفس،ويرتخص فى سبيلها النفس والنفيس،وإنما هى نعرة التقاليد وعنجهية السلطان القائم على هذه التقاليد،وهيهات تكون للات والعزى وغيرهما من أوثان قريش الشائهة هيمنة تقنع عقلا ذكيا مثل عمرو بن العاص،فلم يكن كفاحه ضد محمد وصحبه ودعوته عن إيمان بحق ثابت يهون فى سبيله البذل والفداء،بل عن تمسك بالإطار الذى يتوقع أن يحقق فيه مطمحا يليق بابن العاص بن وائل السهمى فى الثراء والرئاسة،وليس كالحرب والسياسة مجال البروز والتفوق يستهوى كل طموح مؤمن بعبقريته.

وها هو على امتداد ما يقرب من عشرين عاما قد جرب مكائد السياسة وبلاغة القوافى ووقائع القتال المسلح ومساعى السفارة وراء البحار،من غير أن يظفر هو أو

قريش من محمد ودعوته،بل إن الأمر على العكس من ذلك تماما،ففريق محمد يزداد فى كل يوم عددا وعزة ومنعة،والاحتكام إلى السيف حجة ناهضة أكثر من كل حجة منطقية فى نظر رجل مطبوع على صفات الجندية والقيادة،واتساع النفوذ بين القبائل رغم قلة الموارد،حجة تنهض من كل حجة عند رجل مطبوع على السياسة والتفكير العملى،وعمرو كان مطبوعا على الجندية والدهاء والتفكير العملى جميعا.

(٧)

لكن السؤال هو:كيف راجع نفسه فى شأن الإسلام؟

إن ما حدث لعمرو لم يكن مراجعة،بقدر ما كان انقلابا داخليا فى سريرة هذا الجاهلى الذى كان قطبا من أقطاب قريش فى حربها وسياستها،إن سياسة مثل عمرو بن العاص أشبه بحركة المد البحرى الذى لا ينقلب تياره فجأة،بل يبلغ ذروته ثم يأخذ بعد برهة فى الانحسار شيئا فشيئا.

ومهما بلغ من مراجعة النفس فلابد من فترة لإعادة الحساب أكثر من مرة،قبل أن يكون الانقلاب مقبولا وممكنا،وهو انقلاب داخلى فى باطن سريرة عمرو،لذا يجب أن نتوقع مقاومة من داخل هذه السريرة تتجمع فيها رواسب الوراثة،ونفوذ ماضى حياته وارتباطاته الظاهرة والباطنة، مقاومة تتحمل الأسباب والمبررات لتعويق الانقلاب وتغيير المعسكر من النقيض إلى النقيض.

كان هذا هو أوان الحاجة إلى مرحلة انتقالية،وأول بوارد هذه المرحلة الانتقالية التى تمهد للانقلاب الحاسم،أن ينفض يده من المعسكر الذى سلخ قرابة عشرين عاما وهو يؤازره باللسان والسيف والحيلة،وينعزل عزلة من يطاول آماله السابقة إلى أن يتبين انقطاع كل سبيل إليها،فينقلب من وجهتها انقلاب من لا حيلة له ولا بقية من أمل لديه.

كان السؤال هو:كيف ينعزل عمرو عن قريش وهو فى قريش؟

لابد إذن من عزلة فى المكان تلائم العزلة فى الرأى والسلوك،ومعنى هذا بعبارة أخرى أنه ليس عن النفى الاختيارى أو الهجرة المؤقتة محيص،إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود،ولا تبقى فى عاقبة الأمور مماحلة.

لكن هل يذهب الفارس إلى هناك بمفرده؟

لم يكن عمرو فريدا فى حالته الفكرية والنفسية تلك فى هذه المرحلة من الصراع بين قريش وبين محمد وصحبه،وإنما عمرو بن العاص نمط بارز لطباع من على شاكلته من رجال قريش،وليس معنى أنهم على شاكلته أنهم فى مثل عبقريته ومقدرته ونفاذ بديهته ودهائه،بل معناه أنهم فى معدنه النفسى،وإن لا إيمان وطيد يربطهم بقريش،وأن تفكيرهم العملى يبغض إليهم أن يكونوا فى الحزب الخاسر،الذى تدور عليه الدوائر وشبيه الشئ منجذب إليه.

لقد بدأ الانقلاب الكبير فى حياة عمرو بن العاص يوم أيقن وهو يتقن رصد التغيرات فى الأجواء المحيطة به،أن كفة محمد راجحة رجحانا لا شك فيه،فآثر أن يكون بعيدا عن متناول يده حينما يتم له النصر.

خرج عمرو من مكة إلى الحبشة،ومن هناك راح يرقب ما يحدث عن بعد،وكأنما يبرئ ذمته باطنيا من التعجل بالانتقاض على حزبه القديم،ولم يصبر سنة واحدة،بل صبر ثلاث سنين توالت فيها النذر بانتصار محمد وصحبه على طول الخط.

(٨)

والآن جاء خبر إسلام الرجل.

بعد صلح الحديبية كان العرب يقبلون على الإسلام إقبالا واضحا،ومثل عمرو يحسن تقدير المواقف الحربية والسياسية،ويعلم أن ثمرة الفتح قد نضجت وحان

قطافها بيد النبى،وبذلك لم يبق أمام عمرو إلا أن يسلم،فإن تأخر عن هذا الوقت كان مفرطا فى رأى نفسه،وليس فى التأخير بارقة رجاء.

يقول عمرو بن العاص عما جرى:«خرجت من الحبشة عامدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فلقيت خالد بن الوليد،وذلك قبيل الفتح،وهو مقبل من مكة، فقلت:أين تبغى يا أبا سليمان؟قال خالد:والله لقد استقام المنسم (أى تبين الطريق) والرجل لنبى،أذهب والله فأسلم،فحتى متى أتأخر؟فقلت:والله ما جئت إلا لأسلم».

ويكمل عمرو ما جرى:«فقدمنا إلى المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم،فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع،ثم دنوت فقلت:يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنوبى ولا أذكر ما تأخر،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا عمرو بايع،فإن الإسلام يجب (يلغى) ما كان قبله،وأن الهجرة تجب ما كان قبلها،فبايعت وانصرفت».

(٩)

بعد إسلامه وثق النبى صلى الله عليه وسلم فى عمرو بن العاص،رغم أنه لم يسلم إلا قبيل الفتح،وقد أصبح المشركون على حد تعبير خالد بن الوليد بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه دلو ماء لخرج،وكان عمرو يقول:«والله ما أدرى أكان ذلك من النبى حبا أم استعانة بى»...وقال عمرو أيضا:«ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت».

فهذا القائد النبى كان أعرف الناس بطاقات من تحت إمرته من الرجال،وهو بمكانته العليا فوقهم حقيق حين يرفعهم إلى مستوى الثقة أن يحفزهم إلى الاستماتة لاستحقاق ثقته التى يبذلها لهم،يبادؤهم بها فى إحسان ظن ليس أفعل منه فى تربية

البشر صغارا وكبارا،وفى ابتعاث قرداتهم الكامنة وتسابقهم إلى أن يكونوا عند الذى أسلفه من حسن ظنه بهم.

(١٠)

بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم،كان عمرو بن العاص أحد القواد الأحد عشر الذين عقد لهم أبو بكر الألوية لحرب المرتدين،عمرو الذى أسلم قبيل فتح مكة،وحارب الإسلام نيفا وعشرين عاما حين لم تطب نفسه أن يرى محمدا يسود العرب أجمعين،ها هو عمرو بن العاص هذا بنفسه وقد صار من حماة الإسلام حين انتفض على الإسلام إخوان له من قبل.

كان ذلك انقلاب عميق الأبعاد فى تفكير عمرو وإحساسه فى ذلك الأمد القصير،وقد وجد فى ذلك الدين ما حقق به من ذاته ما لم يتح له فى الشرك طيلة عمره،فصار قائد محمد ثم صار سفيره،ثم صار والى محمد أو عامله على الصدقات،وكأنما هذا الرجل قد وجد نفسه بعد أن أضاعها ذلك الردح الطويل.

لقد كان انتقاض العرب على الإسلام انتقاضا فى رأى عمرو ووجدانه على كيان عام وعلى عقيدة يجد فيها مجاله النفسى من جميع الوجوه،فهو لا يتصور كيف تدول هذه الدولة وعقيدتها،بعد أن جمعت العرب لأول مرة تحت لواء واحد،وتوشك أن تجتاح بهم آفاق الدنيا،ونفس الرجل الطموح الناجح الذى يعيش لطموحه ونجاحه لا تتصور التفت بعد الجماعة،والشتات بعد البأس،والتخاذل بعد الفتوة،وإذا دالت هذه الدولة فلا إمارة ولا سلطان لأحد،وإذا خمدت هذه العقيدة عادت الجزيرة شراذم تهيم فى حماية الشرك.

والخلاصة أن قضية الإسلام تعنى عند عمرو بن العاص بحكم العقيدة وبحكم التكوين النفسى العملى الطموح،ومصلحة العقيدة هنا ومصلحته الخاصة شئ

واحد فى مفترق الطرق العسير بين الكفر والإيمان.

(١١)

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر،فكر فى فتح مصر،فقد قدر للعرب أن يكون قائدهم وصاحب فكرة فتحها عمرو بن العاص،ولسنا نقول: أنه صاحب فكرة فتحها ابتداء،بل فى هذا الوقت المعين من نشأة الدولة الإسلامية،فالغالب على أقلام الكتاب فى الشئون العربية والإسلامية أن فتح مصر كان أمرا مقدورا ووعدا لأوان موقوت،فالنبى قد قال لصحابته الأقربين:«ستفتحون مصر...وهى أرض يسمى فيها القيراط ..فاستوصوا بأهلها خيرا،فإن لهم ذمة ورحما».

ولا غرو فهاجر أم إسماعيل بن إبراهيم جد النبى وجد قريش الأعلى كانت مصرية، ومارية القبطية التى ولدت للنبى ابنة إبراهيم كانت مصرية وحسب الرحم والذمة هاتان الآصرتان،وكذلك قال النبى لصحابه الأقربين فى مناسبة أخرى:إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا.

وبذلك كان المسلمون فى حياة النبى وبعد وفاته موقنين أنهم سيفتحون الأراضى المصرية وينزعون ملكها من الروم،أما أوان ذلك ففى بطن الغيب،وكأنما كان عمرو بن العاص أداة هذا الغيب أو إن جاز القول كانت القابلة التى استخرجت هذا الفتح من أحشاء الغيب.

وفى إقناعه للخليفة عمر بن الخطاب بضروة فتح مصر،قال عمرو بن العاص عن الخطر المرتقب من مصر:«إنه عائق كئود إذا أجل،ميسور التذليل إذا عوجل قبل استقراره»،وأدرك الحاكم المطبوع عمر بن الخطاب رأى القائد المطبوع عمرو بن العاص ووجه إلى فتح مصر.

استطاع عمرو أن يهون على الفاروق فتح مصر،بحيث رضى أن يسيره إليها فى

جيش لا يتجاوز أربعة آلاف مقاتل؛لأنه ما كان ليضعف جيوش العرب بأكثر من هذا القدر،ووعده المدد إن احتاج إليه فيما بعد.

وتجمع سائر الروايات على تصوير تردد عمر وإصرار عمرو،وانظر إلى قول الرواية أن عمرو بن العاص ألح على الفاروق فى أن مصر أكثر الأرض أموالا على سبيل الإغراء،ثم فى أنها أعجزها عن القتال والحرب،على سبيل التهوين من المجازفة،ولابد أنه كان تهوينا ناجحا جدا،حتى لقد أجاز له أن يبدأ الفتح بأربعة آلاف ، وقيل: ثلاثة آلاف وخمسمائة.

ومما يسترعى النظر ولا شك فى هذا المقام إمعان عمرو فى الإصرار على الفتح،عن فرط اقتناع بقدرته عليه لضعف مصر الشديد،حتى لقد عمد إلى استخدام دهائه المعروف فى استمهال حامل الرسالة إلى أن يستريح من وعثاء السفر قبل أن يجازف بتسلم على رسالة منه،حتى يكون قد دخل جزءا من مصر ولا شك فى ذلك،فلا يكون أمام الفاروق فى مناص من تركه يمضى،ومن إمداده بعد ذلك كى يتم ما بدأه،لأن النكول بعد الدخول فى الأراضى المصرية فيه استجراء الروم وإشعارهم بضعف العرب عنهم – وذلك يعد هزيمة سلفا،ويوهن إيمان العرب وثقتهم بأنفسهم،وهذه الثقة كانت،لا العدد والعدة – عمادهم الأكبر فى الانتصار على من يحاربونهم.

تفاصيل الفتح معروفة،لكن أول ما يسترعى النظر أنه كان ينتقل بين المواقع ويهاجم البلاد والحصون والأقاليم على غير نسق واضح منتظم،فهو مثلا يترك حصن بابليون حين طال حصاره ويبعث السرايا إلى الصعيد موغلا فيه،ومن البلاهة أن يتناول أحد هذا القفز،على غير نسق واضح بأن عمرو بن العاص كان جاهلا بأصول الحرب التقليدية،هجاما على الأخطار فى غير دراية،وليس الأمر هكذا،ولسنا نرى فى ماضى سيرة عمرو ما يؤيد حماقته بل ما يؤيد حنكته ودهاءه.

(١٢)

برأ نظمى لوقا عمرو بن العاص من حريق مكتبة الإسكندرية ليس بأدلة عقلية فقط ، ولكن بأدلة تاريخية أيضا،وكان أهم ماعاناه هو قيامه بتأسيس الدولة المصرية،فقد كانت أمامه فرصة سانحة لزيادة رقعة الدولة الجديدة التى كان يشعر وله بعض العذر،أنها دولته الخاصة التى أقامها بعبقريته العسكرية والسياسية،ثم ما كان ليغيب عنه وهو القائد المطبوع أن للروم دولة وشواطئ مفتوحة على بحر الروم فى غرب الأسكندرية،فى ليبيا وطرابلس وبرقة وكانت تلك كلها تسمى المغرب،أى ما يقع جهة الغرب من مصر.

وكان ترتيب البيت الشغل الشاغل بعد تأمين الحدود،وأول ما ينظر فيه مؤسس الدولة الجديدة أن تكون لسلطانه عاصمة يجعل فيها كرسيه كما يقولون،ومع ذلك أنه اتخذ عمرو الفسطاط إما عن رأى شخصى وإما بتوجيه من الخليفة الفاروق، ونحن نميل إلى جعل ذلك عن رأيه أو اقتراحه؛لأن الإسكندرية مرفأ يصلح عاصمة لولاية تتبع بيزنطة ويصلها بها البحر الأبيض،أما عاصمة الولاية العربية فلا يعقل أن تكون ذلك المرفأ،بل مكانا بين الزرع والنيل والصحراء،وموقعها متوسط بين مصر السفلى ومصر العليا،وعلى طريق الصحراء إلى جزيرة العرب،ثم على طريق مجرى الخليج الذى أعاد عمرو فتحه من بابليون إلى القلزم السويسى،فما من موقع أصلح من الفسطاط لحكم ولا يقصر وللاتصال بعاصمة الدولة الكبرى فى المدينة،وكان الفراعنة من قبل يتخيرون هذه المنطقة لعاصمة الوجهين القبلى والبحرى،ولم تصبح الإسكندرية عاصمة إلا على عهد الغزو المقدونى حيث الصلة بالبحر أولى الاهتمام والملاحظة عند إقامة كرسى الملك.

***

(١٣)

ثم يأتى حديث الفتنة الكبرى...الذى لولا كان عمرو فى جانب معاوية لما ربح على ابن أبى طالب،فقد كان عمرو يعرف أن لمعاوية عملاء فى جيش على،يتظاهرون بنصرته، وإنما هم بمثابة الطابور الخامس بمصطلح هذه الأيام،وهؤلاء العملاء منهم بعض أقطاب جيش معاوية،ومهمتهم أن يشيعوا بين الجند ما يشاء معاوية من تخرصات ويفرقوا الكلمة المجتمعة،ويحدثوا البلبلة التى تفعل ما لا تفعله الهزيمة بالسلاح فى أزمات الأمم،فكانت هذه الحيلة التى ابتدعها ذهن عمرو بداية الفشل والفرقة فى صفوف أنصار على،ومتى وقعت الفرقة تمت لذى الحيلة والسيادة...فرق تسد.

وهذه الحيلة البارعة هى التى بدأ بها تغير مجرى تاريخ الدولة العربية ذلك التغير الحاسم،من دولة دين إلى دولة دنيا، ومن خلافة عقيدة ومبدأ إلى ملك واستبداد ، فليس مصر طعمة لعمر ثمنا باهظا لصاحب الرأى الذى أغنى معاوية حيث لم تغن عنه الجيوش والأموال وحدها.

وعندما تحاكم عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى استخدم عمرو الحيلة،احتكم الحكمين فى دومة الجندل،واتفقا على إعلان خلع الرجلين،كل منهما يخلع صاحبه،ثم يتركان الأمر فى البداية للناس يختارون ثالثا لم يشترك فى الفتنة،وحيئنذ تظهر الدعوة لعبد الله بن عمر كأنما جاءت من غير تدبير سابق.

فى موعد إعلان نتيجة التحكيم أصر عمرو بدهائه على تقديم أبى موسى الأشعرى،يتملق غروره متعلل بسبقه إلى صحبة النبى ولتقدمه فى السن واشتهاره بالورع،ويقال : ان ابن عباس نصح لأبى موسى الأشعرى أن يتأخر ليدع ابن العاص يتكلم أولا،ويجعل لنفسه الكلمة الأخيرة،ولكن أبا موسى أبى إلا التقدم متعللا بأنه لا يأبى الكرامة إلا لئيم.

قام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أنهما قد رأيا صلاح هـذا الأمـة فى لم شعثها وترك الفرقة،ولذا اتفقا على خلع على ومعاوية معا،ورد الأمـر إلى الأمـة تـولى من تحب،وأشهد الناس على أنه قد خلع عليا ومعاوية كما يخلع خاتمه هذا.

ثم قام ابن العاص فحمـد الله وأثنـى عليـه وقـال:إن هـذا قـد خلـع صـاحبه وأنـا أخلعـه مثلـه ولكنـى أثبـت صـاحبى،فقال أبـو موسـى:مالـك لا وفقـك الله غـدرت وفجرت،إنما مثلك كمثل الكلـب إن تحمـل عليـه يلهـث وإن تتركـه يلهث،فقـال لـه عمرو:إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

وهكذا فسد الأمر على على،وتفرقت كلمة أصحابه،ورجحت كفـة معاويـة بعـد أن كـادت تميـل إلى آخـر الدهر،اتسـع لـه الوقـت لراحـة رجالـه والاسـتعداد لتجـدد القتال،وقد شدد من عزمهم تثبيت صاحبهم وعزل على عـلى يـد صـاحبه،واختلاف أنصاره وخروج الخوارج منهم حتى صار بأسهم بينهم شديد.

(١٤)

ويسأل نظمى لوقا سؤاله الأخير عن عمرو بن العاص،يقول: أكان عمرو صانع عصره؟

ويجيب:كلا لا مراء،بل كان عمرو منتفعا بعصره،اتخذ كل التيارات المتضاربة فيه مطية إلى أغراضه ومطامعه،واستطاع بقدراته أن يوجه أحداث عصره،حينما أمكنتـه أزمات أمته من ذلك،مستخدما قوة اندفاع التيار الغالب كى يحقق ما ستباحه لنفسه من أهداف،ومثله يعتبر نافذة صالحة على العصر الذى عـاش فيـه؛ لأنـه يجيـد تشـمم الريح الغالبة فيتجه معها،فهو لا يروم إلا الغنم فى كل ما فعل،وبحاسته تلـك يحـدد دائما المعسكر الذى تكتب له الغلبة،فإذا تحولـت ريـح الكسـب تحـول معهـا؛ لأنـه لا يدين بالولاء إلا للمغنم والطموح العريض.

إســلاميات
كاتـــــب
مســـيحي

7

نظمي لوقا
مسيحي الصليبة- إسلامي الهوى



كان لابد – من باب الموضوعية وحب الحقيقة أيضا أن أختم هذا الكتاب،بدراسة عن نظمى لوقا،أحاول من خلالها أن أفهم القارئ قليلاً عن نظمي لوقا، وهى دراسة لن أستعين فيها فقط بما كتبه هو،أو بما كتبه عنه مناصرون ومؤيدون فى اتجاهه، ولكنى سأركن قليلًا إلى ما يمكن اعتباره الرد الرسمى للكنيسة على كتابه «محمد الرسالة والرسول»، وهو الرد الذى حمل عنوان«الدكتور نظمى لوقا فى الميزان ..ردا على كتابه محمد الرسالة والرسول»،وكتبه القمص سرجيوس،وهو تقريبا الرد الوحيد المكتوب الذى أصدرته الكنيسة على إسلاميات نظمى،هذا بالطبع غير ما كتبه هو عن علاقته بالإسلام وموقفه منه فى أكثر من موضع.

(١)

وهنا أضع أولا نصين متقابلين.

الأول: كتبه نظمى عن نفسه فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» ، وأقصد تحديدا ما كتبه عن علاقته بالإسلام منذ كان طفلا صغيرا،تحت عنوان :صبى فى مسجد،يقول نظمى يصف نفسه: « صبى قصير، نحيل، عصبى الملامح، واسع العينين، تطل منهما نظرة تطلع،وفى ثيابه إهمال،وفى يديه آثار حبر،ورباط حذائه مرسل يكاد يتعثر به وهو يمشى،وسنه لم تتجاوز السادسة إلا قليلا،يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس،قريب من مبنى المحافظة بها،لا يلوى على شيء.

يتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذى يواجه المسجد،ليرى الشيخ جالسا،بقامته المفرطة فى القصر،وجبهته المفرطة فى العلو،وبشرته البيضاء المحمرة،وثيابه النظيفة الناصعة،ولحيته الصهباء التى يخالطها بياض كثير،ويقرئ الفتى أستاذه الشيخ السلام،ويهش الشيخ للقائه، ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن،

يفتحها ثم يتحيي عقاربها،ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانه الأبيض،وترتسم على وجهه ظلال ابتسامة،يكاد الفتى يراها فى موضع عينى الشيخ،لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض فى الطفولة الباكرة إغلاقا أبديا».

ويواصل نظمى وصف حاله مع شيخه:«ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى،وإنه ليضارعه طولا أو قصرا،ثم يدب بعصاه عبر الشارع،والصبى لا يخطئ نظرات الفضول من الحلاق،وزبائنه وعابرى السبيل،إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد،ليبدآ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء».

حدث هذا فى مدينة السويس الصغيرة سنة ١٩٢٦،لم يكن أحد من أهلها يجهل من هو الشيخ سيد البخارى،إمام مسجدها وعالمها وفقيهها،يجلونه ويرهبونه،فإن له لعلما ورأيا،وإن فيه لشجاعة فى الحق وذرابة فى المنطق،وأنفة تدخلهم لديهم مدخل الكبر الذى لا يغتفر لم كانت به كالشيخ خصاصة شديدة يداريها بتجمل أشد،ولم يكن أحد من أهل السويس يجهل كذلك من هو الصبى الصغير- نظمى لوقا - ،ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس،فيه وسامة وأناقة،وفى لسانه عذوبة وذلاقة،وإنهم ليعرفونه رجلا قبطيا يؤم الكنيسة يوم الأحد.

وفى مدينة كالسويس يتساءل الناس عن النازحين إليها والغرباء من الطارئين، وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبى أرومة معرقة فى صناعة القسوس،فكم له من جد من ذوى الطيالس السود والعمائم السود،فلا شك إذن فى قبطية الصبى الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ،وأن الحيرة لتستبد بهم،ثم تأخذهم نافلة الغيرة،يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون،ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب،رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد، ويتقدم فيؤم المصلين،ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع،والفتى ينظر

إليهم مصلين،ويسمع لما يتلى فى الصلاة،وفى عينيه ذلك التطلع القلق فمنهم من يزور عنه،ومن يحملق فيه بفضول.

خرج بعضهم من النجوى إلى العلن،فجاهر الشيخ بما فى نفسه،وراجعه فيما يفعل،فإن كان حبا للتدريس ففيم رفض التدريس لابن فلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير؟،وإن كان حبا للمال ففيما خطبه التى يحارب بها التقرب للأولياء وتقديم النذور ورفعه صندوق النذور من مسجده،وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء؟

لم يرد الشيخ البخارى على من اعترضوا على ما يفعله ردا نظريا،بل جعله عمليا مفحما،أرسل إلى من اعترض عليه أن يأتيه فى صلاة العصر،ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد،ويستمهله الشيخ قليلا ريثما يفرغ له،ويتابع الدرس،وكان موضوعه تفسير سورة الضحى،ويتلو الصبى نظمى السورة بلسان قويم،وإيقاع سليم،ويختمها بصدق الله العظيم،ثم يشرع فى تبيين معانيها،مستشهدا بسيرة الرسول الكريم،والشيخ يناقشه حينا،ويوجهه حينا آخر،ويستوضحه حينا ثالثا،حتى إذا بلغ الموضوع غايته،وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلا:كيف بنوك يا فلان؟فيرد:بخير يا مولانا،فقال الشيخ:تعرفنى يا فلان أمقت تقبيل الأيدى وأخذل عنه الناس،أعرفت فيما أرسلت إليك؟..فأطرق الرجل وقال:عرفت يا مولانا...وانصرف الرجل عن المجلس.

كان والد نظمى لوقا شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء،اتفق له شئ من قرض الشعر فى صدر شبابه،وآمن أن ولده البكر ينبغى أن يصيب من ينابيع الضاد وبلاغتها أكبر حظ مستطاع،ورأى هزال ما يتاح لطلاب المدارس من ذلك،فعهد بولده إلى الشيخ البخارى الذى التقى به فى دكان الحلاق فبهرته منه شخصية

مشرقة،وذهن رحب،وسماحة ما كان يتوقعها فى أحد الشيوخ،فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات من الإنجيل،وهو فى حديثه الدارج مع الناس من حوله لا يحيد عن الفصيح والجزل من التراكيب،فكأنما خرج الشيخ لتوه من سوق عكاظ.

من هذا تحديدا يبدو حجم التأثير الذى مارسه الشيخ البخارى على الفتى نظمى،فهو لم يأخذ عنه فصاحته وبلاغته فقط،ولكنه أخذ عنه تسامحه أيضا،ولم يتوقف نظمى عند تجاور محمد والمسيح فى قلب الشيخ البخارى،ولكنه أضاف إليهما كل أصحاب الديانات على وجه الأرض.

لقد كاد الشيخ البخارى أن يعتذر عن التدريس لنظمى،لولا أن والده أقنعه بطريقته،فقد قال: له أنه أقرأه كليلة ودمنة قبل أن تسمح له سنه بدخول الدراسة الإبتدائية،وأن الفتى وهو أصغر طلاب مدرسته سنا وأقصرهم قامة،وجد نفسه فى مؤخرة صفوف الفصل فى أول يوم،فرفع يده وقال للمعلم بلغة فصيحة:أريد أن أجلس بجوار السبورة،فضج التلاميذ بالضحك،وقال المعلم ضاحكا:لك ذلك أيها الفيلسوف العجر.

وقبل أن يستوعب الشيخ ما جرى قال له الوالد:إن ولدى يشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن،وتتهذب نفسه بالمعلقات وعين الشعر،فأخذت الشيخ هزة وقال:أما وأنت لا تريدنى على تدريس تلك المناهج السقيمة والخوض إلى تلك المدارك الضحلة،فهذا مطلب تطيب به نفسى،وينشرح له فؤادى،ولما سأله الوالد عن الأجر،قال له الشيخ:أمره لك،وأكبر جزائى أن تزهر للعربية شجرة مثمرة فى قلب فتى أريب،فى زمن أوشك اللسان العربى القويم فيه أن يعز وجوده كالكبريت الأحمر.

وعندما جلس نظمى لوقا إلى الشيخ البخارى،وجد فيه وهو الشيخ الكفيف

خزانة أدب وعلم وفقه وفلسفة وخلق،كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب،وكان التعليم بالضرورة شفويا،ولابد فيه من ضبط مخارج الحروف،وإقامة النحو وتجنب اللحن وتوخى الجزالة،فتعلم نظمى أن يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

بدأ نظمى يتلقى دروسه فى حفظ القرآن،كان يقف عند كل آية،ويملى عليه الشيخ موجزا لتفسيرها ثم يملى عليه ما يتطرق إليه ذهنه الخصب بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور،فتعلم الفتى كيف يربط المعنى اللغوى بالصورة الجمالية والذوق الأدبى.

وعندما اجتاز نظمى امتحان نصف العام أتى شيخه فرحا مرحا،وجعل موضوع الدرس فى ذلك اليوم بيتا من الشعر الحكيم،ثم آية من القرآن الكريم،أما البيت فهو :

وإذا كانت النفوس كبارا　　　تعبت فى مرادها الأجسام

وأما الآية فهى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.. وكان على نظمى أن يعالج الموضوعين بلسانه،والشيخ يستدرجه ويحاوره على سنة سقراط ،إلى أن وصل إلى غايته من تصغير الغرور إليه.

ومن المواقف التى صاغ الشيخ البخارى من خلالها تلميذه،أنه جاءه ذات يوم وقد دعاه أستاذه فإلى السنة النهائية وطلب إليه أن يصحح – وهو التلميذ بالسنة الأولى – خطأ طالب طال شاربه وأوتى بسطة فى الجسم،بعد أن عجز كل تلاميذ الفرقة النهائية عن ذلك التصويب،فأجاب بداهة،وأمر الأستاذ التلاميذ جميع أن ينهضوا واقفين ويحيوه تحية التعظيم،ففعلوا صاغرين،حتى إذا انقضى اليوم الدراسى تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجعلوا يتناقلونه بالأرجل وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد،حتى تمزقت ملابسه

واحمر قفاه،ولو لا أنفته الشديدة لفاضت عيناه.

عالج الشيخ تلميذه بطريقة عملية،ويصف نظمى الوقف بقوله:«عض الشيخ على نواجذه ثم قال:الموضوع الذى سنجعله مدار حديثنا اليوم هو آية الفضل أن تعادي وتحسد،و:كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد،وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر،حتى إذا انتهينا إلى قول أبى الطيب المتنبى:وإذا أتتك مذمتى من ناقص/ فهى الشهادة لى بأنى كامل».

استشعر نظمى لوقا العزة بعد الذل،والكرامة بعد الهوان،ولما آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم،انتقل إلى جرح من نوع آخر،إلى جرح آخر أحدثه الحقد،ونزعة فطرية إلى الثأر،فقال لنظمى:أريد أن تعد لمجلس الغد قول أبى الطيب:وأتعب من ناداك من لا تجيبه/ وأغيظ من عاداك من لا تشاكل،وأيضا قول المسيح عليه السلام:أبت.سأغفر لهم فإنهم لا يدرون ما يفعلون.

كان طبيعيا أن يكون الشيخ هو ملاذ نظمى فى كل ملمة تلم به،ونبراسه فى كل مدلهمة،وقدوته التى يأتم بها عقلا وقلبا وعاطفة وضميرا،لقد أصبح الشيخ القزم عملاقا،وسكن إليه نظمى واطمأن،وأخذ نفسه بأدبه وفضله،أمره الأمر،ورأيه الرأى،وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد يلتمس الشيخ،فعرف نظمى أنه خادم أستاذه فقال له:الولد حضر يا مولانا،الولد خادمك،فأشاح بعنقه كعادته حين يضيق بشئ سمعه،وأدنى الغلام برهة ثم انصرف،وعندئذ قال الشيخ:ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد،كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: فتاى وفتاتى ولا يقول عبدى وأمتى،وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع فى معاملة خدمهم،ثم قال فى حزم:أرجو أن تفكر حتى غد،وعندما تخلو إلى نفسك فى المخدع،ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدما؟فإنه مثلنا ابن أب وأم،والدهر

الذى جار عليه جار على سائرنا،وأحب أن تفكر فى قول الشاعر:إذا ما الدهر جاد على أناس/ كلا كله أناخ بآخرينا.

قضى نظمى ليلته مؤرقا وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حى،وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادما فى بيت كبيته هذا،وطار قلبه،وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخادم فى بيته رفيقا رقيقا،ولما رأى أمه تسبه وهى تتعجله قضاء حاجة ثار بها،وأسمعها طرفا مما وعاه من آداب الرسول وصحابته فى هذا السبيل،فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته،ووعدها أن يكون له مع الشيخ البخارى حديث فى هذا الأمر.

وعندما حل العصر قال الوالد للفتى: أنه لا درس اليوم،وذهب الوالد إلى الشيخ وتحدث معه فيما جرى فقال له الشيخ:هل ترضى أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكمل والنهج الأقوم وأن أعرف الحق وأحيد عنه،فرد الوالد:بل لا أريد،فاستدرك الشيخ:وإن أردت أنت فإنى لا أريد؛ لأن ذلك هو الغش البين،فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقا وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك،فرد الوالد:ولكن يا مولانا الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، فأكمل الشيخ رأيه ورؤيته،ويداول الدنيا بين الناس،ثم أما قرأت كتابك؟ألم تجد فيه أن المسيح عليه السلام ورأيكم فيه ما تعلم أنه غسل أقدام حوارييه،آداب الرسل ليس فيها تفاوت،وإنما التفاوت عندنا حين نفرط فى لباب الدين لنتسلق بزخارف الدنيا.

أعاد الوالد على أم نظمى حديث الشيخ،وآذنها أن يستأنف الولد الدرس من الغد عند الشيخ،فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرفيعة أتاحه الله له فى صورة هذا الشيخ،قال لها:وإنى لأستحى والله أن يظن الشيخ بنا دون هذه الآداب.

وحتى يحدث الأب والأم توازنا ما من وجهة نظرهما فى شخصية الفتى،فقد بدأ يقرآن له فصولا من الإنجيل كل يوم،ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة،وجعلت أسرار العقيدة تصب فى دماغه صبا،فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى وناقش فقيل له:إن الإمعان فى التفكير يسوق إلى الكفر،وأن المنافشة سبيل الشك،ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الإيمان،وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء.

لم يجد نظمى لوقا أمامه إلا شيخه يلتمس منه الهداية،فتحرج الشيخ أن يطرق الموضوع،لكنه أخذ يحدثه عن العقل،وأنه الإمام الذى أنعم الله به عليه،وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل،وأن اليقين الذى لا يصمد للشك يقين زائف،والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال،وحدثه الشيخ فى ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة،وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم فى حياته من بعد.

حدثه الشيخ البخارى عن غاندى وكيف كان يصلى بآى من القرآن والإنجيل والتوارة والبرهما بوترا،وحدثه عن متصوفة الإسلام،وعن محيى الدين بن عربى،وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور.

قال له:اقرأ يا بنى كتابك بنفسك،واحتكم إلى عقلك،واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء،وعن فعل السوء،وعن تفكير السوء.

سمع نظمى بعد ذلك واعظا مشهورا حضر إلى المدينة، واحتشد القبط لسماعه احتشادا مشهودا،فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت،سماهم الذئاب الخاطفة،وحض على اختصامهم،فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحدا أو يرد عليه

السلام،تصور نظمى أن البروتستنت ذوى أنياب كاشرة،ومخالب كاسرة،وذهب إلى الشيخ البخارى بذلك الحديث وهو مفزوع،فاغتم الشيخ وقال:أواثق أنت مما سمعت يا بنى؟،فلما قال له :كل الثقة يا مولانا،رد عليه:أعوذ بالله،إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء،فالمسيح الناصرى يقول:أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم،كبرت كلمة تخرج من أفواههم، اقرأ إنجيلك يا بنى وافتح له بصيرتاك،واصدد عن مفسرى السوء ما استطعت...ووعى نظمى لوقا الدرس جيدا،وكانت أن قسمت له الأقدار أن يتزوج بعد عقد ونصف من هذه الواقعة من إحدى بنات الذئاب الخاطفة،وهى الدكتورة صوفى عبد الله.

حفظ نظمى لوقا القرآن وهو ابن تسع سنوات فقط،ووعى المعلقات وديوان الحماسة،وقرأ اللزوميات،وافتتن بأبى العلاء والمتنبى على وجه الخصوص، وأصبحت سيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه،يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبى طالب،والشيخ من وراء ذلك أعز عليه من أهل الدنيا جميعا.

ثم كان لابد أن تكتمل الملحمة – ملحمة حب نظمى للشيخ البخارى – أصيب شقيق نظمى فى مهده بمرض طويل أكل علاجه الأخضر واليابس،ثم مات فركب الأسرة دين،وسافرت الأم – وهى حامل فى شهرها الثامن إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية حفيدة القسوس جزءا من حقها القانونى فى وقف جدتها،وكانت أم نظمى وحيدة أمها،ولبثت الأم فى سفرها ثلاثة أيام أحس نظمى فيها بالوحشة،ثم عادت الأم من سفرها خالية الوفاض دامعة العين،وقد أبت عليها أمها الثرية حقها،وهى بين الثكل والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضعضعة النفس.

قررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة،فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا،وقطعت تيار الكهرباء واستغنت عن الخادم والغاسلة،وأقبلت الأم

الحبلى تعمل بيديها كل شئ حتى الخبز،فحز ذلك فى نفس نظمى الذى يكاد يعبد أمه من دون الله.

وتقرر فيها تقرر الاستغناء عن الدرس،وكان الشيخ قد عرف طرفا من ذلك الحديث الذى لم يكن يطوى عنه أشجانه،فإذا به يسكت عندما فاتحه الوالد فى انقطاع ابنه،وينصرف الإبن إلى داره،وإذا بالباب يطرق بعد قليل،وإذا بالشيخ الضرير يقوده صبى الحلاق،ويبادر الوالد قائلا:ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة أو نحوها.

عرف نظمى أن الشيخ عازم على أن يستمر الدرس بغير مقابل،وأن تلطفه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلميذه صونا لعزته وزيادة فى مروءته،ولم يسع نظمى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدته التى تنتمى للمسيح وتتشدق بإسمه،وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد وآله خمس مرات كل يوم،ليس البر إذن وقفا على دين دون دين.

(٢)

إننى لا أستطيع أن أشكك فى نوايا الشيخ البخارى،الذى رفض التدريس لعدد كبير من أبناء المسلمين،ورضى عن رضا وقناعة أن يدرس لنظمى لوقا وهو الطفل المسيحى،وقد يقول: أن الفتى كان ذكيا ونابغة،وهو كلام مردود عليه بأنه حتما كان من بين أبناء المسلمين من يفوقون نظمى ذكاء،أو على الأقل يمكن أن يضاهونه دون زيادة أو نقصان،لكن الشيخ اختاره هو،وعندما عرف أن ظرفا ماديا يمكن أن يحول بين الفتى وبين انتظامه فى الدرس،بادر بنفسه ليقدم جهده متطوعا دون مقابل.

هل كان فى نفس الشيخ البخارى شيئا لا يعرفه أحد؟

لقد علمتنى التجارب أن أحكم على الناس بأفعالهم وليس بنواياه،فالنوايا يعلمها الله وحده،وهو المطلع على السرائر،لكن حرص الشيخ البخارى على أن يتقاطع مع عائلة نظمى المسيحية، يؤكد أن الرجل كان يمارس دوره فى الدعوة إلى الإسلام،وحتما كانت سعادته ستكتمل لو أسلم نظمى ومن وراءه عائلته،لكن ذلك لم يحدث،فقد رحل نظمى عن مدينة السويس وعمره عشر سنوات،حاملا على كتفيه آثار الشيخ البخارى،وهى الآثار التى اعتقد أنه لولاها لما أخرج لنا نظمى إسلامياته الكثيرة،ولما فكر فى أن يصدر موسوعته الإسلامية الكبرى،التى مات دون أن يكملها.

(٣)

ومن هنا تحديدا دخل له القمص سرجيوس الذى رد على كتابه «محمد الرسالة والرسول » فى كتاب كامل،أعتقد أنه من المهم هنا أن نقدم لأهم ما جاء فيه،على الأقل من باب الموضوعية،ولتكتمل الصورة أمامنا جميعا.

بدأ سرجيوس رده بفصل عنوانه «نظمى فى حضن شيخ الجامع»،يقول:لم يدهشنا أن مسيحيا يكتب عن محمد،كما لم ندهش لمسلك كالأستاذ عباس العقاد يكتب عن المسيح؛لأن من حق الناس أن يبحثوا كل رسالة لرسول يدعوهم لإعتناقها،وإذا كنا قد تصدينا لكتاب العقاد،فقد كان التصدى لعنونته كتابه «عبقرية المسيح»،والسيد المسيح هو ابن الله النازل من السماء وقد حبل به من الروح القدس،كما يقول الإنجيل والقرآن،وله السلطان على إخراج الشياطين،ومن ثم فسموه الفائق ليس عبقرية،إنما هو لاهوت متجسد».

ويفصل سرجيوس أسباب تعرضه لكتاب نظمى،وذاك لأنه:

أولا:بقى مسيحيا بعد أن آمن بمحمد وديانته واعترف بأنها الديانة التى جاءت لتصحيح أخطاء أهل الكتاب،وأنها إلى آخر ما وصفها من الأوصاف المتناهية

السمو والكمال،وبعد أن جعل من الديانة المسيحية مطرحا لكل زبالة أفكاره،فقال أنه لم يبق فيها إلا الذين لم يتطوروا،وأنها عجزت عن أن تلاحق تطور البشر ومستويات إدراكهم ووعيهم العمرانى،فهل تراه فى شك مما كتب،فيتوقع منا ردا يقنعه بفساد رأيه فيظل قابعا فى مسيحيته.

ثانيا:بلغ به غروره حدا توهم معه أن المسيحيين يعجزون عن الرد عليه،فيندفع إلى اعتناق الإسلام فى زفة مقطوعة النظير،تطوف الشوارع،وربما بلاد القطر باعتباره بطلا من أبطال التاريخ،استطاع بجرة قلمه أن يحطم صخر المسيحية التى تحطمت عليها جميع قوات الجحيم.

ثالثا:قد يكون نظمى لوقا متترسا فى مقعده من المسيحية ليكون البرهان أقوى البرهان ضد المسيحية،ولصالح الإسلام،على قاعدة «وشهد شاهد من أهلها»،الأمر الذى كشفه الأستاذ أمين الخولى فى تقريظه – مدحه للكتاب – إذ قال:«فإنه وهو القبطى الصليبية يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب عن «محمد الرسول ورسالته».

رابعا:لقد كتب نظمى لوقا عن محمد على حساب المسيح،بينما كتب الكتاب المسلمون ولكن ليس على حساب دينهم،بل كانوا إذا ما اضطروا إلى تدوين حقيقة عن المسيح لا يمكن إنكارها،كانوا يكتبونها فى لباقة وخفة يد بحيث يتحاشون الاصطدام مع دينهم وكتابهم،وبحيث لا يشعر القارئ أنهم هربوا أو تحاشوا عن الاصطدام.

خامسا:خيل للدكتور نظمى المسيحى الصليبية كما يصف نفسه أن يذيب المسيحية،ويجعل منها مدادا يصوغ به عقود مدح لمحمد ودينه،الأمر الذى لحظه قارئو كتابه فقالوا:«إنه مسلم أكثر من المسلمين ومحمدى أكثر من محمد».

فقال فى صفحة ١٣٤:«إن أهل الذكر هم من يذكرون الله ويصدقون

ويتقون»،وهذا التفسير يخالف تفسير أئمة الدين الإسلامى،وفى مقدمتهم الإمام البيضاوى الذى فسرها بقوله:«أهل الذكر هم أهل الكتاب أو علماء الأحبار»،بل يخالف نص القرآن الصريح:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ ،كما يخالف سياق الكلام،وهذا التعسف من الدكتور نظمى المسيحى لأنه لا يريد أن يعترف بكتاب اليهود والنصارى وأهل الذكر،ومن هنا تأكد لقراء كتاب نظمى صدق القول المشهور:«المتعصب دخيل».

وينطلق القمص سرجيوس من أسبابه تلك إلى أن نظمى لوقا ليس دخيلا على الإسلام،بل هو كما يراع معجون بالإسلام عجنا،وهو بنفسه قد كشف عن حقيقة ولادته فى الإسلام،إذ قال فى الصفحة ٣٣ تحت عنوان «صبى فى المسجد»:«صبى قصير نحيل واسع العينين لم يتجاوز السادسة إلا قليلا يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس ليرى الشيخ جالسا،ويبش الشيخ للقائه،ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد،ليبدأ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر إلى العشاء.

وفى مدينة السويس يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبى أرومة معرفة فى صناعة القسوس فكم له من جد من ذوى الطيالس السود والعمائم السود،فلا شك إذن فى قبطية هذا الصبى الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ،وأن الحيرة لتستبد بهم،ثم تأخذهم نافلة من الغيرة يتهامسون فيما بينهم ويتناجون،ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد ويتقدم فيؤم المصلين،ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع».

ويعلق سرجيوس على ما اقتطعه من الكتاب بقوله:«هذا ما كتبه الدكتور نظمى بيده عن كيفية عجنه بالإسلام،وكيف لم يعجن بالإسلام عجنا وهو منذ نعومة أظفاره لم

يمكث في حجر أمه ولا رضع من لبانها بقدر ما مكث في حجر الشيخ وحضن الجامع ورضع من لبان تعاليمه،ولا تمتع بابتسامة والديه بقدر ما شبع من ابتسامات الشيخ منذ كان كالعجينة اللينة أو الشمع الطرى القابل للتشكيل،والطبع بأى طابع «والعلم في الصغر كالنقش في الحجر»،أو كما قال سليمان الحكيم:«رب الولد في طريقه فمتى شاخ لا يحيد عنه»،ولا سيما وأن الشيخ قد اصطفاه دون صبيان المسلمين والمسيحيين،وخصص ذاته لتدريسه دون سواه،غير مبال بهمسات الناس ومجاهرتهم».

هذا التخصص والإنفراد – كما يذهب – سرجيوس – مكن الشيخ من أن يصب العلم في الصبى صبا،فجعله يحفظ القرآن ويجوده بأقوم لسان في السن التى يكون فيها لسان الصبى مائعا لا يضبط اللفظ تماما،ولا سيما لفظ القرآن،وهو الأمر الخارق للعادة،وكيف لا يكون خارقا أن صبيا في السادسة من عمره يستطيع بعد التلاوة مباشرة أن يبين معانى السورة،والشيخ يناقشه،ويقلبه على كل الوجوه،الأمر الذى لم يسمع عنه في العالم الإسلامى،لا في أولاد الصحابة ولا المقربين،أن تمتع صبى منهم بمثل ما تمتع وامتاز الصبى نظمى من ذكاء وحظوة.

ويتساءل سرجيوس:فهل يستغرب من صبى هذه نشأته وهذه عجينته أن يتهجم على المسيحية بهذا القلم المغموس في دواة صب فيها ما صب في طفل كان يعيش ذاك الوقت في العقل الباطن وراحت تلاحقه في هذه السن الصدمات النفسية.

ويستدل سرجيوس بالكراهية التى يكنها نظمى للمسيحية على أن ما فعله الدكتور المسيحى لم يكن إلا مكيدة للمسيحية وبغضا لها،يقول عنه:«تكاملت في أضلاع نظمى ناران،نار الحب التى أشعلها الشيخ في قلب الصبى بتعليمه،ونار الكره للمسيحية التى أضرمتها جدته في قلبه بقساوتها،وكل هذا كان له أثره الفعال في نفسه في حال طفولتها،فإذا قيل عن البعض أنهم يعيشون في دور الطفولة،فذلك لأنهم صدموا

بصدمات شديدة فى طفولتهم كالصدمات التى صدم بها الطفل أو الصبى نظمى،فعاش متأثرا بما لاقته أمه من قسوة وما لاقاه له من ضيق وفقر ومرارة،تتفاعل فيه تلك العوامل كلها،عوامل الحب للشيخ وعوامل البغضة لجدته ودين جدته.

لم تقف الصدمات النفسية التى واجهها نظمى - كما يرى سرجيوس – عند حد بل جاءت الصدمة تلو الصدمة،وعندما تتجمع هذه الصدمات وتلتف حول رقبة الطفل،كما يلتف حبل المشنقة،إذا بالشيخ يقبل مسرعا ليرفع حبل المشنقة عن الصبى ،وقد تكرر هذا كثيرا،عندما سخر منه زملاؤه،وعندما ضاقت الأحوال بالأسرة فذهب إليها متطوعا ومعاونا.

ويدخل سرجيوس إلى مساحة جديدة يشير من خلالها إلى أن نظمى كان مغرضا فيما كتبه عن الإسلام،وأنه ما كتب ليدافع عن رسوله،ولكنه كتب ليصب حمم كراهيته للمسيحية،يقول:« كنا نود ألا نتعرض للدفاع عن جدة نظمى،لولا أنه جعل منها ومن شيخه مقارنة بين الإسلام والمسيحية،وأراد أن يبين قسوة المسيحية وتأثيرها فى أتباعها،وحنان الإسلام وعطفه وتأثيره فى أتباعه من الجهة الأخرى،وكان له أن يمتدح الشيخ ودينه ما شاء له المدح،دون التعريض بالمسيحية،أما وأنه مغلوب من عادته،وعاداته ألا يمتدح محمدا والإسلام إلا على أساس التشنيع على المسيح والمسيحية،لذلك أهمس فى أذن نظمى،هل تظن أن قساوة جدتك عليك وعلى أمك إلى هذا الحد كان بسبب كونها مسيحية؟ .

ويجيب سرجيوس:«أم لأن همس أهل السويس الذين كانوا يتهامسونه عندما يرونك كل يوم مع الشيخ داخل الجامع،دون جميع صبيان السويس،قد بلغ بصوت مكبر إلى جدتك فى القاهرة،وقيل لها:أن حفيدك قد سلمه أبواه إلى شيخ جامع بالسويس،وهو فى السادسة من عمره ليرضعه لبن التعليم الإسلامى،وإن حفيدك

صار موضوع حديث الناس وتساؤلهم ودهشتهم،فلو كنت أنت حفيد الشيخ نفسه وسلمتك أمك ليد قسيس داخل كنيسة ليعلمك الديانة المسيحية،وأصاب أمك من الضيق المالى ما أصابها،وذهبت إلى أمها زوجة الشيخ المسلم تطلب مساعدة مالية أو كسرة خبز،فهل كان شيخك العملاق يقدم لها هذه المساعدة،أو كان على العكس من ذلك يرجمها ويحرقها لأنه يعتبرها مرتدة عن الإسلام...إذن لم تكن جدتك قاسية فى جانب أمك بل غضت الطرف عنها معتبرة إياها كما اعتبرتها».

يمسك سرجيوس بعد ذلك بما قاله نظمى فى مقدمة كتابه،من أنه ليس ينكر أن بواعث كثيرة فى صباه قربت بينه وبين هذا الرسول – يقصد النبى محمد صلى الله عليه وسلم – وليس فى نيته أن ينكر هذا الحب أو يتنكر له،بل إنه يشرف به ويحمد له بوادره وعقباه،ليدلل على أن نظمى ليس مسيحيا ولكنه معجون بالإسلام عجنا.

لا يتعرض سرجيوس لنظمى لوقا شخصيا بعد ذلك،بل يتفرغ على طول وعرض ١٣٠ صفحة من الكتاب،للرد على أفكار نظمى،فيما قاله عن الإسلام،وفيه محاولة لدحض كل ما قاله نظمى،ولأننى لست بصدد عقد مبارزة فكرية بين نظمى وسرجيوس،فإننى سأكتفى ببعض ما كتبه ردا على نظمى،وليكن معنا منها عشر نقاط محددة.

أولا:كتب نظمى فى كتابه:«وقف الفتى الذى درج إلى الشباب وقفة لم يكن منها مناص:إن تكن هذه الأديان صحيحة،فبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد».

وعن ذلك يقول سرجيوس:« حق ما قيل:إن أول القصيدة كفر،وقد انطبق هذا على الدكتور نظمى الذى تنطع للدفاع عن الإسلام،فأكرهه الحق الإلهى على أن يتكشف ويكشف أوراقه من أول لحظة،وفى أول خطوة يخطوها فى سبيل الدفاع عن الإسلام

فإذا بجعبته لا تحتوى إلا على أسلحة هى السخف بعينه،وبما أن السخف لا يعالج إلا بالسخف،فضع أمام نظمى لوقا سخافة ونطالبه بمثل ما طالبنا به فنقول له:إن تكن الأديان الثلاثة – اليهودية والمسيحية والإسلامية – صحيحة فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد على ميرزا الزعيم الدينى البهائى؟

فهل يسلم الدكتور نظمى بهذا التحدى ويعترف بصدق رسالة زعيم البهائيين؟أم يقول إن هذا تحد باطل وسخيف،فإن اعترف بزعيم البهائيين بناء على هذا المبدأ الفاسد الذى وضعه هنا فى صورة تحد،كان له من حكم محكمة القضاء الإدارى الذى أصدرته على الطالب النهائى بحرمانه من الجنسية المصرية ونشرته فى أهرام ٣١ أكتوبر ١٩٥٩ خير الجزاء».

ثانيا:كتب نظمى فى كتابه:«الآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،هى صدق الكلمة من حيث هى،فإن آية الحقيقة نفسها تحمل برهانها فى مضمونها فيطمئن إليها العقل ويبدو هزيلا واضح البطلان».

وكتب أيضا : « إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها» اعتبر سرجسوس أن هذان مقياسان نسجهما نظمى،وكان رده عليه كالتالى:« فى المقياس الأول جعل نظمى صدق رسالة الرسول متضمنا فى ذات الرسالة ، والرسالة هى التى تحمل برهانها فى مضمونها،وهى وحدها آية نفسها، وفى المقياس الثانى جعل صدق الرسالة قائما ومحمولا ومتضمنا فى ذات الرسول وهو إيمان الرسول برسالته،وشتان بين أن يكون صدق الرسول متضمنا فى ذاتها،وأن يكون متضمنا فى إيمان الرسول الذى يحملها.

فى المقياس الأول يجل الرسالة قادرة على إثبات صدقها،بدون حضور الرسول

لأنها ليست بحاجة إلى دليل خارجى إذ تحمل دليل صدقها فى مضمونها،وإن كل الأجيال تدرك صدقها فى غياب الرسول وغياب المعجزات،وفى المقياس الثانى يجعل الرسالة عاجزة عن إثبات صدقها،إلا إذا كان الرسول الذى يحملها أمام الناس ليروا مقدار إيمانه برسالته.

فى المقياس الأول قطع خط الرجعة على المقياس الثانى،إذا قال : أن اللآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،وفى المقياس الثانى يقول:إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها،وكلا المقياسين باطل».

ثالثا: يقول نظمى فى كتابه:«إن السلعة الأصلية هى التى تؤدى للناس ما لا تؤديه سلعة أخرى،وإن كانت تشبهها فى بعض الوجوه وليست تقليدا أو تزييما لسلعة سابقة عليها بحيث يكون غيابها نقصا واضحا لا محل فيه للإنكار».

ويرد سرجيوس بأن نظمى لوقا بهذا التشبيه يكشف عن ناحية أخرى من أسباب تهجمه وطعنه فى دينه المسيحى،غير ما ذكر من تسليم أبويه إياه إلى شيخ جامع السويس منذ نعومة أظفاره،وقساوة جدته على أمه التى عادت من عندها مهيضة الجناح مضعضعة،فقد كشف بهذا التشبيه عن اعتباره للأديان ولاعقائد أنها كالسلع تباع وتشترى،وأنها قابلة للمساومة،والعرض والطلب،وزيادة الربح وانتهاز الفرص والظروف الملائمة،وتطبيق قواعد »اللى تغلب به العبه.

ولا يمكن أن يكون نظمى قال هذا القول بدون وعى،فهو يكتب على المكشوف ويرياك لأن هذا مبلغ الديانة والعقيدة عنده،وأنه على استعداد للمساومة،على دفاع آخر يقدمه لأى دين يطلب منه الدفاع عنه أو الطعن فيه،على شرط أن يفهم من يساومه أن الدين كالسلعة تباع وتشترى.

رابعا: ويذهب سرجيوس أنه إذا كان الدين لله وكما يقول الدكتور نظمى فى صفحة ٥١ من كتابه:«كذلك العقائد والأديان،كلها عقائد غيبية تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون»..ومعلوم أن الذى يحدد هذه الصلة هو الله بما يوحى من شرائع يظهر فيها إرادته تعالى،وإرادته تعالى بصفته قدوسا رحيما،أن نكون مثله تعالى فى القداسة كما يقول بولس الرسول:«لأن هذه إرادة الله أن تقدسوا أنفسكم»..وقول السيد المسيح:«كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم».

والقداسة والصلاح الأدبى هو صلاح فى ذاته لا بسبب ما يؤدى إليه،ولا بسبب موافقته للعقل،وإن كل ناموس مبنى على إرادة الله هو عبارة عن مطالب طبيعته تعالى،وطبيعته تعالى غير قابلة للتغير لأنه تعالى «ليس عنده تغير ولا ظل دوران»،وقد أعلن الله شريعته فى الطبيعة المادية وفى بنية الإنسان العقلية والأدبية،مكتوبة فى نسيج كياننا وخلايانا وأعصابنا ومجرى دمنا وحياتنا وهى الطريقة التى خلقنا لنعيش بها،وكما يصمم المهندس فى داخل الآية الميكانيكية طريقة عملها لكى تسير وتحفظ من العطب والتلف،هكذا اقتضت حكمة الله أن يطبع نواميسه داخل كياننا كما طبعه فى كيان جميع المخلوقات،وهذا عين ما قرره الرب يسوع بقوله:«ملكوت الله فى داخلكم».

وهذا هو عين ما عبر عنه الوحى الإلهى فى سفر التكوين بقوله:«وعمل الله الإنسان على صورته»،وبولس الرسول بقوله:«إن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو من الناموس،فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس،هم ناموس لأنفسهم،يظهرون عمل الناموس مكتوبا فى قلوبهم،وضميرهم يشهد وأفكارهم أيضا مشتكية ومحتجة».

خامسا:وتحت عنوان «دين البشر»..وهو عنوان مأخوذ من كتاب نظمى،يقول

سرجيوس:«تحت هذا العنوان كتب الدكتور نظمى فى الصفحة ٦٩ يقول:«لم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة يجتمع إليها العقل والقلب جميعا،ينبغى أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة،لا فرق فيهم بين شعب وشعب،ولا بين جيل وجيل،ولا بين طبقة وطبقة».

هذا ما يقوله الدكتور نظمى،وكأن المسيحية المنتشرة وقت مجئ محمد كانت ديانة بعيدة عن العقل،وكانت دين القلب فقط،فاستلزم أن يأتى الدين الإسلامى ليجمع العقل والقلب معا،ومعلوم أن القلب مركز الإيمان،فهو إذن يريد أن يقول أن الناس قبلوا المسيحية بالإيمان فقط دون أن يستعملوا العقل لبحثها وفهمها والحكم فيها،فهى والحالة هذه تكون ديانة السذج الذين لا يمكن التأثير فيهم بسهولة.

ويضيف سرجيوس:«ومعلوم أيضا للدكتور نظمى لوقا أن الديانة المسيحية لم تنشر لا بالإكراه؛لأن الذين نشروها كانوا من الضعفاء المزدرين صيادى سمك،ولا بالإغراء لأنهم كانوا فقراء لا يملكون ما يغرى الناس،ولا كانت تعاليمهم اباحية يجد الناس فيها إشباع الشهوات وإباحة المحظورات،بل بالعكس كانت تعاليمهم تنفر منها الطبيعة البشرية،إذ تأمرهم بانا كار الذات والتواضع وعدم الطمع،وأن يعطوا خدهم اليمين لمن يلطمهم على الشمال،ولا كانوا فلاسفة حتى يلعبوا بالعقول بل كانوا جهالا،ولا بالتهديد لأنهم ما كانوا يملكون سيفا ولا حربة،اذن بأية قوة انتشرت المسيحية فى أقطار العالم واعتنقها العالم والجاهل،الغنى والفقير،القوى والضعيف،أليس انتشارها يكون فى ذاته معجزة من المعجزات؟».

ويتساءل سرجيوس:«هل كان للعرب أفرادا وجماعات فرصة للبحث والجدل واستعمال العقل حتى بلغوا حد الاقتناع العقلى؟أم كان البرهان أصدق برهان هو السيف والقتال الذى كتب على كل مسلم،كما ورد فى سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

﴿ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾..و﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾..وفى سورة الأنفال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾..﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾،وجاء فى حديث البخارى :قال محمد : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،فهل كانت المسيحية دينا لشعب خاص أو بلد خاص،أو لغة خاصة حتى كان العالم بحاجة إلى ديانة غير ديانة المسيح،لكى تضم كل أمم العالم وقارات الدنيا».

ويوجه سرجيوس كلامه لنظمى لوقا مباشرة:«اسمع يا نظمى ما يقال فى الأمثلة العامة»الكتاب يعرف من عنوانه»،فعنوان الدين يعرف من اللغة التى ينشر بها،فاللغة التى جاء بها القرآن هى اللغة العربية فقط كما ورد فى سورة يوسف:﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾...فلو كان كما تقول دين البشر قاطبة لكان جاء على الأقل بأهم اللغات الشائعة،أو كان ترجم إلى اللغات الأخرى أو بعضها حتى يستطيع أهل العالم أن يفهموه ويعقلوه ويعتنقوه،بل وهناك مانع آخر غير مانع اللغة وهو أنه لا يسمح لغير المسلم أن يمس القرآن لأن :﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

ويكمل سرجيوس حديثه إلى نظمى:«أما المسيحية فقد بشر بها رسل المسيح بعد أن حل عليهم الروح القدس،بعد صعود المسيح بعشرة أيام فى يوم الخمسين،وخاطبوا الذين جاءوا إلى أرشليم من أقطار المسكونة من اليهود الذين اندهشوا عندما سمعوا أولئك الرسل الجليليين يتكلمون بلغات البلاد التى كانوا متغربين فيها،ثم إن فى العالم حوالى ألفى مليون نسمة ويزيد – وقت تأليف الكتاب فى نهاية خمسينات القرن العشرين – وعدد المسلمين فيه ٢٦٥ مليونا ويزيد،وعدد المسحيين ٨٠٠ مليون،وما يزيد على ألف مليون لا يزالون على الفطرة وبعضهم

يعتنق مبادئ عقلية وفلسفية أو عبادات كفرية أو صنمية،وها قد مضى على الإسلام ١٣٧٩ سنة،ولم يمتد الإسلام إلا إلى جزء من ثمانية من أهل العالم بينما بلغت المسيحية رغم مبادئها التى لسموها تنفر منها الطبيعة البشرية التى لم تنضج،بلغت ما يقرب من نصف البشر وآخذة فى الامتداد بواسطة المبشرين المنتشرين فى كل أقطار العالم يبشرون بلغات البشر جميعا ويقدمون لهم الإنجيل بجميع اللغات».

سادسا:ويأخذ سرجيوس على نظمى ما قاله فى كتابه من أن «نزول القرآن كان ليصحح عقائد أهل الكتاب»،ويقول فى الرد على ذلك:أى العقائد جاء القرآن ليصححها لهم؟هل عقيدتهم فى كتابهم؟أم عقيدة خرجوا بها عن حكم كتابهم،فإن قال عقيدتهم فى كتابهم يكون قد طعن فى ذات القرآن لأن القرآن جاء مصدقا لكتب اليهود والنصارى ومهيمنا عليها،وأمر محمدا أن يسأل أهل الكتاب ليزيلوا الشك من قلبه،من جهة ما أنزل إليه.

كما يتنزل أيضا محرضا ومهددا:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ...فلو أن كتب اليهود والنصارى محرفة ومبدلة،فكيف ينزل القرآن مصدقا على كتب محرفة ومغلوطة؟وكيف يحيل الله محمدا على أهل الكتاب يسألهم ليزيلوا الشك من قلبه؟وكيف يحض أهل الكتب على أن يقيموا التوراة والإنجيل؟بل وكيف يقول القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ،فأين إذن الوعد الإلهى بحفظ الذكر إذا كان يترك الناس يعبثون بالذكر ويحرفونه؟وإذا سمح الله للناس أن يحرفوا الذكر الذى بين أيدى اليهود والنصارى فيسمح أيضا للذكر الآخر أن يعبث به الناس.

ويستدرك سرجيوس فى رؤيته:وإذا قال نظمى أن القرآن جاء ليصحح عقائد أهل الكتاب التى خرجوا بها عن كتابكم،نقول له:إن هذه المهمة لا تحتاج إلى دين

جديد بل إلى وعاظ ومصلحين ينادون الناس بالتوبة والرجوع إلى الحق،الرجوع إلى الشريعة كما كان يحدث قديما،فعندما كان يزيغ شعب إسرائيل عن الله ويحيدون عن وصاياه ويخالفون شريعته،كان يقوم بينهم أمثال إيليا وأشعياء وارميا ويوحنا المعمدان وينادون كما نادى إيليا قائلا للشعب الإسرائيلي:حتى متى تعرجون بين الجانبيين..إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه».

وكما يقوم الواعظون فى كل زمان ومكان بين اليهود والمسيحيين والمسلمين يعظون ويوبخون ويحثون الناس على التوبة والرجوع إلى الشريعة والتمسك بمبادئ الدين،دون أن يأتوهم بدين جديد وشرائع جديدة،وإلا لو كان كما يقول الدكتور نظمى : يقوم دين جديد لتصحيح الأخطاء،لامتلأ العالم من الأديان العديدة والأنبياء الكثيرين فيحار الناس وسط مئات الشرائع والنواميس وكثرة الأديان فتعم الفوضى ويكثر الأدعياء.

سابعا:لقد قام من بين المسيحيين فى القرون الأولى هراطقة ومبتدعون كثيرون كما قام من بينهم نظمى لوقا،لكن نظمى قال فى المسيح ما لم يقله غيره،فقد أنكر على المسيح ما اعترف له به الهراطقة من قبله – وهؤلاء حرمتهم الكنيسة جميعا- لقد قال نظمى فى كتابه:«فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته وأنه ابن الله،ولم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات حوترية (الأناجيل)إشارة إلى شئ من ذلك،بل كان يدعو نفسه على الدوام ابن الإنسان،وأما البنوة لله عز وجل فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق وبمعنى يشمل البشر كافة».

هذا ما قاله نظمى لوقا عن المسيح معتبرا إياه مجرد بشر وإن نسبته إلى الله كنسبة كل بشرى،وهو ما يعنى أنه كفر بلاهوت المسيح.

ثامنا:كتب الدكتور نظمى لوقا يندد بعقيدة التثليث والتوحيد فى صفحة ٧٣

يقول:إن القرآن جاء ليصحح عقائد أهل الكتاب الذين صاروا إلى القول أن الإله الواجد جوهر واحد،له ثلاثة أقانيم هى الله الأب – والله الابن – وهو المسيح – والروح القدس.

ويرد عليه سرجيوس بقوله:أما نحن فنسأل نظمى لوقا :أجهل منك أم تجاهل بالكتاب المقدس حتى تقول ذلك،إن أهل الكتاب لا ذنب لهم فى هذا الاعتقاد،اللهم إلا إذا كان ذنبهم فى نظرك أنهم لا يخرجون عما جاء فى كتابهم،بل يعتقدون بما جاء فيه.

تاسعا:كتب الدكتور نظمى يقول:أما الإنسان فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا ينحسد عليه كثيرا بسبب ما ألصق به من وزر أبيه الأول آدم،ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى،خطيئة باقية موروثة لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى...فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم أو تزر الولد بوزر الوالد،وتجعل للبشرية كرامة مضمونة.

ويقول سرجيوس:من يطالع هذه الأقوال يقف حائرا لا يدرك ماذا يقصد نظمى بها،بل هو يعتقد بما جاء فى التوارة والإنجيل والقرآن والحديث عن خطيئة آدم وحواء ووقوعهما فى العصيان،أم لا يعتقد؟وهل يعتقد بقصاص الخطيئة أم لا يعتقد؟وهل يعتقد بعذاب جهنم أو هو يهزأ به؟وهل يعتقد بلزوم الكفارة والفداء أو هو كافر به؟وهل هو جاد أم هازل؟

لقد كان نظمى يستطيع أن يكتب ويكتب والقراء يخرجون من وراء ما يكتب دون أن يقفوا على قصده،لولا أن زل قلمه الجموح فراح يهزأ بوصف جهنم،ويجعل منه بعبعا للأطفال ومثير لمخيلتهم،هذا الوصف الذى أوقع الفزع والهول فى نفسه

الصغيرة لا ينساه إلى اليوم،وصف جهنم وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران جزاء وفاقا على خطئية آدم بإيعاز من حواء.

كتب نظمى هذا وهو يدرى أو لا يدرى أن وصف جهنم هذا لم يرد فى توارة اليهود ولا فى إنجيل المسيحيين،وإنما هو وارد فى القرآن فى سورة النساء حيث قيل: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ،﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

عاشرا:تحدث نظمى لوقا عن زواج المسلم بالكتابية وما قاله الإسلام فيه،وعن ذلك يقول سرجيوس:إذا كان القرآن يقول صريحا فى سورة البقرة:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾.

وإذا كان المسلم يتزوج بالكتابية – يهودية أو مسيحية – لكونها غير مشركة، والإسلام يعترف بدينها ولا يجحده،فلماذا لا يتزوج الكتابى بالمسلمة،كما تزوج المسلم بالكتابية أخت الكتابى؟،وما دام القرآن لم يحرم على المسلم والمسلمة إلا الزواج بالمشرك والمشركة،ولم يذكر القرآن السبب الذى يذكره نظمى إذ يقول:إن المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى،بل ذكر القرآن سببا واحدا فى عدم زواج المشرك والمشركة وهو أن المشركين يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة،والكتابيون يدعون إلى الجنة أيضا،إذن يظل السؤال قائما:لماذا لا يتزوج الكتابى بالمسلمة رغم أنف نظمى الذى يقول أن المسألة ليست عصبية أو تحيزا فى كثير أو قليل؟.

ويختم سرجيوس كلامه:فالمسلمون يا دكتور نظمى،يا اللى أنت لسه مسيحى،حتى لا يزوجون بناتهم للكتابى لا يستندون إلى قرآنهم،أما المسيحيون

الذين لا يزوجون ولا يتزوجون بغير مسيحى أو مسيحية،فيستندون إلى كتابهم القائل:أن تتزوج فى الرب،كما أن عقد الزواج يعقد باسم المسيح والزواج المسيحى يمثل اتحاد المسيح بالكنيسة،كقول الرسول:إن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة،أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها،إن هذا هو السر العظيم،أقول ذلك بالنسبة إلى المسيح والكنيسة،وهذا لا يعترف به المسلم ولا يسلم به.

(٤)

إننا أمام وجهتى نظر،صاحب كل منهما وقع فى نفس الخطأ،فعندما كتب نظمى لوقا منصفا للإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم،وكما يرى سرجيوس،فإنه فعل ذلك على حساب المسيحية،حيث انتقص من قدرها،وهو نفس ما فعله سرجيوس فيما كتبه،فلم يدافع عن المسيحية إلا من باب الانتقاص من الإسلام والرسول الكريم،وكأنه لا يستقيم أمر الدفاع عن دين إلا بهدم الدين الآخر على رؤوس أصحابه،وسبه ولعنه.

لقد كان سرجيوس متجاوزا فيما قاله إلى قدر كبير،بل إنه تجاوز ما كان يقصده نظمى لوقا بمسافات بعيدة،ولذلك جاء هجومه فى معظم ما قاله متجنيا على الإسلام،إن ما قدمه نظمى كان محاولة للتأكيد على أن الأديان كلها من عند الله،وأن الإيمان فى أعلى درجاته،لا يتم إلا بأن يؤمن من يريد أن يؤمن بالأديان كلها،فهى مكملة لبعضها،دون أن ينتقص من أحدها شئ،فالأديان مكتملة فى السياق الذى نزلت فيه،أما عندما يتعداها السياق،،فإنها تكون فى حاجة إلى ديانة أخرى تتمم ما تجاوزها الزمان فيه،لا أكثر ولا أقل.

لكنى أعتقد أن القمص سرجيوس الذى لم يتحرك للرد على نظمى لوقا من تلقاء

نفسه،بل أغلب الظن أنه كان مكلفا من الكنيسة بذلك،ولذلك فإن رده لم يكن لتفنيد ما قاله نظمى فيما يخص المسيحية والإسلام،ولكنه كان يقدم مذكرة تكفير نظمى لوقا،وتأكيد تهمة الهرطقة عليه،حتى عندما تأتى الكنيسة لتحرمه،أو تطرده من رحمتها وترفض الصلاة عليه بعد وفاته،فإنها تكون مستندة إلى وثيقة،كتبها رجل دين مسيحى.

(٥)

بعد حوالى ربع قرن من ظهور كتاب «محمد الرسالة والرسول »، وجد نظمى لوقا نفسه مضطرا لأن يصدر كتابا يوضح فيه حقيقة علاقته بالإسلام،بعد أن كانت هذه العلاقة مصدر لكثير من اللبس والإزعاج،وكان كتابه الذى يكمل به سلسلة إسلامياته،وهو «أنا والإسلام».

فى الفصل الأول من «محمد الرسالة والرسول» قدم نظمى ما يمكن أن نطلق عليه خيوط علاقته بالإسلام،وهى الخيوط التى جعلته يقدم على تقديم سلسلة من الإسلاميات بمنهج موضوعى قدر الإمكان،لكنه ورغم ذلك لم يسلم من الإتهامات التى لا حقته،ولا تزال،وأعتقد أن ذلك تحديدا هو ما جعله يختم كتابه أنا والإسلام بما يشبه البيان التوضيحى.

تحت عنوان :جائزة من نوع خاص،قال نظمى:«فى شهر مارس سنة ١٩٨٤ –بعد الفراغ من كتاب أنا والإسلام بشهرين – حدثنى مجهول من أبناء الحلال بالتليفون،مؤكدا أننى دسيسة نصرانية تحاك للإسلام،وكان عهدى على مدى ربع قرن باتهام أبناء الحلال من الفريق الآخر بأننى دسيسة إسلامية ضد المسيحية،وهكذا تمت لى كل أسباب الاستحقاق لجائزة من نوع خاص،هى جائزة أسوأ المفكرين المصريين سمعة عند الغوغاء كافة فى جميع المعسكرات والطوائف بلا استثناء.

والمسألة عند هؤلاء وأولئك بلا اختلاف هى العجز عن التفرقة الحاسمة بين

المجال الإيماني المجال المعرفى الموضوعى،حتى عندما يتعلق الأمر بالعقائد،وكيف أنها من الناحية المعرفية الموضوعية ينبغى أن تكون موضوع إدراك،على نحو ما تدرك موضوعات علم النبات والكيمياء والفيزياء وما إليها،وهو نوع من الإدراك لا يجوز أن يختلف باختلاف الإنتماء الدينى لمن يدركونه بأمانة،ولكن الآفة عند هؤلاء وأولئك هى آفة سوء الظن الجامح،وقديما قيل:إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ودق ما يعتاده من توهم.

وعزائى الوحيد فى هذه المحنة الفذة أن هذه الآفة المتوارثة كان ينبغى أن ينبرى لها أحد،مضحيا بسمعته عند جماعة الغوغاء من كل قبيل،فكنت أنا هذا المتهور...والتوقيع على البيان نظمى لوقا من رقيق الأرض المتمردين على الأغلال».

على الصفحة الأولى من الكتاب إشارة واضحة إلى أنه من تأليف المفكر المسيحى الدكتور نظمى لوقا،فكأنه يعان عن هويته من اللحظة الأولى،والإهداء إلى السائرين فى الظلمة،ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى ذلك الشاعر الذى قال:على نحت القوافى من مقاطعها.

وقبل أن يبدأ نظمى كتابه يكتب رسالة تحية إلى الأستاذ أحمد أمين (وهو أحد المفكرين الإسلاميين الكبار)،قال فيها:إلى الأستاذ أحمد أمين فى رحاب الله،فهو الذى مد يده إلى على غير سابق معرفة،عندما قرأ أول كتاب به بذرة مذهبى الفلسفى،وهو «الله فى نظر الناس وكما أراه»،المطبوع فى دمهنور فى مارس سنة ١٩٣٧،ولعلى لولا تشجيعه ما واصلت طريقى حتى أتممت مذهبى الفلسفى المستقل على مدى يزيد على أربعين سنة،ويكاد يقارب نصف القرن فى عدة كتب كمن يشق طريقه فى الصخر،تحية لروحه وأريحيته من الشاكر الذاكر نظمى لوقا صاحب الفلسفة التعبيرية».

يسأل نظمى لوقا:لماذا هذا الكتاب؟..وعبر ٤٤ صفحة يحاول أن يقدم إجابة

معقولة ومنطقية،يقول:«ما من شخص عرفته مسلما أو مسيحيا على مدى أكثر من ربع قرن إلا سألني بكل الدهشة (باستياء أحيانا وبغير استياء أحيانا أخرى)...ماذا دفعني للكتابة عن الإسلام،ما مادمت لست مسلما ولم أزل متمسكا بديانتي المسيحية؟.. وهذه هي إجابتي ..ولعلها تكفي لوقف تواتر هذا السؤال،أذكرها بكل الصراحة والأمانة».

لقد شغل نظمي لوقا نفسه ما بين سنتي ١٩٤٨ و١٩٥٩ بموضوع يتعلق بمحمد وما ترتب على دعوته ونضاله من آثار نفسية واجتماعية ومادية بعيدة المدى في مصير الشرق خاصة،وفي تاريخ العالم بعامة،ولكنه لم يقدم على نشر كتابه الأول عنه وهو «محمد الرسالة والرسول»،إلا في سنة ١٩٥٩،بعد طول تردد،فدواعي كتابته ونشره كانت أقوى من المحاذير الشخصية على هولها وجسامتها؛لأنه تبين له بعد طول تفكير وإمعان في المراجعة أن هذه الكتابة فرض عين،أي واجب لا محيص له عنه.

وحتى تتضح وجوبية هذا الداعي للكتابة وحتمية الاستجابة له حتمية خلقية،كان لابد من الحديث عن علاقة نظمي وعلاقة ظروفه الخاصة والعامة،بما في ذلك تكوينه النفسي بهذا الموضوع بالذات،ولذلك فهو يعترف أنه رجل مسيحي مصري،من سلالة قبطية،وفي أجداده وذوي قرباه تتابع القسيسون جيلا بعد جيل في مدينة دمنهور،ومن هذه النقطة تحديدا بدأ الداعي الخلقي وبدأت المحاذير أيضا.

يقول نظمي:«أتفق أن كان والدي شأنه شأن الكثيرين من رجال بيئته وطبقته شديد الطموح في تطلعه إلى مستقبل ابنه،يصبو إلى أن يحقق فيه وبه ما لم يتيسر له شخصيا من الجاه العريض وعلو المكانة،وأغراه ما أنسه من استعداد لغوي وتعلق بالمعرفة والاطلاع في طفولتي،وعزوف عن اللهو الذي يولع به أندادي،وكانت أواسط العشرينات من هذا القرن لم تزل العصر الذهبي لفرسان المنابر وصناديد

الصحافة،فصار حلم حياة أبى أن يرانى يوما ما فى مثل مكانة مكرم عبيد وشهرته،التى فتنت جميع المصريين،وقرر أن يضع أساس هذا المستقبل بأن يعهد إلى مؤدب خاص ذى قدرات استثنائية فى هذا المجال الأدبى بالذات،واتفق أن انتقل للعمل فى السويس،وشاءت الصدفة أن يلتقى فى محل أقرب حلاق إلى مكان عمله بشيخ ضرير مفرط القصر،له دماغ بالغ الضخامة،وجبينه العريض بارز بروز لافتا للنظر،واسترعى اهتمامه أنه سمعه لا يكلم عامة الناس وخاصتهم إلا بالفصحى، وفيه سمت ووقار وأنفة،وجاذبه الحديث فعرف أنه كان من تلاميذ الإمام محمد عبده،وأنه صار إمام جامع الشوام الذى يقع محل الحلاق فى مواجهته،ولذا يتخذ منه محله المختار،يقصده فيه أهل الحى التماسا للنصح أو الفتوى،ووجده حريصا فى نصحه للناس على كل ما هو رفيع ونبيل من مكارم الأخلاق كالمودة والتراحم والتسامح وترك الملاحاة والعزوف عن الشحناء،فلا عجب أن استقر فى نفس والدى أن هذا الشيخ البليغ الذكى السمح خير من يفتح لابنه كنوز البلاغة العربية ويعرفه أسرارها،ولم يفته أن حفظ ذخائر الأدب من الشعر والنثر تأتى على أهميتها بعد حفظ القرآن،أو ليس مكرم ابن سعد وأخطب خطباء جيله يحفظ القرآن ويستشهد به دوما؟أو ليس هذا البيان هو الذى بوأه تلك المنزلة من قلوب جماهير الأمة مسلميها وأقباطها؟وأيقن أن هذا الشيخ هو الذى سيضع أقدامى على طريق البلاغة والزعامة فى مقبل أيامى،وبعد تخرجى من مدرسة الحقوق».

لكن ما كان يريده الوالد لولده جاءت الأقدار بعكسه تماما،فقد عزفت نفس نظمى عندما اشتد عوده عن دراسة القانون،بعد أن أكره عليها شوطا من الزمن، وعافت نفسه طلب الزعامة الجماهيرية والسياسية التى يريدها لها أبوها،تعلق بالفلسفة،وهى بطبعها مجال غير جماهيرى،وأوقف عليها نفسه،فأصدر وهو فى

السابعة عشر بذرة مذهبه الفلسفى الخاص،الذى واصل وضع لبناته أكثر من أربعين عاما إلى أن اكتملت فلسفته التى أسماها التعبيرية،وهى مذهب فلسفى معاصر فى مصر بعد مذهب يوسف كرم،ويقول نظمى:«وما أظن أبى لو امتد به العمر كان واجدا فى عكوفى على هذا النشاط الفكرى عزاء عما هدمته من صروح أحلامه بمستقبل سياسى خلاب،فقد تمنى لى أن أجتهد لأنتفع،فصار كل اجتهادى هو النفع لا الإنتفاع،والترفع لا الإرتفاع».

كان ما حدث خلال أربع سنوات – قضى نظمى مع الشيخ البخارى أربع سنوات من السادسة إلى العاشرة من عمره – أن مؤدبه أتم تحفيظه القرآن وديوان الحماسة والكثير من شعر المتنبى وأبو العلاء خاصة،وكان يلزمه أن يتكلم بالفصحى الصحيحة المخارج والإعراب،ويدربه على دقة التعبير وبلاغته،وكان يجمع فى دروسه بين نفائس الأدب،وأدب الدين مصرا على أن كل دين فهو فى لبابه خلق كريم،ولا يكف عن تبصيره بالقيم العقلية ومواطن الجمال،ويدربه على تذوقه،فأطلق لسانه،وأطلق عقله،وأيقظ وجدانه معا،وهكذا تحقق له شئ غير الذى رمى له والده،شئ لم يدر بخلده،فقد انهدم أمامه – وهو القبطى – حتى زال تماما سور ظل قائما أكثر من ثلاثة عشر قرنا بين أمثاله وبين معالم الإسلام وسماته.

لكن فى هذا الخضم يحرص نظمى على تبرئة شيخه من أى تأثير مقصود عليه يقول:«وإنصافا للرجل أشهد أنه لم يكن قط يفاضل بين دينى ودينه،بل ينبهنى أساسا إلى مواطن الإتفاق بين جوهرى الدينين،أما مواطن الاختلاف فى الأمور الغيبية فيؤكد لى أنه لا سبيل إلى الفصل فى أمرها بالعقل،وأن مرجعها إلى دخيلة الإيمان والتسليم،لذا كان يتركها بغير مناقشة،وكان يدعونى دائما إلى قراءة الإنجيل خاليا إلى نفسى أو مسترشدا بوالدى لتفسير ما قد يغمض على من معانيه،وكثيرا ما كان يشير فى

دروس المطارحة الأدبية والتعبير إلى تعاليم السيد المسيح ووصاياه ومواعظه،وكان يحفظ منها الكثير ويردف ذلك بما يضاهيه من آداب الإسلام وأخلاقياته».

لم يزعزع هذا التأديب الرفيع إيمان نظمي بديانته،إلا أنه أطلعه بصورة فذة لم تتح لأمثاله على أسرار وحقيقة ديانة غالبية أبناء أمته،فلم يقم منذ البداية حاجز نفسي بينه وبينهم،وهو الحاجز الذى لا مفر من قيامه حيث يعشش الجهل الشائه بالعقائد المخالفة،واستقر فى نفس نظمي وهو فى تلك السن الغضة وما تلاها أن الإستنارة الفكرية ومعرفة سمات الديانات المخالفة على حقيقتها لا تضير الإيمان الذاتى،بل تجعله صافيا صفاء النور،لا معتما بدخان الجهل الداكن الذى ينقدح منه الشرر،وقد تنشب الحرائق،فما من شك فى أن الذى يثبت فى ديانته وهو جاهل بحقيقة ديانة أخرى،تعشش فى نفسه الأساطير والأراجيف عن الديانة المخالفة،فينزلق إلى ازدراءها،مهما تظاهر بمجاملة معتنقيها،وذلك ضرب من الظلم لا يليق بمتدين حقيقي غير مكتف بمظهرياته،ثم إنه آفة نفسية وفكرية تحدث آثارها البعيدة فى الحياة كافة.

ويذهب نظمي إلى أن كل من يتبصر فى لباب أديان التوحيد، والمسيحية والإسلام كل منهما دين توحيد،يدرك أن الله هو المعبود هنا وهناك،وإن اختلفت شعائر التعبد وأسلوب التوحيد،فأجدر إذن بالمتبصر أن يرى فى كل مؤمن بالله الواحد أخاه فى الله،وإن لم يكن أخاه فى الديانة.

يقول نظمي:«ولئن اشمأزت نفسي من كل تعصب فى كل بقعة من بقاع الأرض،حتى ليقشعر بدنى لمذابح المسلمين والهندوس مثلا،فيباح فيها دم البشر بسبب إراقة دم بقرة،أو لمذبحة مثل سان برتليمي فيما مضى بين الكاثوليك والبروتستنت فى فرنسا،فأنا من منطلق ولعى بالموضوعية العقلية أجد لزاما على أن أتصدى لهدم هذا الحاجز النفسى المرتبط بالجهل والتحامل على الديانة المخالفة،سواء لدى هذا الفريق

من المؤمنين بالله أو ذاك،ولكن هذا الواجب العام يتخذ صورة ألزم وأوجب حين أنظر فى أمر أهل الوطن المصرى المحدود والوطن العربى الأوسع،نذرت نفسى لمحاربة التفكير الذاتى الذى يثمر التعصب ..ولكن من أين أبدأ؟».

ويجيب نظمى على سؤاله:«يجب على بدافع من صدق إيمانى بجوهر مسيحيتى أن أهدم أولا ذاتية التفكير لدى فريق من أهل ديانتى،وأمحو أميتهم الفكرية تجاه الديانة الأخرى،التى هى ديانة أغلبية مواطنيهم،لا خدمة للديانة الأخرى التى أنبههم إلى سماتها فى المقام الأول،بل لأردهم أساسا إلى ما يوجبه عليهم جوهر دينهم من المحبة،التى أدنى درجاتها الإنصاف والتحرج من الجور والتعصب..وليس معنى هذا أنى أخصهم باحتكار ذاتية التفكير،التى تثمر التعصب،ولكن معناه أنى أرى التصدى لعلاجه فيهم أوجب على،وأكثر تطابقا مع جوهر دينى ودينهم،ولتقديم القدوة لغيرهم».

لكن ما الذى جعل نظمى لوقا يتعامل مع الأمر وكأنه فرض عين عليه،أى أنه لا يجب أن يقوم به غيره؟،يجيب على السؤال مقتنعا بما يقوله:«الجواب فى تلك الظروف التى يسرت لى ما لم يتيسر لسواى من المعرفة بالديانة الأخرى معرفة موضوعية،فلا مفر إذن أمام ضميرى ودينى أن أتصدى لهذه المهمة،التى هى التبصير ومحو الأمية الفكرية فيما يختص بالإسلام ومحمد،وإلا كنت مقصرا فى حق ضميرى ودينى وموضوعيتى الفكرية،وانتمائى الوطنى والقومى والإنسانى...ومما أثار سخطى الشديد ما أولع به فريق من أهل العلم لا من العوام (أى غير المثقفين) أعنى فريقا من المستشرقين،من الإيغال فى تشويه صورة الإسلام وصورة محمد،فهو الجور المتعمد إذن،وليس الخرافة والجهل،إنه سوء النية وليس سوء المعرفة....وزاد ذلك من حتمية مهمتى،ولعله زاد من شحنة الانفعال فى ذلك الكتاب

الأول،صدى لما أحسسته فى داخلى من النقمة على تلك الخصال أو بالأصح تلك الوصمة،التى لم تفلح القرون فى القضاء عليها».

كان نظمى لوقا يعرف المحاذير التى ستعترض طريق كتابته،يقول عن ذلك:«الكتابة الصريحة عن محمد وعن الإسلام وأعلامه وأثره المتعدد الأبعاد حضاريا وتاريخيا أمر لابد أن يلفت أنظار العامة،ويروا فيه أمرا خارج عن مألوفهم،وهؤلاء العامة أشد خلق الله عبودية لما ألفوا،ولذا فهم أشد خلق الله عداوة للخارج عليه،وما أقرب أن يخلطوا بين الخارج على المألوف وبين المارق،ولما كنت أحسب فى ذلك الحين قبل أن تعلمنى محنتى مدى خطأى أن الجهل هو سبب ذلك الحاجز النفسى،وأعنى بالجهل هنا الجهل المعرفى بالواقع وسماته،لذا قر فى نفسى أنه متى زال الجهل المعرفى زال الحاجز النفسى الذى حسبته ثمرة له،وزال سوء الظن،وقررت التصدى لإزالة الجهل كى يزول الحاجز النفسى تلقائيا».

أدرك نظمى أن الحاجز النفسى الذى أثمره الجهل المتوارث صار جزءا من نفسية العامة،فطبيعى أن يغضبوا لكل محاولة للمساس به،وأن يقع فى روعهم أن من يهدم هذا الحاجز إنما يعتدى على صميم وجودهم وحياتهم،فكأنما طول العهد بالحاجز الطارئ الدخيل جعله جزءا من البنية الحية نفسها.

ويعترف نظمى:«لم أدرك ذلك كله منذ ربع قرن،بل حسبت أن الحاجز النفسى المنشئ للتعصب سببه الجهل الموضوعى أو المعرفى،ومتى زال الجهل زال الحاجز وزال التعصب،ورغم أن وازنت الأمر،إلا أنى وجدت أنه لا حيلة لى أمام شعورى بحتمية هذه المهمة،وقلت فى نفسى : إننى مسئول عن واجبى،ولست مسئولا عن عملى،ولو ذهب صوتى أدراج الرياح،وتمثلت بقول كانط:أد الواجب ودعك مما يكون،ولئن كنت أتوقع سوء الظن وسوء السمعة والتشهير والمقت ممن أتصدى

لتنويرهم،فمن العدل أن يكون لكل واجب ثمنه ومشقته،ولكل إقدام ضريبته،وضريبة هذه المهمة هى المجازفة بالسمعة والتعرض للمقت،ولم يكن ذلك هينا على نفسى،فأنا أعرف فيها ضعفا شديدا نحو المودة والبشاشة والتواصل،ولكن لم تكن لى حياة آخرى الأمر سوى مغالبة هذا الضعف والتصدى لما أكرهه بفطرتى،أنا الذى أشعر بتعاسة شديدة إذا قطب أحد فى وجهى،ولو بغير ذنب،فما أبغض الجفاء إلى نفسى».

وبهذا الشحن النفسى الذى أحدثه الصراع بين المحاذير والمكاره وبين الواجب الذى لا مناص منه،أقبل نظمى لوقا فى سنة ١٩٥٩ على كتابة كتابه «محمد الرسالة والرسول»،فى حماسة من يستنفر كل همته وشجاعته لأداء مهمة رهيبة،وسرعان ما حدث رد الفعل،ولم يفاجأ بالغضب والمقت،وإن كان أحزنه غاية الحزن،ولكنه لم يزعج ضميره وإن أزعج وجدانه،بل كانت راحة ضميره الفكرى والخلقى والإنسانى والوطنى عونا له على التجلد للمحنة العاطفية والاجتماعية التى بلغت أقصى مداها حتى قطعت الكثير من صلات الرحم،وبالغت فى إيذائه وإيذاء أهل بيته الأقربين،ممن لا ذنب لهم،ومنهم صبية لا إدارك لهم لمعنى ما حدث.

استوعب نظمى هذا النوع من رد الفعل ،لكن كان هناك رد فعل آخر لم ينتظره،وحاول أن يتخلص منه،يقول عن ذلك:«فوجئت بكثيرين أعلنوا على الحب،على أساس مختلف تماما عما فى ذهنى ونفسى،فقد غلب على الأكثرين منطق التمنى وذاتية التفكير،فتبادر إلى نفوسهم أنى فضلت دينهم على دينى فتخليت عنه،تماما كما تبادر إلى نفوس من أعلنوا على الحرب أنى تخليت عن دينى ما دمت قد انبريت لإنصاف الديانة الأخرى،صادرين عن عين الأسلوب من ذاتية التفكير التى تقول:إن صادقت الآخر فأنت عدوى،وإن صادقتنى فأنت عدو الآخر.

ولو كان هذا هو الواقع لما كان فيه ضير،فألوف من الناس يعتنقون كل يوم ديانة

غير ديانتهم الأصلية،ولكنه مناف للواقع،فأنا لم أكتب من منظور دينى أو إيمانى بتاتا،بل من منظور عقلى موضوعى إنسانى تماما،فكتابى تنوير معرفى وخلقى وليس كتاب دين.

وهكذا أثمر التفكير الذاتى نتيجة واحدة ذات مظهرين متضادين،أثمر البغض لدى فريق من العامة «ولو كانوا متعلمين رسميين» على أساس وهمى،وأثمر الحب لدى فريق آخر من نظرائهم على أساس وهمى أيضا،ولئن لم يكن بيدى أن أدفع عنى مقت الساخطين،ولا يلحق بضميرى منه ما يعيبه ويؤذيه،فإن واجبى الفورى ألا أسكت مطلقا على هذا النوع من الحب لأنه بمثابة استغلال أوهام هؤلاء المحبين»

صار أول واجب لابد أن يؤديه نظمى أن يبصر المحبين المعجبين بحقيقة حاله ودوافعه،وأنه لم يكن داعية للإسلام بما كتبه،بل كان مسيحيا أنفذ ما تمليه عليه مبادئ الأخلاق المسيحية،وبمنظور عقلى إنسانى حضارى،ولئن كان أنصف الإسلام فليس ذلك من منطلق التخلى عن مسيحيته،بل من منطق الإخلاص لها وللتمسك بجوهرها وأخلاقياتها،وحاول أن ينشر فى الصحف هذا التوضيح،لكن نظام عبد الناصر فرض حظرا على الصحف ومنعها من أن تنشر شيئا عن كتب نظمى،ولو حتى على سبيل الإعلان،فلم تبق أمامه وسيلة إلا أن يواصل الكتابة عن الرسول وعن الإسلام،واضعا فى صدر مؤلفاته البيان الحاسم لموقفه،وهذا أقصى ما استطاعه إبراءً لذمته وإراحة ضميره.

لكن يظل هناك اعتراف آخر لم يستطع نظمى أن يتخلص منه،يقول:«اشتد فى الوقت نفسه الطلب المستمر على الكتاب الأول،ولكنى أقسمت ألا يعاد طبع كتاب أردت به الجمع،فأحدث الفرقة،حتى لا يتكرر انزلاق قارئيه إلى هذا الوهم،وها قد مضى ربع قرن،وما زال الكتاب مطلوبا،وما زلت متمسكا بالعهد الذى قطعته على

نفسى،فلابد أنه كان كتابا غير مناسب لحالة الناس العقلية والنفسية،بحيث أوقع الفريقين فى مضاعفات تفكيرهم الذاتى غير الموضوعى،فهو أشبه بالدواء الذى زاد المرض حدة،فمن واجب الطبيب أن يحكم بضرره ويمنعه؛لأن أعراضه الجانبية أشد وبالا من الداء الأصلى».

هنا أجدنى أتقاطع مع نظمى لوقا،فصحيح أنه قرر عدم طبع كتابه مرة أخرى بعد طبعته الأولى،لكنه لم يتعرض من قريب أو بعيد إلى ما فعلته وزارة التربية والتعليم،عندما قررت الكتاب على طلاب المدارس فى عهد الوحدة مع سوريا،وكان كمال الدين حسين هو وزير التعليم،وقدم للكتاب،فهل صدرت هذه الطبعة دون علم نظمى أو موافقته،خاصة أن هناك من يفسر ما جرى،بأن الجناح المحافظ داخل الضباط الأحرار،والذين كانوا يميلون إلى أفكار الإخوان المسلمين،هم من قرروا الكتاب،رغم أن عبد الناصر قد رفض الإعلان عنه،شئ من هذا لم يتعرض له نظمى،لكن يبدو أن هذه الطبعة قد حفظت للكتاب وجوده،فلا توجد نسخ على الإطلاق من الطبعة الأولى للكتاب،وتظل طبعة وزارة التربية والتعليم هى الموجودة فقط.

أغلب الظن أن هذه الطبعة من الكتاب صدرت بعلم نظمى لوقا وموافقته ومباركته،والدليل على ذلك أن طبعة وزارة التربية والتعليم كانت تحوى عددا من الرسائل التى وصلت لنظمى تشيد بعمله،ومنها رسالتى فتحى رضوان وأمين الخولى،ومؤكد أن نظمى راجع هذه الطبعة،وهو ما يحتاج تفسيره إلى وقفة لاحقة.

أعود لنظمى مرة أخرى لأجده يقول:«لكن غياب الكتاب وتواتر الطلب عليه من جيل يسمع به ولا يمكنه أن يقرأه خليق بأن يحوله إلى أسطورة تكثر فيها المبالغات،وهذا فى حد ذاته مرض ينبغى التصدى له،وبعد مرور ربع قرن صرت

أكثر معرفة بموضوعى،وأقدر – فيما أرجو – على توضيح فكرى بصورة أحرص على أن تكون خالية من اللبس السابق غير المقصود،ولذا وجدت من واجبى الفكرى والخلقى معا أن أصدر كتابى هذا الجديد،كى أصحح تفكير الناس عن طريق تصحيح تصورهم لنوع موقفى الفكرى البحت من الإسلام وعلاقتى به،وسدا لمنافذ اللبس والإبهام فى هذا الشأن».

(٦)

اختار نظمى لوقا أن يكون مدخله إلى كتابه «أنا والإسلام» هو تحليل أسباب فشله الذريع منذ ربع قرن،وردود الفعل التى صاحبته،وكيف كانت أعراضا تشير على تباينها وتناقض مظهرها إلى داء واحد،وبذلك لا تكون ردود الفعل والمحنة أحداثا شخصية عارضة،بل ظاهرة من المفروض الكشف عن أسبابها الكلية،والعلم موضوعه هو كلى متوار خلف الجزئيات والأعراض التى ترشدنا إليه.

وهنا سأثبت فقط ما قاله الرجل نصا،وقد تكون لنا بعده مناقشة وتساؤلات.

(٧)

تحت عنوان«وضاع مغزى الإهداء كتب نظمى »:

ذلك الكتاب الأول – محمد الرسالة والرسول – افتتحه بإهداء :«إلى روح المهاتما غاندى الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة،ومن الإنجيل ومن القرآن،ومات بيد متعصب من أبناء ديانته شهيد دفاعه الصدق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

ومن المفارقات التى لا يفوتنى ابتداء أن أتنبه وأنبه إليها،أنه قد تكون لذوى المبادئ من المفكرين ناحية غفلة أو غباء من نوع خاص،مصدره أنهم يحسبون القراء أو السامعين كافة على نصيب معقول من الفطنة،ثم يتضح لهم من التجربة

المرة،المتمثلة فى رد الفعل،أن الكثيرين منهم لا يملكون نصيبا متوسطا منها،وقد كان حظى من هذا الغباء ومن مرارة رد الفعل جسيما جدا والحق يقال.

فالمر لا يحتاج إلا إلى نصيب متواضع من الفطنة كى يفهم أن لهذا الإهداء إلى غاندى المشفوع بحيثياته تلك مغزى معينا،فالرجل ليس من ذوى قربى ولا من بنى وطنى ولا من أهل ديانتى ولا من أتباع محمد،وليست لى به أى علاقة تجعل الإهداء موجها إلى سواد عينيه،فليس من العسير على القارئ العام أن يستشف من هذا الإهداء أنى عنيت به أنه النموذج أو النمط الفكرى والنفسى والسلوكى الذى أدعو إليه فى النظر إلى العقائد كلها على إختلافها ،نظرة إحترام وتكريم وإخاء..فكأننى أقول لقارئى:لتكن ديانتك ما تكون،فهذا شأنك وحدك،ولكننى أدعوك ألا تتخذ منها ذريعة للتعصب ضد الديانات الأخرى،بل اجعل من جميع أتباعها إخوة لك،واجعل من كل تلك الديانات أخوات لديانتك فى التوجه إلى الله،فى تنزه عن الأنانية والتعصب،وفى حب شامل للبشرية كافة.

تعمدت بهذا الإهداء الاستهلالى أن أجعل المثل وهو غاندى،الذى كان يحظى فى ديانته بمرتبة القداسة،وهو ليس مسيحيا ولا مسلما،ولكنه موقن بأن جوهر كل الديانات منحصر فى أنها سبل تتجه بالمؤمنين بها إلى الله وإلى الفضيلة ومكارم الأخلاق التى هى نقيض الأنانية،فلتكن ديانتك أنت أيضا على عينك ورأسك، ولكن حذار أن تجعلها خندقا ترمى منه العقائد الأخرى أو أتباعها بالكراهية أو الإزدراء أو سوء الفهم،بل كن مثل غاندى روحا عظيما تجتمع فيه محبة كل البشر واحترام جوهر كل الديانات.

والحقيقة أن نخبة من أفاضل لا يستهان بهم من المسلمين ومنهم علماء دين كبار أجلاء،فطنوا إلى هذا المغزى،وأحسنوا فى ضوئه التعرف على المقصود من

كتابى،ووجدوا فيه صدى لما فى نفوسهم النقية من ليبرالية وسماحة،بل إنهم حرصوا على تهنئتى بحلول الأعياد المسيحية،إيماء إلى أنهم تبينوا من أنا وماذا أنا بصدده من موقف فكرى يقدرونه.

وقد دلتنى التجربة المرة على أن نسبة هذه الفطنة،لأى هؤلاء الأفاضل المستنيرين الموضوعيين ممن سعدت بحسن تقديرهم وفهمهم ومحبتهم على أساس صحيح،لم تكن تتجاوز كثيرا واحدا بين كل مائة من قراء ذلك الكتاب الأول،وأضعاف أضعافهم من سمعوا اللغط به وانساقوا إلى مطاوعته لطوايا نفوسهم،فالكثرة الكاثرة فاتهم مغزى الإهداء،فكان حالهم مثل حال من لم يفهم العلامات الإرشادية التى تهدى إلى معالم الطريق،ففاتهم بالتالى مغزى الكتاب كله،وسبب ذلك أنهم أصحاب عقلية ذاتية تناقض الموضوعية على طول الخط.

ومنذ الآن يحسن أن نصنفهم إلى فئات حتى لا يختلط علينا تشخيص أسباب ما منيت به فى ذلك الكتاب من الفشل الذريع.

هناك أولا من سخط على وأبغضنى وأعلن الحرب على،ولو كان من أقرب ذوى القربى وأقدم الأصدقاء والصحاب؛لأنه لم يدرك ما رميت إليه بذلك الإهداء،ذلك أنه فى الغالب لم يتجاوز العنوان المطبوع على الغلاف،فرمى الكتاب من يده وهو يلعنه،فقد قرر فى نفسه أننى ما دمت قد نوهت بمحمد ورسالته فأنا عدو دينى نابذ له،معتنق الديانة الأخرى،وليس بعد الكفر ذنب.

وهناك ثانيا فئة من أعلنوا الحرب على؛لأن الواحد من هؤلاء ظن على عكس ما ظن الأول،منحازا لديانته نابذا لديانتى الأصلية،وعلى ما يبدو من تناقض ظاهرى تام بين موقفى هاتين الفئتين من قرائى،أو السامعين على الأرجح بغير قراءة،كان منظورهما الفكرى واحدا،ولكن من أساسين متباينين،فالنظرة فى الحالتين متحيزة

ذاتية،لا موضوعية فيها ولا نزاهة،وتعجز عن تصور أى موقف غير ذاتى وغير متحيز.

وينبغى أن أنبه هنا إلى أن من بين هؤلاء وأولئك أى من أعلنوا الحرب ومن أعلنوا الحب من الذاتيين المتحيزين كثيرين جدا من المتعلمين الرسميين،بل منهم من يحملون أعلى الشهادات العلمية ،وهنا موضع جدير بالتأمل للتمييز الحاسم بين التعليم والثقافة،أى بين المعلومات الذهنية القائمة على الإستيعاب والتطبيق الفنى،وبين المستوى الفكرى المستنير الذى قد لا يكون صاحبه أحيانا جاهلا بالقراءة والكتابة،أى أننى أفرق بين الأمية الأبجدية والأمية الفكرية.

وأورد هنا نموذجا واحدا على سبيل الإيضاح،هو دكتور فى الفلسفة له بعض الشهرة،كنت آنس فى أحاديثه الاعتدال والمعقولية،التقى بى فى مكان ما،ولما عرفوه من أنا،قال : أنه لا يأخذ على كتابى إلا ما أسماه مجافة اللياقة (وتأدبا منه لم يقل الجليطة)؛لأنى أهديت الكتاب عن رسول الإسلام إلى رجل لا يدين بديانة سماوية وهو غاندى،وزوى الرجل وقد زم شفتيه فى امتعاض.

وهكذا ضاع أيضا مغزى الإهداء،فضيق أفق الرجل حال بينه وبين إدراك المنظور الإنسانى الموضوعى،الذى يرتفع فوق خانة الديانة المسجلة فى البطاقة الشخصية،ليرقى إلى مستوى الجوهر من كل تدين ومن كل سماحة وإخاء.

وطبيعى أنه ما دام هذا هو المعيار الوحيد الذى يقيس به هذا الجهبذ مواقف الناس ومعادنهم،فلابد أنه امتعض أيضا من تناول رجل مسيحى متمسك بمسيحيته لموضوع إسلامى كهذا،فمن فاته إدراك عظمة ونبل موقف غاندى الذى انتهى به إلى الإستشهاد فى سبيل دفاعه عن حرية المسلمين فى العبادة والتدين،أولى به أن يفوته فهم موقف من هو مثلى،على ما فى ذلك الرجل من ذكاء ذهنى فى الشرح

والتوضيح كلما تناول نصا من نصوص ديانته أو مهنته،غفر الله له وتغمده برحمته.

ولكنى أحب دائما أن أتعلم من تجاربى،وأتجاوز أثرها الجزئى إلى ما يمكن أن أفيده منها فى صقل عقلى،ولذا لفت موقف هذا الرجل منذ ربع قرن نظرى إلى الفرق بين الذكاء الذى هو ملكة ذهنية منطقية،وبين السماحة التى هى سجية نفسية أساسا،والسجايا النفسية هى التى تحدد للذكاء اتجاهاته،وهى التى تثمر مشاعر الميل والنفور.

وحاولت أن أنشر فى الصحف توضيحا،ولكن تراءى للحكم الاستبدادى يومئذ أن حظر النشر يريح دماغه من الضجة التى أثارها الساخطون على الكتاب،فلم يبقى أمامى من سبيل لملاقاة تلك المنابر التى فتحت نيرانها ضدى بغير تورع،تبتغى الثواب عند الله بسبى والإفتراء علىّ،ولا لإبراء ذمتى بتبصر من تحيزوا لى على غير أساس صحيح،إلا أن أصارح من يقابلوننى شفاها أو أن أرد على من يراسلوننى كتابة،إلى أن أصدرت كتبى التالية فوضعت فى صدرها بيانا حاسما.

ولكن إبراء الذمة كان له رد فعل على ثلاثة أنواع،فهناك أولا قلة من الناس صدقونى،وقالوا : هذا موقف حسن على حال،والإنصاف خير من الكراهية،وهؤلاء نفوسهم ولم تطمس بصائرهم،وهناك ثانيا من لم يصدقنى، وأحسب أن هؤلاء من يظنون بأنفسهم الحذاقة فظلوا مصرين على أننى مسلم بالقلب،وإن كنت أتظاهر بغير ذلك،وظل هؤلاء على حبهم المضلل لى،فصاروا موضع حزنى وأسفى عليهم؛لأن موقفهم دلنى على أنهم مصابون بما يقابل فى طب العيون عمى الألوان،وأعنى به آفة نفسية فكرية هى العمى عن الموضوعية،فهم عاجزون عن إدراك إمكان وجود شخص موضوعى غير متحيز وغير متحامل.

فأنت فى هذا المفهوم المريض إما معه أو عليه،ولا ثالث لهذين،فإن كنت صديقه

فأنت حتما عدو الآخر،وإن كنت صديق الآخر فأنت حتما عدوه،فصاحب هذه العلة النفسية يرى الناس حتما على غراره،أى أشخاصا مسطحين،ليست لهم أبعادا متعددة،وكلهم مثله فى مرحلة التركز فى الذات،وهى المرحلة النفسية التى تتميز بها الطفولة،ولطفولتهم النفسية التى لم تتطور منحونى حبهم مصرين على تصورهم،فأورثنى إصرارهم هذا أشد حالات الحنق والضيق،فما كتبت اجتلابا للرضا والسخط،بل بغية إصلاح تفكير الناس،فكانت محنتى الكبرى استعصاء هذا الإصلاح وهم أحوج الناس إليه،ومن ثم كان وقع هذا النوع الثانى من رد الفعل قاسيا جدا على نفسى.

أما ثالثا فنوع من الناس كان رد فعلهم على قلتهم أهون على نفسى من النوع الثانى،وإن كان فى تصديقه لما نبهته إليه شديد الفظاظة والغلظة،فهو يصدر عن نفس المنظور الذاتى،ولكن فى غير مسالمة،بل بشحنة متفجرة من العدوانية قلبت محبته المضللة نقمة وزراية،وهذا يزيح عن ضميرى العبء،وإن لم يطرأ به أى تحسن على تحقيق الهدف وهو إصلاح التفكير.

وسأروى ها هنا نموذجا واحدا لهذا الصنف الأخير وهو قليل العدد ولله الحمد،طرق بابى بعد ظهور الكتاب الأول عن محمد مباشرة رجل أبيض البشرة مشرب بحمرة فى ملابس أوروبية يوم أن تأكد أنى فلان حتى عانقنى،فقلت فى نفسى اللهم اجعله خير،وجلس على طرف المقعد فى تأدب واضح،وراح يثنى على كتابى،ثم قال:أنا أعمل بالسعودية وأسكن مكة المكرمة،وقد جئت أدعوك وأسرتك لزيارة مكة والعمرة أو الحج إن تأخرت إلى موسم الحج.

فسألته بهدوء شديد :كم يسرنى أن أزور مكة،ولكن أيسمح بهذا للمسيحيين؟فغاصت الحمرة الطبيعية من وجه الرجل،وفغر فاه،وأخيرا عثر على

لسانه،فقال: كمن لم يصدق ما سمع:أولم تسلم؟،فقلت له:لا..وماذا دعاك إلى هذا الظن؟فانتفض الرجل قائما يبتدر باب المسكن،وأنا أتبعه ولم ينس وهو فى فتحة الباب أن يلتفت إلى فى مقت شديد وإزدراء واضح،ثم بصق على الأرض،وانطلق يهبط السلم كمن ينجو بنفسه من وباء،ووقفت أنظر فى أعقابه وأنا أحمد الله أن أمثاله ليسوا كثيرين جدا.

وبعد ذلك بأيام التقيت رجل مثقف كنت أعرفه منذ سنين مولعا بالإلحاد مغرقا فى تطرفه العلمانى،ويجاهر بعدائه للعقائد الدينية كافة،ويعدها بلا استثناء تخلفا فكريا وحضاريا،فإذا به ممتعض مستاء لأننى خيبت أمله،وابتدرنى بالحوار

- أمثالك يا فلان يخون موضوعية النظرية العلمية؟
- بل أنا داعية إلى موضوعية التفكير.
- وما العلاقة بين موضوعية التفكير والإعتقاد الدينى..أليسا نقيضين؟
- إنهما مجالان مختلفان ولكنهما ليسا متناقضين.
- وكيف كان ذلك.
- قد يجتمع التفكير الموضوعى الذى هو لباب العدل والإيمان الدينى وقد يفترقان،فيكون الإنسان مؤمنا بدين وموضوعيا فى رؤيته لكل شيء،وعادلا فى أحكامه،يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،فيتحول إيمانه إلى هوى عقلى جامح وإلى جور وعدوان،وينبغى أن تعلم أن الأديان تدعو للعدل والإنصاف مهما اختلفت الديانات، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ،هكذا يقول القرآن،وأحبوا أعداءكم هكذا يقول الإنجيل،وقد يكون الإنسان غير مؤمن بدين وموضوعيا كما أحسبك أنت،وقد لا يكون هذا ولا ذاك،كما أرجو ألا تكون أنت،فأنا ألزم الملحد الذى ينكر وجود الله أن ينصف الأديان،ولكنى أطالب من

يـؤمن بوجـود الله أن يـزن العقائـد الأخـرى وآدابهـا وشرائعهـا بميـزان موضوعى،ويستحسـن منهـا مـا يستحسـنه مـن عقيدتـه بغـير تحيـف ولا جـور ولا تعسف.

- ظننتك تدعو أمثالى إلى التدين.

- هـذا هـدف حسـن،ولكنه لـيس هـدفى،فأنا داعيـة إلى موضـوعية التفكـير والعدل،بحيث لا يتحامل مؤمن بدين على سـواه،أما مـن ينكـر الأديان،فقـد ارتفـع عنه هذا التكليف لأنه يسوى بينها فى الرفض،فلا إكراه فى الدين أما العدل فواجـب خلقى ومنطقى معا على كل عاقل.

وخلـوت إلى نفسـى وقـد غلبـت عـلى الكآبة،فصـوتى يـذهب أدراج الريـاح فـيما يبـدو،ونادانى صـديقى الـذى فى داخـلى:أنسيت مـن أحسـنوا فهمـك،إنهم الصـفوة والكيف ينبغى أن يعنيك لا الكم،أليس صحيحا أنه «إنما يعرف الفضـل مـن النـاس ذووه».

وأحسست أن صديقى الذى بـداخلى يربـت عـلى كتفـى ليعزينى،ولكنـى ضـقت بقوله وعزائه،وقلت:هـؤلاء لم يكونـوا بحاجـة إلى مـا كتبـت،فأنـا لم أصـنع برضـاهم عنى شئيا؛لأنى لم أكتب استجلابا للرضـا أو السـخط،إنما أردت الإصـلاح وهـؤلاء صالحون بغير حاجة إلى مثلى،والآخرون هـم الـذين كـان مـن الممكـن أن أصـنع لهـم شئيا ذا بال،ولكنهم كما ترى،فما أحسبنى بها أحاوله إلا كمن يكتب على الماء.

(٨)

وتحت عنوان«بين الفرع والأصل» يكتب نظمى لوقا:

البداية الحقيقية إذن لتعلمـى مـن فشـلى واسـتخلاص الـدروس الباقيـة مـن هـذه المحنة الجزئية،أن أتعرف أولا على المعنى الحقيقى للجهل،وهل الجهل هو فعلا عـدم

المعرفة،أم هو شئ آخر،يترتب عليه عدم المعرفة؟..الجهل بالفيزياء علاجه دراسة الفيزياء،وتعلمها فى المدارس أو من الكتب،والجهل بالحساب علاجه تعلم قواعد الحساب والتدرب على تطبيقها تطبيقا صحيحا،ومثل هذا الجهل هو انتفاء المعرفة.

ولكن المشتغلين بالتعليم والتربية يصطدمون أحيانا بمن ليست لديهم القدرات،أو الاستعداد الضرورى لدراسة علم أو فن معين،فمن المتعذر بل من المستحيل أحيانا أن تعلم الموسيقى لمن يوهب أذنا موسيقية فلا يستطيع التمييز بين نغماتها.

وهناك أيضا ما يعرف بظاهرة التسرب من المدارس،وهم الصغار الذين لا ميل لديهم للتعليم،فيهجرون مقاعد الدرس،وربما برعوا فى أمور أخرى يشغفون بها،كلعب الكرة،أو صيد العصافير،أو بعض الحرف،وأعرف شخصيا من عجزوا عن تعلم جدول الضرب ووقفت معلوماتهم فى الحساب عند أوليات الجمع والطرح فى حدود الأرقام التى لا تتجاوز الرقم ١٠.

فهل الجهل بحقائق العقائد له مثل هذا الوضع؟...قد يكون أحيانا فهذه الحقائق شأنها شأن أى معرفة وتعلم،يتفاوت الاستعداد لها ويتفاوت الإقبال عليها،ولكن فى هذه الحالة يكون العائق عن المعرفة،او مصدر الجهل واحدا ثابتا بالنسبة لكل العقائد سواء فى ذلك عقيدة الشخص أو العقائد الأخرى،فالقدرة هنا معرفية،والقصور أيضا معرفى.

ومن لم يكن لديه قصور ذهنى،ولم يكن نافرا من المعرفة،قد يعرف المتاح له – وهو عقيدته – ولا يعرف العقائد الأخرى،لا لشئ سوى أن معرفتها لم تتح له،ولكن هذه الإتاحة لم تعد منذ اختراع الطبعة عسيرة المنال،فنفى الجهل المعرفى عمن ليس بهم قصور ذهنى أمر ممكن،وهؤلاء هم الذين تجدى الكتابة لهم

وتبصيرهم بحقائق الأديان المخالفة لديانتهم،لغاية معرفية محض،لا لغاية تبشيرية بالتأكيد،وليس فى أمرهم مشكلة.

ولكن علام أطلعتنى تجربتى الفاشلة؟

أطلعتنى على أن هؤلاء قلة،لا لعجز فى الأكثرية من الناس عن نفى الجهل،بل لعزوفهم عن هذه المعرفة بالذات،وعندئذ يكون الجهل مظلوما،فهم غير جاهلين لأنهم لم يعرفوا،أو لم يتح لهم أن يعرفوا،بل لأنهم لا يريدون أن يعرفوا،أو يريدون ألا يعرفوا وهذا النوع من الجهل ليس سببه عدم المعرفة،بل الصد الداخلى عنها أو الحاجز النفسى الذى يترجم فى صورة نفور من هذه المعرفة بالذات،وهذا الحاجز النفسى هو الذاتية والانحياز والتعصب،وهو الذى يحول الجهل من آفة إلى عاهة نفسية تؤثر على أسلوب التفكير،وعلى أنماط السلوك.

مكمن الداء نفسى وليس معرفيا إذن،والفضيلة ليست علما أو معرفة إذن كما ذهب سيدنا الطيب سقراط،الذى خال الناس جميعا على شاكلته،فجرعوه السم عقابا له،عسى أن يتعلم أنهم ليسوا كلهم على شاكلته،المسألة فى لبابها نزوع وليست معرفة،ومرجعها إلى مدى التطور فى المراحل النفسية من الطفولة إلى النضج،أى من التركز فى الذات الذى هو مصدر الأنانية والتعصب والذاتية،إلى تجاوز الذات الذى هو مصدر الموضوعية والإيثار والعدل،على تفاوت فى نوع ودرجة الذات من العدل إلى الإيثار أى إنكار الذات.

فالمتركز فى ذاته يجعل من مصلحته الخاصة أو لذته أو هواه مقياس كل شيء،وكل شخص شأنه شأن الطفل،ولكن شيئًا اخترعه الإنسان بما هو اجتماعى بالطبع ونسميه التربية،جعله يجتهد فى إخراج الطفل من هذه المرحلة،كى يكون عضوا فى مجتمع صغير هو الأسرة،ثم فى مجتمع أكبر هو المدينة أو الوطن أو العالم.

وهنا يتفاوت وعى المربين وعلى رأسهم الأبوان فى فهم هذا الإعداد النفسى والسلوكى الملائم،ففى أسرات معينة يربون الطفل على أن هدفه فى الحياة أن ينفع نفسه،أى أن يسعى للانتفاع إلى أقصى حد،بصرف النظر عن أى اعتبار آخر وفى أسرات أخرى يعلمه الوالدن مبادئ اللياقة التى تيسر وتسهل له قضاء حاجاته والتعايش مع الناس ودفع الأذى والعدوان عن نفسه واستجلاب المنفعة،وقد يكون هناك من يربون أولادهم على مكارم الأخلاق،كالتسامح والإغضاء عن اللغو،ولكن أيضا من يربون صغارهم على العدوان أو الاستعلاء،إذا كانت الظروف الاجتماعية والطبقية تسمح بذلك،أو يربونهم على الوصولية والنفاق،أو على حب المظاهر والأبهة والتناظر،وكلها فى الغالب إلا أقلها أنماط أنانية ذاتية،ما عدا تلك التربية الأنانية وبين مكارم الأخلاق أو الإيثار،وهى التربية على الإباء وتأكيد الذات وعزة النفس فى إطار حب العدل والالتزام به وعدم الرضوخ للضيم.

ومن سمات الذات الأنانية أن تقيم حول الذات وفريقها الذى تنتمى إليه ويمكن أن نسميه الذات المتوسعة سورا مثل أسوار مدن العصور الوسطى،والسور أو الحاجز النفسى يؤكد الذاتية،ولا يمكن أن يقوم إلا على أساس أو استراتيجية الخوف من الفريق الآخر،أو الشخص الآخر،وسوء الظن به،وهذا هو الأساس العدوانى للسلوك،عدوانا سلبيا هو الخوف وسوء الظن،وعدوانا إيجابيا هو الإيذاء،أو هما العدوان الضمنى والعدوان الملعن.

وكل من يتسرب من السور ويأتى بنبأ صادق محايد فيه تعريف بما هو خارجه،إما أن يعد مارقا أو يرمى بالخيانة أو العمالة،وهكذا كان الحال عندما كانت الناس قبائل متنابزة متحاربة،وقد احتفظوا بهذا السلوك عندما صاروا أقاليم وأوطانا ودولا،

واحتفظ كثيرون به حين اعتنقوا الأديان،فكل إنسان فى كل المجالات أسير بنيانه أو تكوينه النفسى،والذاتية المتفشية لا تتجزأ فى المعاملات وفى السياسة وفى الاعتقاد، وكذلك الموضوعية حين توجد،وهى غالبا مغتربة وأصحابها مغتربون وسط الأغلبية الذاتية لا تتجزأ فى معاملة وفى سياسة وفى اعتقاد.

فهل العيب فى المعلومات؟ هل العيب فى العقائد؟

كلا العيب فى النفوس وموقفها من الملعومات ،ومن هضم العقائد،كما أن العيب ليس فى الغذاء غالبا،بل فى المعدة والأمعاء التى تتمثل الغذاء،الحقل الواحد إذا أكل من نباته الواحد بقرة وثعبان ونحلة وحمار،أخرجت البقرة لبنا،وأخرج الثعبان سما،وأخرجت النحلة شهدا،وأخرج الحمار روثا.

وكأنما تنبأ أفلاطون إلى الخطأ الذى كلف أستاذه سقراط حياته فى مسألة الرذيلة جهل والفضيلة معرفة أو علم،فقال إن الناس معادن،فمنهم النحاس والفضة والذهب.

ولعله مما يبعد عن هذا الرأى شبهة القول بالطبائع الجامدة،أن الإستعدادات الفطرية والقدرات الفردية معترف بها علميا،وأن التربية مهمتها تلافى النقص وحسن التوجيه،وتطوير النفوس من الذاتية إلى النضج السوى،فهو ممكن على كل حال،كذلك معادن النفوس تستطيع التربية الجيدة أن تحصل منها على أفضل حالاتها الممكنة.

وإن لم تخن الذاكرة فقد سمعت حديثا أو لعلى قرأته معناه أن الناس معادن،وخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام،وشراركم فى الجاهلية شراركم فى الإسلام أو كما قال.

فليس الإنتساب للديانة كافيا،بل المهم هو تأثر النفس وتغيرها،فالدين الجيد

كالغـذاء الجيد،والغـذاء الجيـد تختلـف حصـيلته بـين البقـرة والحـمار والثعبـان والنحلة،والمعول فى التدين عـلى الصـحة النفسـية،أما الـنفس العليلـة فكـل مـا تأتيـه عليل،وقديما قال المسيح : أنه كما تكون الشجرة تكون ثمرتها،والشوك لا يثمر عنبا.

الجهل المعرفى إذن مظلوم،ومكمن الداء هـو الحـاجز النفسـى الـذى تبنيـه الذاتيـة المتأصـلة حـول نفسـها لـتغلى وراءه بـالخوف والمقـت والعـدوان،وما هكـذا الصـحة النفسية وما هكذا جوهر كل عقيدة دينية.

(٩)

وتحت عنوان «موقف مع نفسى» كتب نظمى:

هنا وجب على أن أسأل:أمن الممكن عمـل شئ بـإزاء هـذا الحـاجز النفسـى،وما هو؟

وقد يكون التاريخ نافعا لنا فى هذا الموقف،فكل موقف للمعرفة الموضوعية كـان له فى عصور التخلف الفكرى حيث تسود الذاتية،رد فعـل عـدائى إذا انطـوت هـذه المعرفة على ما ينـاهض تصـورا قـديما تشرنقـت حولـه المشـاعر،فلو رجعنـا مثلا إلى موقف علمى حاسم هو موقف جاليلو بعـد كوبرينـك فى عصر النهضـة،لوجدنا أن الناس ناصبوه العداء بكل عنف وعدوه كافرا،وكـاد ذلـك يـؤدى بـه لـولا أنـه ارتـد بظاهر اللفظ عن نظريته.

ولكن هل ماتت النظرية؟

إنها نظرية علمية أى موضوعية معرفية،وقد عاداهـا النـاس لأنهـا تقلـب مـوازين تصوراتهم المألوفة،فبعد أن خالوا منذ قـرون أن أرضـهم هـى مركـز الكـون،إذا بهـذا الرجـل يهـدم ذلـك الاعتقـاد،ويقول : إنهـا ليسـت ثابتـة ،ولا تـدور حولهـا الشـمس والكواكـب كـما يـتراءى لهم،بـل الأرض تابعـة للشـمس،وتدور حـولا فى واقـع

الأمر،وبذلك ينهار مجد الأرض الظاهرى،وينهار بالتالى مجد البشر الموهوم.

إلا أن للحقيقة الموضوعية صلابتها التى تجعلها بمرور الزمن تتغلب على جيوش الأوهام التى تناصبه العداء،وبذلك ينتصر جليلو بعد موته،وماتت عنجهية محاكم التفتيش.

وعلم الطب الحديث لم يكن طريقه مفروشا بالورد،فمنذ أمد قريب كانت الأم الجاهلة ترفض التشخيص العملى لمرض ابنها،وتؤمن أن ما به عين حسود،أو عمل سحرى رمته به ضرتها؛لأن ذلك يملق غرورها بجمال ابنها،ويدفع عنها تهمة القذارة التى تجعلها هى وابنها تحت رحمة ذبابة حقيرة تنقل الجرايثم إلى الطعام.

فالأسلوب النفسى أسلوب ميكانزم دفاعى نفسى،مرتبط بالحياة النفسية، ومرتبط بالتفكير الذاتى الذى يناصب الموضوعية العداء فى جميع الميادين، فمن باب أولى يرتبط هذا الحاجز النفسى بالأمور الوجدانية جميعا،ويرتبط على الخصوص بالعقائد التى تكتسب هذه السمة الذاتية عند من يغلب عليهم المستوى الذاتى فى التفكير،ويكون من السمات المميزة له منطق التمنى الذى يجعل الشخص يصدق ما يروقه،ويشيح عما لا يروقه،أو هو بعبارة أخرى أسلوب التعامى عما يكره بل العداء الأعمى له والإقبال على ما يهوى،ومن هنا ينشأ التضخيم الأسطورى وتنسج الخرافة حول ما يوافق أهواء المرء ذى التفكير الذاتى،وكذلك الخرافة المضادة حول ما يباين أهواءه واعتقاداته الذاتية.

مزيد من التنوير هو العلاج لهذا التفكير الذاتى،بحيث يقضى تزايد الاتجاه الموضوعى فى التفكير على منشأ الحاجز النفسى،الذى هو وليد ذاتية التفكير،وقد بات التنوير فى عصرنا متاحا عن طريق وسائل التربية الحديثة وعن طريق وسائل الإعلام التى ينبغى أن تكون فى حقيقتها الوسائل الأساسية للتنوير الفكرى،لا

بمعنى بث المعلومات،بل بمعنى تغيير طريقة التفكير نفسها والسلوكيات التى وراء التفكير ،فالأمل معقود على هذه الوسائل أن تقضى على التفكير الخرافى،وتتجه بالفكر إلى الأسلوب الموضوعى شئيا فشئيا.

أقول أن الأمل معقود عليها،ولكن هذه الوسائل مقيدة فى الغالب باعتبارات كثيرة،تجعلها فى كثير من الأحيان تراعى مطلب الجماهير،أى تتحرى غالبا ما يرضى الجماهير ويسليها،لا ما يصلح من شأنها،وكثيرا ما تنساق وراء الموجة الطاغية،بدلا من التصدى لها والوقوف فى وجهها.

يبقى بعد هذا أن التصدى لشق الطريق أمام الموضوعية هو واجب المفكر فى المقام الأول،قبل أن يكون مهمة التنفيذيين من القائمين بالتربية والإعلام،فالمفكرون قدرهم فى أمور الفكر وأمور العلم على السواء أن يتلقوا الصدمة الأولى التى تواجه كل دعوة غريبة،ولكن الأمر فى هذا الموقف يتعلق بشخص معين،فى تجربة معينة،وهذا الشخص هو أنا،فما هو الدرس المستفاد من فشلى؟

أما من استجابوا بحسن الإدراك فلا حاجة بهم إلى كلما أكتب؟أثمة جدوى من جهد يثمر عكس المقصود به على طول الخط؟...المستجيبون لى استجابة صحيحة هم أصحاء أصلا،ومن لا رغبة لهم فى الإستجابة لا جدوى من التوجه إليهم بالخطاب،فلا معنى لمواصلة السير فى هذا الإتجاه،هكذا قال لى الواقع،كف يا هذا عن الكتابة على الماء.

ولم أجد على هذا ردا معقولا،ولكن صديقى الذى بداخلى أصر هذه المرة على اللجاج فى المخالفة،فلكزنى وقال:لا تظن أنك أبرأت ذمتك،فما دمت تراهم معتلين،وما دمت تعرف ماذا يبرئهم،فليس من حقك أن تصمت،وأنت مدرك ما

تبديه الذاتية دائما من مقاومة للدعوة إلى الموضوعية أعنف المقاومة وأضرارها،ولا تنس كلمة السيد المسيح:ليس الأصحاء بحاجة إلى الطبيب بل المرضى.

فقلت لصاحبى:هذه الحقيقة على عينى ورأسى،ولكن ما الجدوى،وهم لا يريدون أن يتغيروا،ولا جدوى إن لم يحدث التغيير من داخلهم،والتغيير من الداخل لا يستطيعه أحد إلا الشخص نفسه،الذى يراد له أن يتغير،فأى دور لمثلى،سوى تكرار ما صنعت،وقد تبين أنه عقيم عقيم عقيم؟

فقال صاحبى:لك مثل الزارع الذى ضربه السيد المسيح أسوة،ولك فيه قدوة،دعنى أذكرك به إن كنت نسيت:هو ذا الزرع قد خرج ليزرع وقع بعض الحب على جانب الطريق،فجاءت الطير فالتقطته وجاء بعضه الآخر على أرض صخرية رقيقة التراب،فنبت من وقته لأن ترابه لم يكن عميقا،فلما أشرقت الشمس احترق،ومنه ما وقع على الأرض الطيبة فأعطى بعضه مائة،وبعضه ستين،وبعضه ثلاثين،فمن كان له أذنان للسمع فليسمع.

فابتسمت فى إعياء وقلت:لم أكن نسيت هذا المثل الذى جاء فى الفصل الثالث عشر من بشارة متى،ولكنى لا أدرى فيما حولى أين الأرض الطيبة؟فمن أحسنوا الإستجابة لى أرض طيبة أصلا نباتها يانع ولا حجاة إلى زارع ضعيف مثلى.

فقال صاحبى بإصرار:أنت مخطئ فرصتك كامنة فى النفوس النقية التى لا تقاوم المعرفة متى أتيحت لها،ولكنها لم تتح وسط ظروف البيئة ،فحتى لو كانت نسبة هؤلاء ضئيلة فهم يستحقون ما يبذل من جهد؛لأنهم بحاجة إلى من يفتح عيونهم السليمة على ما كان محجوبا عنهم،بحاجة إلى من يرفع ستار الجهل عن معارف مجهولة لهم لحكم الظروف،فينمو فى داخلهم استعدادهم الكامن للموضوعية، هؤلاءهم أرضك الطيبة التى لم تزرع،فازرعها أنت،فهؤلاء هم الأمل،وهم الشمعة

التى مهما كانت صغيرة،لإنها تبدد الظلمات،ولا يلبث نور الموضوعية أن ينتشر منهم بمرور الزمن،:أد واجبك ودعك مما يكون.

ليس محمد أو المسيح هو الهدف النهائى لكتاباتى إذن،بل هما وسيلتى للتبشير بالموضوعية،فلست مبشرا بدين،ولكنى مبشر بالعدل،والنزاهة بين يدى المؤمنين بكل دين،بل بين يدى جميع البشر،ولكن الذاتية تمسخ العقائد السامية وتحول سماحتها وعدلها إلى تحيز وتعصب أعمى،وضد هذا المعقل الباطل للذاتية والتعصب ينبغى أن توجه أعلام للموضوعية والنزاهة وأبواقهما الصارخة،ضد هدا المعقل الباطل الذى يمسخ جوهر كل تدين تكون معركة الموضوعية والعدل والسماحة والحب.

ولا تتبدى الموضوعية فى أوجها إلا حيثما تكون إنصاف نزيها لعقيدة مخالفة،إذن هنا ميدان المعركة الحقيقية ضد الذاتية والجور والعدوان،لهذا يكون البيان العملى للإنتصار للموضوعية والدعوة إليها،أن يكتب الداعية الموضوعى المسيحى العقيدة عن الإسلام،عن محمد،بدافع من الرابطة الإنسانية ومن الوحدة القومية ومن تكوينه النفسى أيضا.

(١٠)

يعود نظمى لوقا مرة أخرى إلى كتابة تكوينه النفسى،كان قد فعلها عندما حكى عن الصبى فى المسجد،لكنه هنا يحكى بنضج أكبر وتحت عنوان «نفس وما سواها»...يكتب نظمى:

الله وحده يدرى كم هو شاق أن يعرى المرء أعماقه أمام الكافة،وليس من وراء ذلك رغبة فى التباهى،فما فى أعماقنا إذا ما تحرينا الأمانة العلمية معظمة ليس مدعاة للزهو،بل الأمر بالعكس فى أغلب الأحيان،والله وحده يعلم كم كلفنى من جهد أن

أتغلب على ضروب المقاومة الذاتية كى أتعقب وأقتفى أثر مكوناتى النفسية منذ الطفولة،ففيها الكثير مما يسبب الحرج لى،ولأعزاء على نفسى،ولكن ذلك كان أمرا لا مفر منه كى أفهم نفسى ودوافعى واتجاهاتى التى كثيرا ما سببت لى المتاعب،ولكنها كانت مفروضة على من داخلى فرضا لا فكاك منه،وما دمت قد سلكت طريق الصراحة والمصارحة مع الناس،ووقفت حياتى على هذا،فأولى بى أن أبدأ بالصراحة فى مواجهة نفسى،بلا مواربة وبلا هوادة.

كانت البداية ظروف مولدى،فقد جئت الثمرة الأولى لزواج أب شاب متوسط التعليم،ولكن طموحه الدنيوى كان فوق المتوسط بكثير،وأم كانت أقرب إلى الطفولة،كانت غريرة فى الثالثة عشرة لم يتح لها بعض التعليم الإبتدائى،مع تربية غير مستنيرة،فى بئية كانت الأفكار الخرافية تشكل فيها معظم تصورات الإناث،فلا غرابة وهى الطفلة التى لم تكد يكتمل نموها البدنى،أن مرضت بحمى النفاس عقب ولادتى،ولم يتح لها إرضاعى،ولولا عطف بنات الحلال من الجارات وذوات القربى ممن يرضعن لما كتبت لى الحياة،بل كانت القريبة العجوز التى ترعانى وأمى فى المستشفى تطوف فى يومى سوق المدينة – دمنهور – وهما يوم الاثنين ويوم الجمعة لترضعنى ذوات الأطفال من الفلاحات الغريبات على سبيل الإحسان،فلم نكن يؤمئذ نعرف الألبان الجافة التى يتغذى بها الأطفال.

ولكن أمى التى لم تتمكن من إرضاعى من لبن صدرها،جعلت همها كله فى ملء رأس لعبتها الحية – أنا – بلبن من نوع آخر هو تصوراتها الطفولية عن الناس وعن الدنيا.

ولما كانت صحتى منذ طفولتى الأولى معتلة،وبنيتى شديدة الضعف،فقد أحاطنى والداى بسور يعزلنى عن كل مخالطة مع الأقران والأنداد،وصارت أمى

هى مصدرى الوحيد لكل تصور للناس وما بينهم من علاقات،أما أبى فكان رجلا داجنا ما أن يعود إلى البيت حتى يلزمه إلى الصباح التالى فيجالسنى وأمى،ويطالع لنا فى كتب كان يقتنيها،كان أهمها كتابان:كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة،ثم روايات معربة تدور حول المغامرات والفروسية،أو يحدثنا عما يغلط به الناس عن أخبار الحركة الوطنية،وما أن قاربت ختم عامى الثانى حتى أنبت هذا المناخ – الذى نمطه الكبار دون سواهم فى السلوك – لهفة شديدة من جانب الطفل أن يدخل عالم الكبار من بابه الوحيد الذى كان لم يزل موصدا فى وجهه،وهو باب القراءة.

وسارع أبى فى فرح بالغ إلى فتح هذا الباب على مصراعيه،وساعدت اللهفة الطفولية المشبوبة على سرعة التعلم فى نهم شديد،هو مجال النشاط الوحيد لطفل لا يعرف اللعب مع الأقران،ولا الرياضة ولو فى صورة تلك الشيطنة التى تعهد فى الصغار الأسوياء،وهكذا باتت القراءة والفضول إلى المعرفة ميدان الشيطنة الوحيد لهذا الطفل العليل الذى تكفى نسمة هواء كى تلزمه الفراش أسابيع.

وأغالب الحياء وأنا بسبيل هذا التشريح الذاتى،ولا حياء فى العلم،فأقول : أن جدى لأبى كان متوفى،وأن أمى شبت يتيمة من نوع عرفت فيما بعد أنه كثير الحدوث فى المجتمع المصرى،ولكن ليس بين أمثالنا من المسيحيين،فقد كان أبواها مطلقين،وذلك كما أوحى إلى فى ذلك المناخ،سقطة أو وصمة،وتزوجت جدتى لأمى من رجل كان موضع الكراهية من أسرتى،لا لشئ إلا لأنه تزوج جدتى.

ثم اكتشفت حين شببت عن الطوق أنه مفترى عليه،فقد كان رجلا ممتاز الثقافة،أوقعته ظروف الزواج يومئذ فتزوج هذه المرأة الواسعة الثراء المعتدة بثرائها،والمعتدة على الأخص بأميتها الفكرية،أما جدى لأمى وكان ابن عم أمى فكان والدى،بموافقة أمى الناقمة على أبيها،قد حرم عليه دخول البيت؛لأنه كما كانا

يكرران أمامى دائما هو سبب البلاء،فهو شديد الولوع بالنساء وبالشراب،خليع ماجن لا يشعر بالمسئولية عن شئ ولا يبالى الملام،فضيحة تدب على قدمين.

وهكذا أضيف عنصر جديد هو صرامة المقاييس الخلقية والنقمة والإزدراء لكل انحراف عن سواء السبيل أو الجز عن التحكم فى الرغبات والشهوات،التى هى من وسوسة الشيطان.

سار كل شئ على ما يرام،فخلت حياة الطفل النفسية من الأزمات وألوان الصراع الداخلى،وخلت من الإحتكاك بالعالم الخارجى الذى صوروه له حافلا بالشر والسوء،فهو لا يعرف أو لا يسمع عن أحد إلا نمطين مقتابلين تماما،الزعيم البطل المعبود سعد زغلول،الذى كانت صورته هى الصورة العائلية الوحيدة فى البيت،أى كانت تقوم مقام صورة الأب أو الجد الذى كانت تتباهى به الأسر الكبيرة،وهذا النمط البطولى هو المثل الأعلى عند ذلك الطفل،ويقابله النمط الآخر المزدرى رغم قرابته الحميمة وهو جده لأمه،وفيما عدا هذا لا علاقات مباشرة بأحد.

ولكن قبيل الرابعة من عمره رزقت الأم بطفل آخر،ففكر الأبوان فى إرسال الطفل الأول إلى المدرسة،ولم تكن هناك رياض أطفال،بل مدرسة أولية هى مدرسة العريان،هكذا كان اسم الوجيه الذى أنشأها وأوقف للإنفاق عليها جزاه الله خيرا.

وذهب الطفل الضعيف البنية المتضخم الرأس حجما ومضمونا،إلى تلك المدرسة فإذا أولاد فى ضعف عمره أو أكبر فى جلاليب،وبعضهم يلبس قبقابا ،وبيد كل منهم مخلاة من القماش بهذا اللوح وقلم الإردواز وعلى رأسه طاقية،وليس للمدرسة فناء،فهم يتجمعون فى الشارع الضيق المبلط بأحجار مستطيلة صغيرة سوداء،حول عربات الحلوى الرخيصة وغزل البنات،والدندرمة،فكان أول التقاء

لـه بالعـالم الخـارجى مـع أبنـاء جيله،وصـدمته حقـارة مظهرهم،وصـدمتهم – أو استثارتهم – قامتـه الصـغيرة وأناقـة بدلتـه وحقيبتـه وطربوشـه،وهبوطه مـن العربـة الحنطور فى صحبة حسين خادم الأسرة،وصدمته أيضا ألفاظ غريبة يتراشقون بها ثم يتعاركون أو يتضاحكون،ولم يفهم تلك الألفاظ ولكنه أحس مـن ردود الفعـل أنهـا صفات غير كريمة ترمى بها الأمهات خاصة.

دخل قاعة الدرس فإذا هو أوليات الأبجدية،التى تجاوزهـا منـذ أمـد طويـل،فهو الآن يقرأ الصحف والكتب،وأدرك الشيخ مستواه فنقلـه إلى فصـل أعلى،ونظـرات أقرانه تكاد تلسعه،وفى الفصل الأعلى كان الشيخ الآخـر يكتـب عـلى السـبورة،حين اختطف الصبى الذى بجوار الطفل قلمه الإردوازى عنوة،فصاح به:

- هات قلمى

وقال الشيخ وهو يواصل الكتابة على السبورة:

- من ابن الكلب الذى تكلم بغير إذن؟

فوجد الطفل نفسه يثب مـن مكانـه كمـن لدغتـه عقرب،ويتجه إلى الشـيخ عنـد السبورة ويسأله باستنكار:

- أجئنا إلى المدرسة لنتعلم الأدب أم قلة الأدب؟

وثــارت ضــجة واحــتقن وجــه الشــيخ،وتناول يــد الطفــل فى قســوة وراح يلويها،فـانقض الطفـل عـلى يـد الشـيخ وأنشـب فيهـا أسـنانه،وأفلته،وجرى يهـبط السلم،والفصل يموج بالهرج،وتوجه إلى الشيخ الكبير – ناظر المدرسة – وكـان مـن معارف أبيـه،وانفجر أمامـه باكيـا مـن الغيظ،ومـا لبـث أن لحـق بـه خصـمه فى حالـة هياج،وهمس الناظر فى أذنه فهدأ..ثم التفت الناظر إلى الطفل وقال له:جزاء الكـلام فى الفصل بغير إذن حاضر فى الحجرة المقابلة ...تعال معى.

وجره جرا إلى حجرة كان فى أرضها غطاء حجرى لبئر،وفيه حلقة حديدية – عرف الطفل فيما بعد أن تلك البئر مخصصة للصرف الصحى بالمضخات كما هو الحال فى بيوت معظم المدن فى ذلك الحين،وقال الناظر:«هنا يعيش التمساح الذى نلقى إليه بالأولاد الذين يتكلمون فى الفصل،وسأعفو عنك هذه المرة لأنك كنت لا تدرى هذه الأصول.

ولما ذهب الطفل إلى البيت مستقلا الحنطور،كتم عن والديه ما كان ولم ينم طول ليلته مشغول الخيال بالتمساح،وفى الصباح طلب من أبيه شيئا سمع التلاميذ يقولونه،وهو المصروف،الذى يشترون به تلك الحلوى والدندرمة وعبس أبوه،ودقت أمها صدرها،وحذراه من تلك السلع،قائلين إنهم وضعوا فيها سما يقتل آكليها،وحدثته أمه عن صفرة لون الدندرمة حديثا ملأه تقززا،وأعطياه قطعا من الشيكولاته والحلوى الممتازة التى كانا قد عوداه عليها فى البيت.

وصدق ما سمعه كعادته،وذهب إلى المدرسة يغلى بالرعب والقلق على مصير آكلى تلك السموم،ورأى الصبية كعادتهم يشترون ما تعودوا على شرائه،وركبه من الخوف عليهم ما بعد وما قرب،فاندفع يصرخ بصوته الضعيف بأعلى ما استطاع يحذرهم من السم الذى وضعه الرجل فى الحلوى،ومن بول الحمير الذى قالت أمه أن بائع الدندرمة الصفراء يلون به سلعته المشتهاة.

هاج الباعة وهاج الأولاد حتى خرج الناظر إليهم،واستخلصه من بين أيديهم،وهو يبكى ويتوسل إليه أن ينقذهم حتى لا يموتوا بالسم وبول الحمير.

وأخذ الناظر إلى حجرته وهو يضحك،وراح يوضح له أن ما قالته له أمه غير معقول،فما الذى يحمل الباعة على قتل زبائنهم وهم مصدر رزقهم؟وإنما مراد أمه حمايته مما عسى أن يكون فى هذه المصنوعات الرخيصة من قذارة غير مقصودة،ربما

سببت أمراضا،ولكنها بالتأكيد خالية من السم،فلا تفزع خوفا عليهم إلى هذا الحد،فكل يوم يأكلون منها بالمئات،وأما لون الدندرمة الأصفر فمن صبغة الكركم ولا علاقة لها ببول الحمير،وعلى كل حال لا تخرج فى الفسحة معهم،وابق هنا معى،وسأرسل من يأتينى بالدندرمة وأكلها أمامك.

وعند الظهر خرج مع التلاميذ ليجد الحنطور فى انتظاره،وإذا بالأولاد جميعا يزفونه منطلقين مهللين وراء العربة :العبيط أهه.

فكانت هذه الحادثة نقطة التحول الحاسمة الأولى والتى طعنت كرامته وشعوره بالاستعلاء أو التفوق على هؤلاء الأجلاف،وهدمت سور الحماية الأموية والأبوية الذى أقر فى نفسه أن والديه هما منبع الحقيقة التامة القدسية ولأول مرة عرف معنى الشك والارتياب ومعنى الوحشية.

لقد جرحت عزة نفسه جرحا غائرا جدا،وشعر بهوان الغفلة،وكان رأس ماله الوحيد هو التفوق فى المعرفة والفهم،فمنذ اليوم وداعا لللإستسلام للتلقين،منذ اليوم صارت الأهمية الأولى فى حياة الطفل لحماية نفسه من الغفلة ومهانتها،ومن باب أولى ينفر من استغفال أحد أو خداعه،ولن يتقبل بعد اليوم أى كلام على أساس الثقة بسلطة المتكلم ومكانته،لابد أن يتيقظ ذهنه غاية اليقظة للتثبت بنفسه من حقيقة كل ما يقال له،وأن يحتكم إلى عقله الناقد،ولابد أن يتحرى الصراحة حتى لا يرتكب فى حق أحد ما سببه له أبواه،وإن كان بحسن نية.

وهكذا انقلبت قدسية السور الذى نشأ فى داخله،إلى حنق عليه لأنه لم يعد حصن الأمان،بل القيد والغل ومصدر فخاخ الغفلة والمهانة،وهكذا انتهت بسرعة وفجأة سنوات البراءة والسذاجة،وانتهى سبات الشك والنقد والحذر وبدأ الإغتراب الحقيقى،انتهى عهد الأمان وبدأ عهد الخطر،وأثمرت عقدة الفزع من مهانة

الغفلة،هذه ثمارها البعيدة فى موقفه من الناس،وقد انقلب من الطمأنينة إلى الوالدين وما يمثلان من معرفة وقيم،إلى القلق والتوجس،فهو منذ اليوم فطيم العقل يجب أن يعتمد فى زاد عقله على سعيه المستقل،لن يرضعه أحد معرفة ولا قيمة،بل يتناول كل ما يقدم إليه ليفحصه قبل أن يبتلعه.

ومن هذه العقدة بدأت النزعة المتطرفة إلى الإستقلال الفكرى،لم يبق من المثل العليا لطفولته الأولى إلا الزعيم البطل سعد،وأما المعرفة فعليه أن يبحث عنها باجتهاده المستقل ما وجد إلى ذلك سبيلا،مثلما قال سعد : إن مهمته أن يسعى إلى استقلال مصر ما وجد إلى ذلك سبيلا،وتلفتت نفسه فيما حوله بحثا عن قدوة له فى المعرفة والفهم يناظر قدرة سعد فى الوطنية،ولم يتح له هذا إلا وهو فى السادسة،عندما أتاح له القدر مؤدبه الفذ الشيخ البخارى.

وعلينا أن ندرك أن الشعور بالنقص فى القوة البدنية عند احتكاكه بأقرانه،التمس التعويض فى التفوق بالإستقلال الفكرى وطلب المعرفة،والترفع عن التماس المكانة فى الحياة العملية ومعتركها الجياش الطامى بعداونيين يأنف أن يجعل قيمته مرهونة بميزانهم،أو الدخول معهم فى منافسة الأنداد.

ففى المدرسة الإبتدائية كان الصبى ظاهرة لفتت أنظار أساتذته بسبقه سنه فى أنماط السلوك والتفكير والمعرفة،حتى وهو فى السنة الأولى أو الثانية،يستدعى إلى فصل الرابعة (سنة الشهادة الإبتدائية ذات الحول والطول يومئذ) ليصحح ابن السابعة لذوى الشوارب من تلاميذها الموقرين معلوماتهم،على سبيل التبكيت لهم،فيكون جزاؤه أن ينتظروه عند انصراف المدرسة ليكبسوا له طربوشه ويصفعوه على صدغيه وعلى قفاه ويمزقوا له ملابسه.

فهل من عجب أن يكره بعد هذا ما كان يريده له أبوه من مستقبل فى المحاماة

والخطابة والسياسة؟التى يكون فيها ميزان الأصوات والرضا والقبول بين أمثال هذا الجمهور ...هؤلاء الغوغاء؟

كلا ليكونن سبيله إلى الإرتفاع هو الترفع،وليكن ميدان جهاده بعيدا عن سلطانهم،أى فى دخيلة نفسه وفكره،وهكذا بدأت مرحلة انطواء والعزوف عن مخالطة الناس أو مجاراة أنماطهم السلوكية والفكرية.

وأثمرت هذه الإتجاهات النفسية مرحلة شك مطلق فيما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة،؛لأن مراهقته التى ضاق فيها بتنبه عنيف لنشاط طارئ عده نشاطا حيوانيا (وكيف لا يفزع وأمامه صورة جده لأمه المروعة؟) وجدت متنفسها فى قمع هذه الحيوانية والإستعلاء عليها بدلا من الإنقياد لها،بالإنصراف العقلى إلى اقتحام سر الكون الأعظم بدلا من اقتحام عالم الجنس مستقلا بنفسه عن الدروب المطروقة،فلئن كان الله موجودا فلابد له من الوصول إليه بعقله هو،فكان كتابه الأول عن فكره الفلسفى الخاص،الذى كتبه وهو فى السابعة عشرة وعنوانه «الله فى نظر الناس وكما أراه»...هو موطئ قدمه الخاص به على شاطئ النجاة من لجة الشك المطلق.

وفزع والده من هذا الإنصراف عن دراسة القانون إلى الإنهماك فى هذا الشئ الذى لم يسمعا بمثله من قبل،ومن نعم الله أن الطباعة كانت زهيدة جدا،فاستطاع أن يدبر نفقاتها من مصروفه الخاص وهو يطلب العلم فى مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة التى دخلها قسرا،وصار أبواه يضربان كفا بكف،ولكنهما تمنيا أن تكون هذه الفلسفة طيش شباب لا يلبث أن يزول،فيثوب الفتى إلى عقله،ولكن الكتاب استرعى انتباه المرحوم الأستاذ أحمد أمين،وبعث إلى الفتى،وقدمه إلى طه حسين،وخصص له منحة فى كلية الآداب لدراسة الفلسفة ،وركب أبويه المسكينين

الهم،والتمسا العوض من الله عن ابنهما البكر،بأن يحقق تاليه آمالهما الدنيوية، واستجاب لهما الله فصار أخوه الصغير طبيبا وهى مهنة مرغوبة مرموقة.

وواصلت طريقى المستقل كى استكمل فى مسيرة أكثر من أربعين سنة ثانى مذهب فلسفى مستقل فى مصر المعاصرة،بعد مذهب يوسف كرم العقلى المعتدل،وهو مذهبى المسمى الفلسفة التعبيرية مهما تصايح نفر من الناس بأنه لا فلسفة فى مصر اليوم.

وعلى امتداد هذه الرحلة - أو الخيبة كما كانت تسميها أمى - انتقلت إلى تطبيق موضوعية الفكر الفلسفى التى ناديت بها،على التفكير العام،بغية إصلاح تفكير الناس الذاتى الذى وجدت فيه علة فسادهم الفكرى،فكتبت عن محمد بمنهج موضوعى منصف،ثم كتبت عن المسيح بعين المنهج،كى أبرهن على أن الموضوعية هى الأرضية المشتركة الوحيدة بين البشر على اختلاف مذاهبهم،وأنها ممكنة فعلا سواء نظرنا إلى عقائدنا الخاصة أو العقائد المخالفة،ولكن أمى كانت ترى ذلك قمة الخيبة القوية التى ابتليت بها،فكانت تقول لى متحسرة:ما أقل عقلك يا ولدى،إن الناس يريدون إصلاح أرزاقهم ولا يريدون إصلاح عقولهم،فلماذا لا تقدم للناس ما يريدون،وتصر على أن تقدم ما لا يريدون..هذه تجارة خاسرة،أما كفاك أنك احترفت الفلسفة التى لا يريد أحد أن يهتم بها فى هذا البلد؟أليس لك عقل يريك أين مصلحتك؟

فقلت لها:هكذا المفكر ..والمفكر ليس تاجرا،فزوت فمها وقالت بالامتعاض: وهذا أيضا من قلة عقلك،فالتجارة شطارة،ولكنك من يومك وأنت خائب،لم تحسن إلى اليوم ربط حذائك فتسير به مفكوكا معظم الوقت،وقد عوض الله صبر أمى خير،فإخوتى كلهم برأهم الله من خيبتى وكلهم يحسنون ولله الحمد ربط

أحذيتهم.

ونترك الخط العقلى ونتعقب المسار الوجدانى فى تكوينى النفسى،وهو ذو أهمية قصوى فى سلوك كل إنسان؛لأنه مصدر دوافعه واتجاهاته،وهذا شديد الأهمية فى توضيح اتجاهى النفسى إلى تحدى المحاذي بالكتابة عن «محمد والإسلام».

وقد وقفنا عند مركب النقص والسلوك التعويضى الذى مصدره الفزع من الغفلة،والذى جعل مجالى الأوحد تعويض النقص الجسمانى بالإتجاه إلى التسامى بغرائزى،وإلى الترفع عن الدروب المطروقة فى الفكر والقيم،وكيف أنى وجدت مثلى الأعلى فى مؤدبى الأول العالم المتوقد،تلميذ محمد عبده الذى صار قدوة لى فى منهج التعويض عن ضعف البنية،فهو قصير القامة كفيف البصر بالتطلعات الذهنية والخلقية وسمو المبادئ الفكرية والروحية المسرفة فى نزاهتها.

وتخرجت على يده فى العاشرة وبدأت أستقبل رياح الحياة معتمدا على نفسى وعلى القراءة،ونشدت من بعده التوحد أو التطابق مع شخصيات تاريخية ماضية ومعاصرة،صاروا مثلى العليا التى أتقمصها،لا من حيث هم،بل لما يمثلونه من قيم عقلية وروحية وبطولة،فعالم القيم الإنسانية المثلى صار هو انتمائى الحقيقى وملاذى من الاغتراب الممض الذى بدأ فى السنة الرابعة من عمرى.

ولكن البطولة التى يعشقها مثلى لا يمكن أن تكون بطولة القهر والجبروت والعنف،الذى ذقت منه الأمرين،فنفرت من نمطه السلوكى العدوانى،وكان سبب انطوائى وشعورى بالنقص البدنى،واتجاهى إلى التعويض الروحى،فأمثال قيصر ونابليون كانوا بغيضين إلى نفسى؛لأنهم وباء البشرية،أما البطولة الحقة فهى بطولة محبى البشرية المناضلين فى سبيل خيرها.

لذا لم أعتز بأننى سليل خوفو ورمسيس وتحتمتس،حاشا،بل إننى سليل أمحد

الفراعنة وأنبلهم..إخناتون،فهذا هو المجد الحقيقى،وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون،وهكذا لم يرتبط المجد عندى بالنجاح،فالنجاح قد يكون غالبا ضؤبا من تسلق يتفوق فيه القردة على البشر،ورب فشل سببه سمو النفس وترفعها عن الصغائر والدنايا،ورب فاشل لمزية فيه وغياب نقص.

ولكنى لم أكن من الغباء النفسى بحيث أطلب أن يكون كل الناس،وكل الأبطال صورة منى ومن نقصى البدنى وعقدتى التى تفزعنى من استخدام القوة ولو لنصرة الحق وخير البشرية إن اقتضى الأمر ذلك.

بل كنت أعرف مواطن نقصى أو عجزى،وأكبر خلو أبطالى الإنسانيين الروحيين الأخلاقيين منها،لهذا أكبرت واشنطن وقد حارب ليستقل قومه،وأكبرت أكثر منه لنكولن الذى لم يتوان فى محاربة طائفة من قومه ليحرر العبيد،وأكبرت أنه استطاع ما أعجز عنه من العنف لنصرة الحق،وعشقت غاندى لأنه بسموه الروحى حارب تعصب بنى دينه مثلما حارب بالعصيان المدنى وعدم العنف مستعمريه من الإنجليز،عشقته حتى أنى كنت أصوم كلما أعلن الصيام،وعشقت المسيح وتعاليمه المثالية،وعشقت أيضا نبى ديانة أخرى غير ديانتى،هدى قومه عبدة الأصنام إلى عبادة الله الواحد وقاوم كل محاولة لرفع قدره فوق مستوى بشريته،وامتشق السيف ليقيم دولة مؤمنة بالله على أنقاض فوضى قبائل كافرة لا خلاق لها.

وهنا تماس هذا الحب لمحمد مع فلسفتى الموضوعية،ووجدت الكتابة عنه بيانا عمليا أو منفستو لموضوعية الفهم والمعرفة والتقدير لمحسن إلى البشرية،وهادى مئات الملايين إلى التوحيد ومحاسن الأخلاق ومكارمها وميزان العدالة فى التعامل مع الناس.

ومثلما كتبت أبصر الناس بسمات الإسلام وسجايا محمد الموضوعية،فى كتابين

هما «محمد الرسالة والرسول» الذى أساءت الكثرة من أبناء الديانتين فهم مراميه و«محمد فى حياته الخاصة» كتبت عن أبى بكر وعن عمر فى موضوعية من يرى فى كل بارقة خير وقدوة وسمو،منارة تصلح أن يستضيء بها البشر الموضوعيون كافة،أيا كانت عقائدهم ،كذلك كتبت فيها بعد «على مائدة المسيح»،بنفس الموضوعية المحايدة التى ينبغى أن ينظر بها إليه كل إنسان أيا كانت عقيدته،أى أننى شرعت هذه الموضوعية وفرضتها طريقا لنفسى قبل غيرى،فيها يتصل بعقيدتى،وما يخالفها على السواء.

(١١)

لقد حرصت على تسجيل ما قاله نظمى لوقا عن نفسه وعن حياته نصا؛لأنه أراد أن يؤكد من خلال العرض التفصيلى لحياته وتكوينه النفسى والدينى،لماذا سلك الطريق الذى مضى فيها منصفا لرسول الإسلام.

ورغم أن بين ما كتبه فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» عن حياته،وما كتبه فى كتابه «أنا والإسلام » عن حياته فيه كثير من الإختلاف،لأسباب تتعلق بنضج الرجل وتمكنه من مذهبه الفلسفى،فالفارق الزمنى بين ما كتبه فى المرتين يصل إلى ربع قرن،وهو فارق زمنى سمح له بأن تتضح رؤيته وأن تنضج.

لكن ما لفت إنتباهى بالفعل أن نظمى لوقا وهو يفصل انحيازه إلى الموضوعية فى الكتابة عن تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم،لم يتورط فى الرد على الاتهامات التى اتهمه بها القمص سرجيوس،وهى إتهامات تجعل منه رجلا موتورا كارها لكل ما هو مسيحى،وهو ما نفاه نظمى عن نفسه بطريقة عملية لا ترقى إليها الشك من أى جانب.

إننى لم أبحث عن كتابات نظمى لوقا الإسلامية وأعرضها تفصيليا من أجل

نصرته للإسلام،فكتاباته فى واقع الأمر لم تؤثر كثيرا،ولم تجعل ملايين المسيحيين يدخلون الإسلام؛لأنها ها هى شهادة شاهد من أهلها،ثم إن كثيرا من المسلمين تشككوا فى هذه الشهادة؛لأنهم لا يعرفون شئيا عن الموضوعية،فما دام الرجل يشهد للإسلام ولرسوله بكل هذا،فلماذا لا يعلن إسلامه،ولماذا لا يدخل فى الدين الذى يعتبره خير وحقا وجمالا.

إننى لن أحكم على نية نظمى لوقا،بل أحكم على فعله،ولا يمكن أن أكذبه فيما قاله،لكنى فى نفس الوقت لا أستطيع أن أقاوم إحساسا بأن الرجل كتب ما كتبه سواء عن الإسلام ورسوله ورجاله أو عن المسيح من أرضية الإنسانية،وليس من أرضية الأديان،والانحياز إلى واحد منها على حساب الآخر،بل إننى ساورنى الشك بأن نظمى لوقا من الأساس لا دينى،ولا يهمه أن يكون على دين المسيح أو على دين محمد،لكنه يحب أن يظهر الجمال البادى فى الأديان جميعا.

إن هناك اتجاها بين كثير من المفكرين،لا يهتمون إلى أى دين ينتمون،لكنهم ينتمون إلى الأفكار الإنسانية الراقية التى تفيد البشرية،بصرف النظر عمن قال بها أو ساقها فى طريق العالم.

وهنا لابد أن أثبت نموذجا إسلاميا يقترب فى أفكاره ومنهجه من نظمى لوقا،وهو خالد محمد خالد،له كتاب يكاد يكون مجهولا هو «أفكار فى القمة»...تشى مقدمته بما فيه.

يقول خالد محمد خالد:«لست فى هذا الكتاب مؤلفا إنما أنا قارئ،ومع الفكر الإنسانى فى شتى آفاقه،سنمضى معا وقتا طيبا مباركا فيه،وهذه المختارات التى طالعتها بين ما طالعت عزيزة على أثيرة لدى،ومن أجل هذا أحببت أن تشاركونى متعتها والانتفاع بها،وهى قليل من كثير،مما تركه لنا الفكر العظيم،وهذه المجموعة

التى اخترتها تمثل ما تيسر لى الآن تذكره ثم الرجوع إلى مصادره ونشره،وحين شرعت أختار لم يند عن ذاكرتى الغرض ولا الموضوع،وتألقت فى وجدانى ناصعة مبينة معظم المواقف التى التقيت عندها ذات يوم بكلمات الفكر الرفيع».

أما هذه المواقف التى تحدث عنها خالد فهى بالترتيب وكما قال:

أولا: إنه محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه،ومحمد هذا الرسول الصادق الأمين أحبَّ البشرية من قلبه الكبير،وأعطاها من ذات نفسه،ما يجعل مكانه الأول دوما كلما جاء ذكر الذين آزروها ومهدوا لها الطريق،وهكذا أسعد ببداية سعيدة،تلك هى مع محمد ضد العجز والكذب والألم.

ثانيا: ثم نلتقى فى الصين بلاوتسى وكنفشيوس ومنشيس عمالقة يستنبطون الحكمة من أعماقها ويهدون سواء السبيل.

ثالثا: وفى الهند نلتقى ببوذا،ياله من طود شامخ هذا البوذا العظيم.

رابعا: وفى مصر القديمة نصغى لامنبوبى وبتاح حوتب وخيتى وهم يفكرون تفكيرا أخلاقيا عذبا.

خامسا: ويتلاشى الزمان والمكان فنرى أنفسنا وجها لوجه أمام توم بين،أتعرفونه؟،إنه إحدى معجزات العبقرية البشرية والضمير الإنسانى،إنه القائل:«هذا العالم قريتى».

سادسا: ونلتقى بعده بجوركى فتأخذنا صلصلة فكره المقتحم وتشجينا تغاريده وهو يغنى للحقيقة وللمستقبل،ونودع جوركى سراعا لنلاقى إقبالا،محمد إقبال،إنه شاعر الهند وباكستان وفيلسوفها الكبير،سنقرأ له،وهو يحدثنا عن التجربة الدينية وعن مكانها فى عصر العلم والتجريب.

سابعا:وبعد إقبال نصافح فرويد إنه رجل يخشى ويحذر،فله على فضح النفوس وكشف خفاياها مقدرة خارقة،بيد أنه مع هذا يهدى إلينا من خير أطايب الفكر البشرى وأكثرها نفعا.

ثامنا:وثمة جرس يقرع،ماذا تقول كلماته؟إنها تردد كلمات رابليه:هنا ادخلوا ..ادخلو جميعا ..لندعم الإيمان العميق،فإذا دخلنا التقينا بالكاتب والأديب الفرنسى الكبير ديهاميل،أما الإيمان العميق الذى جلس هناك يدعمه فهو الإيمان بالفكر وبرسالة الأدب والفن.

تاسعا:ونسارع صوب هذا الفن المزهر فثمة طائر يغرد،إنه إمرسون حكيم لا يمل سماع حكمته،ولسوف ينذرنا قائلا:«إن من يختار الراحة لن يشاهد الحقيقة،ومن يختار الحقيقة يقضى العمر سابحا بعيدا عن كل مرفأ».

عاشرا:ونسرع الخطى،فنحن مع العملاق على موعد،تولستوى أيها الأصدقاء،الرجل الذى ودع الراحة والمرافئ،وآثر رفقة العذاب العظيم والنبيل،بحثا عن الحقيقة.

جمع خالد محمد خالد هؤلاء جميعا على ما بينهم من اختلاف وتباين،لا لشئ إلا لأنهم خدموا الإنسانية،وهو ما فعله نظمى لوقا،لقد أنصف محمدا ودينه لأنه قدم إلى البشرية خدمات جليلة.

وهو ما نبحث عنه،ليس مهما أن أختلف معك أو تختلف معى،المهم أن نتعايش،ورغم أن هذا صعب جدا..إلا أننا لا يجب أن نمل من البحث عنه.. فالإنسان يستحق أن نتعب من أجله.



فهرس الكتاب